المعمار العربي

مجلة المعماريين العرب - العدد التاسع ٢٠٢١

المدينة العربية
بين الماضي والمستقبل

إتحاد المهندسين العرب
Federation of Arab Engineers
هيئة المعماريين العرب
Association of Arab Architects

رئيس هيئة المعماريين العرب
د. ايلي حداد

نائب رئيس الهيئة
المعمار احمد الغزو

أعضاء اللجنة التنفيذية المعماريون
ياسين الزبداني
احمد سالم خلف
د. معتز طلبة
محمد العادل بن محمد المنصف السعيدي
د. علي بن جعفر اللواتي

رئيس التحرير
د. ايلي حداد

سكريترة التحرير
لينا حمادة حطيط

تصميم العدد
ماريا بحوث

العدد التاسع حزيران ٢٠٢١

مركز هيئة المعماريين العرب،
مبنى نقابة المهندسين بيروت، منطقة ٤٧- مار الياس،
شارع بيت المهندس.
ص. ب. : ١١/٣١١٨ بيروت – لبنان
هاتف: ٠٠٩٦١١٨٥٠١١١
الرقم الداخلي ١٣٠٩
تلفاكس ٠٠٩٦١١٨٥٨٩١٧
بريد الإلكتروني: info@arabarchitect.org

www.arabarchitect.org

المحتويات

٥ **المدينة العربية بين الماضي والمستقبل**
د. إيلي حداد

٩ **مفاهيم التخطيط والحفاظ على المدينة القديمة في سياق النمو السريع للمدينة الحديثة الكبرى وإعتبار مدينة بغداد نموذجاً**
د. اكرم العطار

٢٥ **الحياة اليومية والعنف المديني: الحرب غير المرئية والمقاومة المرئية**
د. ساحرة بليبلة

٣١ **سياق دمشق الكبرى ومقتضيات العمران المعاصر**
د. ناتاليا عطفة

٣٧ **مدينة الخليل وتطورها عبر التاريخ**
د. رباب الشويكي

٤٥ **الهوية العمرانية لمدينة حلب القديمة ودراسة واقعها الحالي**
د. محمود زين العابدين

٤٩ **مدينة حلب التاريخية: مشاريع إعادة التأهيل بعد الحرب**
د. هلا أصلان

٥٥ **الأنوية التنموية: سبيل الإستثمار والحفاظ على المناطق الأثرية دراسة لمنطقة القصير - البحر الأحمر**
م. حمدي السطوحي

٦٥ **عمّان المدينة البيضاء وأثر الحجر على هويتها**
د. محمود اسماعيل

٧٩ **مقومات البيئة المناخية في النسيج الحضري المستدام في المدينة العربية المعاصرة**
د. عوني شعبان

٨٥ **التصميم المدني في العالم العربي**
د. روبير صليبا

٨٩ **المدن العربية وتحديات عصر ما بعد العولمة**
م. جاد تابت

المدينة العربية بين الماضي والمستقبل

د. إيلي حداد | رئيس هيئة المعماريين العرب

من البديهي أن يسأل البعض عن فحوى طرح موضوع "المدينة العربية" وما يرمز اليه هذا المصطلح في يومنا هذا. فمصطلح "المدينة العربية"، مثله مثل مصطلح "المدينة الإسلامية" الذي غالباً ما يتم المزج بينهما، يبقى موضوع نقد وتشكيك من قبل الباحثين الذين يجدون فيه مجالاً واسعاً لا يمكن تحديده أو الارتكان اليه. ففي الوقت الذي ينسب بعض الباحثين هذا التعريف الى المدينة التي نشأت وتطورت مع ظهور الإسلام وانتشرت حتى العصر الحديث، أي حتى بدايات القرن الثامن عشر، يرى البعض الآخر ومنهم العالم الكبير ألبرت حوراني بأن التعريف بحد ذاته غير واضح ويخضع لتأويل متعدد الاتجاهات، ويرتكز على مفهوم تبسيطي للمدينة الإسلامية.

فهل يتبادر الى ذهننا، عندما نتكلم عن المدينة العربية، صوراً لمراكش المغربية، أم للقاهرة في العصور الوسطى، أم لدمشق الأموية، أم لبيروت عصر الحداثة، أم لدبي في يومنا هذا؟ وكل هذه مدن عربية تطورت وتبدلت عبر التاريخ. لكننا، وبالرغم من هذه الجدلية، أردنا من خلال طرح هذا الموضوع في مؤتمر هيئة المعماريين العرب (حزيران ٢٠٢١) أن نفتح المجال للنقاش حول ماهية المدينة العربية اليوم وما تمثله، كما البحث في التحديات التي تواجه المدن العربية في خصوصيتها، ان من الناحية العملية والاقتصادية أو في ما خص مسائل تتعلق بالتراث والهوية والاستمرارية التاريخية.

وإذ نعيد النظر في هذا الموضوع، لا بد لنا أن نأخذ في عين الاعتبار الدراسات العديدة التي تطرقت الى هذه المسألة، كما الدراسات التي تطرقت الى أهمية المدينة بشكل عام من الناحية النظرية، والتي تتعدى نطاق المدينة العربية.

نظرية حوراني تلقفها الباحث نزار الصياد في كتابه المهم: "مدن وخلفاء : عن نشوء التخطيط المدني العربي الاسلامي" حيث يستعرض هذه الدراسات في ظل انتشار نظرية ادوارد سعيد الشهيرة عن الاستشراق، ويضعها ضمن الاطار الاستشراقي ذاته. هكذا يرى الصياد بأن النظرة المعتمدة حول المدينة العربية الاسلامية تطورت على يد باحثين معظمهم من الغرب أو درسوا في الغرب، بسطوا المدينة الإسلامية فحددوها ببعض المرتكزات: مدينة تتمحور حول المسجد الأساسي ويتفرع منها الأسواق، وترتبط بها مناطق سكنية متراصة. بالطبع هذه الصورة النمطية لا تخلو من بعض الحقيقة، لكن الصياد رأى فيها صورة نمطية جامدة تعطي فكرة محدودة وغير دقيقة عن واقع المدن الإسلامية المختلفة. ويرصد الصياد التسلسل التاريخي للباحثين الغربيين الذين راكموا هذه الصورة النمطية من الاخوين مارسيه الى جان سوفاجي وفون غرونباوم، وصولاً الى البرت حوراني وختاماً بباسم حكيم.

من خلال تفكيكه لهذه الصورة النمطية حاول الصياد تقديم صورة أكثر تعددية عن تطور المدن في ظل الإسلام، ومنها على سبيل المثال مدن مثل دمشق، لم تنشأ مع نشوء الاسلام ولكنها دخلت ضمن الإطار الإسلامي في القرن السابع ميلادي ومن ثم تأقلمت مع الواقع الجديد عبر تبدلات في بنيتها المدينية من تحويل لبعض المقامات الدينية (المسجد الأموي) الى تعديلات في المخطط المديني (المحور الروماني الذي تحّول الى السوق الأساسي). هكذا يتضح بأن دمشق، وهي إحدى عواصم الخلافة الإسلامية، لم تنشأ على مخطط مسبق التصوّر بحسب شريعة ما، وإنما كمدينة تابعت تأقلمها الطبيعي مع تغييرات في الواقع الاجتماعي والثقافي والديني، بحيث تشكل مثالاً نموذجياً للمدينة التي تنمو وتتطوّر كنتيجة تراكمات تاريخية.

في خلاصة دراسته، يستنتج الصياد صعوبة تحديد مفهوم "المدينة الإسلامية"، لأنها لم تأت كلها نتيجة رؤية واحدة وموّحدة، بل كل واحدة من المدن الأولى في تاريخ الإسلام نشأت وتطورت بحسب مجموعة من العوامل والتأثيرات المختلفة، منها ما نشأ كمركز عسكري وتطور لاحقاً الى مدينة، مثل بصرى العراق والكوفى، ومنها ما كان موجوداً قبل مجيء الإسلام، مثل دمشق وقرطبة، فتطورت معه بحسب المستجدات والمتطلبات الحياتية الجديدة. إلا أن الصياد يؤكد هنا بأن هذه التغيرات لم تكن نتيجة نظرة إيديولوجية موّحدة بقدر ما هي نتيجة تفاعلات بين الحياة المدنية والنظام الجديد. في هذا الاطار تعامل المسلمون مع هذه المدن التاريخية كما تعامل معها فاتحون آخرون قبلهم، فأعادوا صياغة بعض معالمها ومراكزها المدينية واستعملوا الأصرحة التي كانت موجودة، مثل المعابد الدينية وغيرها.

ولم يكن الخلفاء الأولون مستقلي الرأي أو منغلقين فكرياً في ما خص تنظيم المدن وتجهيزها، بل منذ ذلك الوقت كانت إنجازات الاباطرة والحكام الغربيين والبيزنطيين تحديداً، يترك أثره على قراراتهم المعمارية، فيهتمون بإعادة تأهيل أحد القصور حيناً، وتطوير البنية التحتية للمدينة حيناً آخر. من هنا يستخلص الصياد بأن إزدياد الوعي لأهمية العمارة ودورها في تجهيز المدينة كان له الأثر البالغ عند العرب في تطوير الهيكلية المدنية للمدينة العربية الإسلامية. هكذا تبلورت هذه المدن مع الوقت بالتأقلم مع خصوصية محيطها الجغرافي والاجتماعي والسياسي، وليس كنتيجة مسبقة لنموذج محدد يتم إستنساخه.

بدوره ركز الباحث الايطالي ستيفانو بيانكو في كتابه المهم عن "الشكل المديني في العالم العربي" على دراسة علمية لتطور المدن العربية الاسلامية، وصولاً الى استنتاجات لا تتعارض مع استخلاصات الصياد، باستثناء البند الاخير وهي إن معظم المدن العربية تعطي صورة نمطية واضحة، كما في فاس مثلاً، حيث الترابط والتفاعل العضوي بين المسجد كمحور ديني والاسواق والخانات والمناطق السكنية يؤدي الى مدينة متجانسة ومترابطة تعطي نموذجاً عن "الوحدة المعمارية".

يعيد بيانكو إذاً التأكيد على الصورة النمطية التي أصبحت شبه معتمدة من قبل الغرب. لكنه في سرده هذا، يعطي تصوراً إضافياً مفيداً حول المخاطر التي تواجه المدن العربية جراء تعرضها للغزو الفكري الغربي، كما لأنماط جديدة من الاقتصاد والاجتماع والسياسة. فالحداثة الآتية من الغرب حملت معها افكاراً لا تتعارض فقط مع البنية التاريخية للمدينة العربية أو الإسلامية، وإنما أيضاً مع كل المدن التاريخية. ومن أهم هذه الأفكار إعتبار المدينة كمجموعة من المنظومات التقنية المتمحورة حول هدف تسهيل التبادل التجاري وتفعيل الاقتصاد الحر. من هنا تلعب شبكة الطرقات والجادات الكبيرة دوراً أساسياً ويصبح مهندس الطرقات والنقل أحد الاركان الأساسيين في تطوير المدينة الحديثة. وكما تشهد معظم المدن العربية، فإن تطوير شبكة النقل هذه أتى على حساب النسيج المديني التاريخي، مقطّعاً إياه الى أجزاء غير مترابطة ومتناثرة، ومحدثاً شرخاً إجتماعياً ايضاً بين المناطق المختلفة التي كانت حتى الأمس القريب، مناطق متصلة بعضها ببعض.

يعطي بيانكو طرحاً وسطياً لحل هذه المعضلة التاريخية، وهي محاولة التوفيق بين ما يسميه بالقيم الإسلامية وبين النظام الغربي العلمي بحيث لا يتم تجاهل البنية الاجتماعية والمدينية للمدينة العربية في أية مشاريع جديدة، بل يسعى القيمون الى المحافظة على المدينة عبر مشاريع تستند الى فهم أعمق للبنية الأساسية للمدينة العربية. هنا لا بد من الملاحظة بأن هذا الطرح التوفيقي يأتي من باب التمنيات الطيبة، لكنه يتجاهل المسألة الاقتصادية في عملية التطوير هذه. فمعاناة المدن العربية من جرّاء هذه الاسقاطات التكنولوجية ليس حكراً عليها فقط، فقد عانت المدن في الغرب أيضاً من هذه الظاهرة حتى أكثرها تناغماً مع الافكار العقلانية التي أسست للحداثة، أي مدينة نيويورك، المبنية على مخطط رصين من الطرق المتعامدة. هناك، على سبيل المثال، حاول المسؤول عن التنظيم المدني روبرت موزس في الستينات من القرن الماضي فرض شبكة جديدة من الطرقات السريعة، تخترق النسيج المدني للمدينة. تصدت الباحثة الاجتماعية جين جاكوبز لهذه المشاريع ضمن حملة واسعة شنّتها على البرنامج "الحداثي" للتنظيم المدني آنذاك، الذي كان يستند إلى دراسات مهندسي النقل لتسهيل حركة السير، متجاهلين مبادىء أساسية وحيوية مثل أهمية النسيج المديني والاجتماعي والذاكرة الجماعية وتراث المدينة. مشروع موزس لم يكتب له النجاح مع اتساع المعارضة الشعبية في بلد يحترم الى درجة ما آراء الناس والقاطنين في المدينة، حيث تلعب أيضاً وسائل الاعلام دور المراقب والكاشف للصفقات المشبوهة، فسقط المشروع وطوى مرحلة من الأفكار المدمرة للمدينة، ليتم بعدها تغيير منهجي في التعاطي مع مسألة التطوير المدني في معظم المدن في أميركا وأوروبا.

لكن الخطر على المدينة لا يتوقف عند حدود مشاريع إمدادات شبكة الطرق، بل يتعداها الى مسألة "التطوير العقاري" التي نرى اليوم نتائجها السلبية على مدن عديدة، إذا أخذنا كمثل على ذلك مدينة بيروت، كانت لا تزال حتى الأمس القريب تتمتع بشيء من نسيج مديني متماسك. إن من سخريات القدر أن الحرب الاهلية كان لها أثر إيجابي في المحافظة على العديد من هذه المناطق بحيث جمّدت الحركة العقارية فيها الى ما بعد الحرب. لكن في ظل غياب الضوابط على عملية البناء التي تلت، بدأ النسيج المديني فيها يتفكك قطعة قطعة، تاركاً مكانه فراغات تحيط بأبراج متوسطة الى مرتفعة الحجم، لا يمكن أن تؤسس لحياة مدنية متوازنة. هكذا نرى بيروت تتفكك تحت وطأة التطوير العقاري، الذي هو أحد روافد النظام الاقتصادي الليبيرالي المتفلت من كل القيود. لا تقتصر عملية التفكيك هذه على المسائل المعمارية، بل تتخطاها لتؤدي الى تفكيك اجتماعي بدأت تظهر بعض الاعتراضات الخجولة ضده، إن من ناحية تحرير الايجارات أو من ناحية التعويضات والاخلاءات التي ينتج منها استئصال ممنهج لشرائح إجتماعية تمتد من أسفل السلم الاجتماعي الى الوسط وحتى الى أعالي الوسط، تجد نفسها مطرودة بالفعل من الفضاء المديني الذي نشأت فيه، مناقضةً بذلك "الحق في المدينة" الذي أشار اليه المفكر الفرنسي هنري لوفافر، لينحصر هذا الحق في طبقة معينة ميسورة. ولم تكن كارثة إنفجار المرفأ (آب ٢٠٢٠) ولا الأزمة الاقتصادية الحادة التي تمر فيها البلاد لتحدّ من الهجوم "التطويري العقاري"، لا بل فإن بعض المتموّلين بادروا في اليوم التالي للإنفجار الكارثي الى محاولة شراء العقارات والأبنية القديمة المتضررة، ليصار بعدها الى هدمها وبناء ناطحات السحاب مكانها.

إلتقى عدد من المعماريين، في فترة ما بعد الحداثة مع العلماء الاجتماعيين مثل جاين جاكوبز وكيفين لينش، فوجدوا في المدن التاريخية الحيوية الردّ المناسب على فراغات "المدينة الحداثية" والمشاكل التي أحدثتها هذه الاخيرة من الناحية الاجتماعية.

لقد أتت ردة الفعل المعاكسة على النظريات الحداثية للتنظيم المدني في الغرب في الستينات حيث برز جناح جديد أو حركة تصحيحية إذا صحّ التعبير، سعى الى تطوير المدينة من دون إلغاء دورها التاريخي. ردّة الفعل هذه حصلت على عدة محاور في أوروبا وأميركا وكان من أهم روادها المعمار والمفكر الايطالي ألدو روسي والاميركي كولن رو. الاول نادى بعودة الى تراث المدينة المتمحور حول فكرتي "المكان" و"الذاكرة"، بينما أبرز الثاني فكرة المدينة "كتركيبة" تختلط فيها الاشكال القديمة والمعاصرة، الكلاسيكية كما الحداثية والمثال الابرز على ذلك مدينة روما .

ترجمت هذه الافكار مثلاً في برلين، التي شهدت مشاريع إعمارية مختلفة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، والتي تحوّلت تدريجياً من نظريات المدينة الحداثية التي نجدها مثلاً في المشروع السكني المعروف بـ "مقاطعة هانسا" المكوّن من مجموعة من الابنية الفريدة، الى المشاريع التي وضعت في الثمانينات والتسعينات والتي ترتكز على فكرة إعادة اللحمة الى النسيج المدني الذي تضرر بفعل الحرب، فكانت المربعات السكنية في منطقة فريدريكستاد في

برلين التي إتسمت بانسجامها مع محيطها من ناحية الارتفاعات وحتى التنسيق من ناحية المواد والانماط المعمارية. هذه المربعات السكنية أعادت إحياء النموذج التاريخي المكوّن من المربع المتواصل الذي يمتد على حدود العقار وضمن إطاره مساحة واسعة مفتوحة تشكل حديقة خاصة لسكان المبنى.

لا بدّ من إلقاء بعض الضوء على هذا المشروع "النيو ليبيرالي" الذي اجتاح العالم منذ أواخر السبعينات. يصف الباحث ديفيد هارفي في إحدى دراساته هذا الاتجاه الاقتصادي بـ"التدمير الخلاّق"، وهو الاتجاه الذي سيطر أتباعه على المراكز الحساسة للقرار في عواصم مختلفة من أميركا إلى الصين، ومنها الأجهزة العالمية التي تتحكم بالسياسات الاقتصادية في العالم مثل البنك الدولي. وقد حمّل هارفي هذا الاتجاه الاقتصادي مسؤولية تدمير انجازات الحركات النقابية، كما العلاقات الاجتماعية التي بُنيت تاريخياً، والأنماط التقليدية للحياة. أما سرّ نجاح هذه الحركة عالمياً، فيعيدها إلى مجموعة من الأسباب، منها أولاً ارتكازها على "الحرية الفردية" كأحد الأقانيم المقدسة للحياة الانسانية؛ ثانياً الظروف الاقتصادية المتدهورة أو غير المستقرة التي دفعت ببعض الدول إلى هذه التجربة كحلٍّ أثبت نجاحه المفترض في تثبيت الاستقرار الاقتصادي في دول شهدت أزمات كبرى مثل تشيلي، بعد الانقلاب الذي قاده بينوشيه. لكن ما تغاضى عنه داعمو هذا الاتجاه، هو أن الاستقرار أتى على خلفية ازدياد الهوة بين أصحاب الثروات والطبقات الأخرى، ولم يضمن هذا الاستقرار سوى الحكم العسكري الديكتاتوري. من أهم نتائج التجربة النيوليبيرالية كان ازدياد الحرمان عند طبقات واسعة من الشعب، ترافقت مع عملية استيلاء على الموارد الطبيعية والمرافق العامة عبر الخصخصة، وتحويل العديد من المكتسبات العامة إلى استثمارات خاصة. يقول هارفي: "إن الاستهلاك المتزايد للموارد الطبيعية العامة، أي الأرض والمياه والهواء، وتعاظم تدهور المَواطن الطبيعية من خلال سياسات لا تحفز سوى أنماط انتاجية كثيفة الاستهلاك والتمويل؛ هذا كله نتج من سياسة تسليعية للطبيعة ككل، وبكل أشكالها" . في إمكاننا أن نضيف إلى ما أشار إليه هارفي من عمليات تخصيصية، تخصيص المجال المديني العام، الذي يتحوّل تدريجياً الى سيطرة القطاع الخاص على الفضاء المديني وذلك ليس فقط في اتجاه أفقي وإنما عمودي أيضاً، بحيث تتحول ناطحات السحاب والأبنية العالية إلى مشاريع سيطرة فعلية على الفضاء المديني، يحوّل هذا الفضاء من ملكية مشتركة إلى خاصة، ويكون الرابح الوحيد فيها أصحاب الموقع الأفضل جغرافياً، الذي في إمكانه حجب المنظر والشمس عن كل ما يقع خلفه. هذا ما شهدته مثلاً منطقة رأس بيروت في نوع خاص، جرّاء التحولات الجذرية في الغلاف المعماري على طول الخطّ البحري الممتد من أول الكورنيش إلى آخره.

بشكل متوازٍ تتحول مساحات المدينة تدريجياً من أماكن عامة تحفز الاختلاط والتعايش والالتقاء بين الناس بشكل طبيعي، الى أماكن "مخصصة"، يكون فيها الدخول والانخراط خاضعاً للمراقبة المكشوفة أو غير المباشرة، التي تساهم فيها عملية "التصنيف التسويقي" (Branding) بشكل غير مباشر في وضعها في خانة معينة تشجع فقط أصحاب القدرات الشرائية العالية وتثني غيرهم عن ولوجها. في مقاربة بسيطة يمكننا أن نكوّن صورة عن هذا الاختلاف بين حيز عام يرتكز على مفهوم الرفاهية والنخبوية، وآخر أكثر طبيعية يختلط فيه الناس من طبقات مختلفة. إن مقارنة الصور من حقبات مختلفة تفيد هنا، ليس من منطلق نوستالجي، وإنما لأنها تعطينا صورة عن اختلاف جذري في طبيعة الحيز العام والحركة فيه، كما عن أهمية بعض المعالم كمحاور أو نقاط ارتكاز للحياة المدينية.

لقد تركّز بحث العديد من المفكرين المدنيين في العقود الأخيرة على إشكاليات المدن عموماً فمن نظرية هنري لوفافر عن "الحق في المدينة" الى تحذيرات دايفيد هارفي وفريدريك جيمسون من سيطرة الاقتصاد الليبرالي على المدينة وتفكيكها، يتفق العديد من الباحثون، من منطلقات فكرية يسارية في الاجمال، على الخطر الكبير الذي يتهدد المدينة كمفهوم اجتماعي . اقتصادي تبلور من أيام الاغريق وحتى القرن التاسع عشر، وتشكل المدينة العربية أو الاسلامية جزءاً لا يتجزأ من مساره التاريخي.

ففي البلدان العربية، المدن القليلة التي لم تخضع بعد الى عمليات "التطوير المدني" أو الى غزوة الاستثمارات الاجنبية، لا زالت تحتفظ بقدر من نسيجها المدني التاريخي الذي تشكل عبر مئات السنين. نجد في مدن المغرب مثالاً على ذلك في "القصبة" التي لا زالت تحتفظ بمكوناتها الأساسية والتي تشكل ركناً أساسياً في تراث هذه المدن مثل الرباط وتونس والجزائر، بالرغم من حالة التفكك والتراجع التي وصلت اليه في بعض الاحيان. إلا أن النسيج المدني لا ينحصر بالقصبة بل يمتد الى الشوارع والمناطق المحاذية، ومنها تلك التي تم تصميمها في حقبة الانتداب الفرنسي، وهي غنية بأسواقها وساحاتها العامة وأرصفة المشاة، وصولاً الى الادراج التي تصل الشوارع ببعضها والتي تتحول، كما في الجزائر، الى أسواق ثانوية تعّج فيها الحياة. تلعب بعض الشوارع والازقة في هذه المدن دور الساحات الصغيرة، إذ يحتلها الجالسون في المقاهي المجاورة ويتمددون فيها، بشكل يعطي هذه الاحياء طابعا خاصا وديناميكية إجتماعية مميزة. نجد أيضاً في هذه المدن التاريخية ترابطاً بين الوظائف المختلفة ومكوناتها، فالمسجد غالباً ما يلعب دوراً رئيسياً في تكوين المدينة العربية، يشبه دور الكنائس المنغمسة في محيطها في المدن الاوروبية، وكلاهما يتعارضان مع صورة الصرح الديني كـ "نصب" منفصل عن محيطه. يذكرنا هذا بدراسة المعماري جيانباتيستا نوللي لروما، وهو الذي وضع أول تخطيط كارتوغرافي دقيق للمدينة في القرن الثامن عشر، يظهر فيه نسيجها المدني المترابط عضوياً، وفيها إعتمد نوللي على إظهار الفضاء الداخلي للكنائس والمعابد كإمتداد للحيز العام، أي الساحات العامة.

إن مفهوم المدينة اليوم في خطر، إذ إن الأقانيم الأساسية للحياة المدينية، المبنية على المشاركة الفعلية والتعددية الطبقية، يتم تدميرها بفعل سياسة التطوير العقاري الحر، المتفلت من كل القيود المفروضة في المدن المتوازنة والمستدامة.

هكذا يتم تحوير أحد المفاهيم المعاصرة، أي "التطوير المستدام"، واختصاره بترشيد استعمال الطاقة في العمارة، مع تجاهل كلي لأهمية التنمية المستدامة على الصعيد الاجتماعي، أي المحافظة على التركيبة السكنية في أحياء المدينة بحيث تؤدي سياسة كهذه الى تنمية تدريجية ومتوازنة واستمرارية الحياة المدينية، بما يؤدي الى المحافظة على السلم الاجتماعي والحق في الحياة للجميع في المدينة. إن أية عملية فصل أو تحييد للمدينة العربية أو الإسلامية

عن هذا المسار التاريخي يجعل منها امتيازاً حصرياً يمكن توظيفه ضمن لعبة التطوير السياحي والمتحفي، أي تحويل أقسام من المدينة، أو المدينة ككل، الى متحف يفقد بالطبع أهميته كنطاق حيوي للحياة الاجتماعية ولإستمرارية المدينة.

على المقلب الآخر من هذا العزل السياحي الثقافي، نجد نماذج لمدن عربية معاصرة إنخرطت كلياً ومن دون أي نقد أو تأويل أو تكرير، ضمن النموذج الغربي، متخطين هذا النموذج في معظم الأحيان، في محاولة لبث صورة تتعارض أحياناً مع الواقع الاجتماعي والسياسي. في مواجهة هذه التيارات المختلفة، ظهر لسوء الحظ، مؤخراً تيار ثالث يرتكز على العودة الى الاصول الدينية في محاولته للتصدي لهذا التفكك على الصعيد السياسي والمديني والاجتماعي. وبتفسيره المتشدد للدين تحول هذا التيار الثالث الى تيار إلغائي، يعيدنا ربما الى بدايات المدينة، بحسب ما يصوّرها المؤرخ الفرنسي الكبير فوستال دو كولانج في كتابه عن "المدينة التاريخية" في العصور الاولى. يؤكد كولانج بأن المدينة بدأت كمجتمع لقبائل مختلفة تدين لآلهة مختلفة، الى أن أتت الاديان التوحيدية، ففرضت الإله الواحد على الفضاء المديني. هكذا نشأت معظم المدن التاريخية على قرار تأسيسي ديني الطابع، من اختيار الموقع الى تحديد الحرم الديني الذي يصبح المركز الأساسي للسلطة المدنية، الى تأطير مجموعة من النشاطات تتحول الى طقوس دينية تنظم الحياة في المدينة عبر فصول السنة. لم تتحرر المدن في الغرب فعلياً من هذه السيطرة الدينية على الفضاء العام إلا بعد الثورات الاجتماعية في القرن الثامن عشر. لربما كان الأثر الايجابي الوحيد للحداثة في العالم العربي هي محاولة تكرار هذه التجربة الغربية، من خلال نشوء احزاب قومية عابرة للطوائف، لكن هذه التجربة سقطت للأسف في أواخر القرن العشرين مع بروز أصوليات أعادت الوضع الى مرحلته السابقة.

بإمكاننا العودة أيضاً الى أفكار الثوري فرانز فانون، الذي ساهم في الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، في محاولة استنباط استراتيجية جديدة للتعاطي مع العولمة ونتائجها. حدد فانون في دراسته ثلاثة مراحل في تطور "المثقف" في ظل الاستعمار: في المرحلة الاولى يحاول المثقف التماهي بقدر الامكان مع الثقافة الاستعمارية، متبنياً أفكارها وأساليبها وطرق تعبيرها، معتبراً أن كل شيء يأتي من الغرب وخاصة الحداثة هو الصحيح، وكل شيء يأتي من تراثه المحلي متخلف وغير قابل للحياة. هكذا يتحول المثقف المستعمر الى "أوروبي" أكثر من الاوروبيين. في المرحلة الثانية، يتحول بعض هؤلاء المثقفين الى مرحلة الرفض، منتفضين ضد الثقافة المستعمرة، وطارحين بدل ذلك العودة الى الاصول، الى اكتشاف الهوية الاصلية. يحمل هذا الطرح، بحسب فانون، مخاطر الانزواء ضمن حدود جامدة، تعاكس التطور الطبيعي للتاريخ والشعوب. على المثقف فعلياً، بحسب فانون، الولوج الى المرحلة الثالثة أي الى ابتداع مفهوم جديد للاجتماع والثقافة، لا يأتي نتيجة صراع بين الحداثة وما – ضد – الحداثة، وإنما الوصول الى "حداثة أخرى" أو alter modernité، ضمن مشروع جديد حيوي وخلاق. هذا التشخيص يمكن اسقاطه بمراحله الثلاثة على معضلة المدينة العربية في عصرنا الحالي، والتي انتقلت من وضعية مدينية حاولت الاندماج كلياً بحسب نماذج غربية استعمارية لم تفلح في نقلها الى مصاف المدن الغربية، الى مرحلة ثانية إتسمت بمعارضة الحداثة من خلال "العودة الى الأصول" ونسخ الاشكال القديمة دون محتواها الاجتماعي والسياسي. لكن هذا المسار التاريخي توقف بين اعتماد الحداثة وبين معارضتها، دون أن يصل الى استنباط نموذج جديد، يرتكز على الهوية وعلى خصوصيات المكان والناس والتاريخ، بما يعيد الى المدينة العربية حيويتها وعضويتها وتاريخها.

لا بل يمكننا من خلال هذا العرض، أن نقول بأن بعض المدن العربية، من المغرب الى الخليج، عادت اليوم الى المربع الاول، أي الى اعتماد النموذج الغربي المعاصر في أكثر تجلياته، والتي تشكل مدن مثل نيويورك، لاس فيغاس، سنغافورة وشانغاي أبرز نماذجه. الحل لن يكون "بالعودة الى الاصول"، مع ما تحمله هذه العودة من مخاطر استنباط أصوليات إلغائية، ولا بالاندفاع اللا-واعي نحو تبني أشكال وأنماط معاصرة لا تمت الى واقعنا بصلة. الحل يكون، كما أشار فانون منذ أكثر من ستين سنة، في استنباط "حالة أخرى" لا تكون بالضرورة معارضة للمشروع الحداثي ككل، وإنما تستقي منه العناصر البناءة.

تيمناً بفكرة الـ alter-modernité التي طرحها فانون، أوّد هنا أن أطرح ضرورة ابتكار نموذج جديد، أي "مدينية أخرى" أو alter-urbanité يكون العالم العربي من روادها. لا بدّ من العودة الى التاريخ والى فهم أعمق لأهمية المدينة العربية، من أجل عمارة أكثر تناسقاً وتناغماً مع محيطها وتاريخها ومجتمعها. فالمدينة تبقى هي الواقع الذي يؤمن إستمرارية حياة شعب ما، هي العمق الفلسفي والكوني لهذا الشعب، هي الذاكرة التي تحفر فيها أحداث الامس وتطلعات الغد، هي السجل الدائم والمفتوح للحياة الاجتماعية على قطعة مميزة من الارض، هي الاطار والحدود للوجود.

1. Nezar al Sayyad. Cities & Caliphs: On the Genesis of Arab Muslim Urbanism. NY:1991
2. Stephano Bianco, Urban Form in the Arab World. Thames & Hudson, 2000.
3. Aldo Rossi. The Architecture of the City. MIT Press, 1984.
4. Colin Rowe. Collage City. MIT Press, 1984.
5. David Harvey. The Condition of Postmodernity. Blackwell, 1990.
6. Fustel de Coulanges. La Cité Antique, 1864.

مفاهيم التخطيط والحفاظ على المدينة القديمة في سياق النمو السريع للمدينة الحديثة الكبرى واعتبار مدينة بغداد القديمة نموذجا للدراسة

د. اكرم العطار | مصمم ومخطط حضري

تشكل المناطق التقليدية القديمة لأية مدينة عريقة عنصرا مهما في كيان المدينة الحديثة الكبرى، وذلك لاحتوائها على الموروث العمراني والحضاري لمختلف مراحلها التاريخية. وأحيانا تكون هذه المناطق القديمة بمثابة مدنا صغيرة نسبيا ضمن المدينة الكبرى. ولاتزال هذه المناطق محافظة على بنيتها العمرانية والوظيفية بالرغم من عمليات التجديد الحضري الهجين الجاري عليها وما يصحبه من التمزيق بشق شوارع عريضة في نسيجها العضوي المتضام ذي الازقة الضيقة. هذا بالإضافة الى التدمير العمراني والحضاري الناتج من الحروب والعوامل الطبيعية. وتعتبر مدينة بغداد القديمة، متمثلة بمنطقتي الرصافة والكرخ القديمة ونهر دجلة بينهما، نموذجا لهذه المناطق ولهذه الدراسة. وكانت تمثل منطقتي الرصافة والكرخ الجسم الرئيسي لمدينة بغداد القديمة لثمانية قرون ومنذ العهد العباسي الأخير (٥٥٥، ٦٥٦ هـ / ١١٦٠، ١٢٥٨م).

ان عملية التخطيط والحفاظ على المدينة القديمة، في سياق النمو السريع للمدينة الحديثة الكبرى، تشكل تحديا قويا لمخططي المدن والمعماريين والمعنيين، لوجود التناقضات والاشكالات الضمنية القوية بين الخصائص التكوينية للمدينة القديمة من جهة ومتطلبات التنمية المعاصرة والمستقبلية للمدينة الكبرى والمجتمع الحضري من جهة اخرى. فعادة تكون الكثافة العمرانية ضمن المدينة القديمة قليلة نسبيا بينما تكون متطلبات التطوير الحضري الجديد لكثافات عمرانية عالية تعادل اضعاف الكثافة العمرانية للمدينة القديمة. إضافة الى ذلك فان الملكية الخاصة لمعظم العقارات وقيمتها العالية ضمن المدينة القديمة تشكل عاملا اقتصاديا وتنفيذيا قويا فمن يقوم بعملية الحفاظ ومن يتحمل الكلفة وماهي آلية التنفيذ؟

عدة مواضيع وتوجهات جوهرية تبرز في هذا المجال أهمها. هل نبني فوق ما بناه الأجداد؟ وهل يكون النمو الجديد للمدينة فوق أسس وبنية المدينة القديمة بعد ازالتها او إزالة أجزاء منها؟ ام يكون النمو والبناء الهيكلي الجديد للمدينة خارج إطار المدينة القديمة لتحقيق هدف الحفاظ على الموروث العمراني؟ وهذا يحقق ايضا المجاورة والتواصل بين طور المدينة القديم والطور الحديث مما يساعد على تعزيز الهوية المحلية للمجتمع، عبر الزمان والمكان.

مما تقدم نستطيع ان نستخلص ثلاثة مستويات رئيسية للحفاظ والتطوير للمدينة القديمة في هذا السياق وهي:

١. **الحفاظ المستديم** لعموم المدينة القديمة ويشمل النسيج العضوي للمباني والشوارع والازقة والفضاءات المفتوحة والبيئة الطبيعية مع الحفاظ على كيان المحلات السكنية قدر الامكان.

٢. **الحفاظ الهجين** والمصحوب بالتجديد الحضري لأجزاء من المدينة القديمة. ويشمل هذا عدة مستويات ضمنية حسب درجة الحفاظ مقارنة مع درجة التجديد الحضري.

٣. **الحفاظ المحدود** والمقتصر على بعض المباني ذات القيمة التراثية او الاثارية. ويشمل هذا المستوى التجديد الحضري بدرجة عالية بما في ذلك إزالة معظم النسيج العمراني ماعدا المباني المحافظ عليها.

كانت سياسات التخطيط الحضري لمدينة بغداد قد اعتمدت على رؤية أصحاب القرار الرئيسيين، ومنهم الحاكم والسياسيون

والمخططون والمعماريون والمعنيون الاخرون، ومدى معرفتهم في مجال الحفاظ والتطوير الحضري خلال كل فترة من الزمن. وكانت الرؤية والقرار التخطيطي اعتماد المنطقة المركزية لمدينة بغداد القديمة لتكون جزءا من مركز الاعمال الرئيسي لمدينة بغداد الكبرى (CBD)، بغض النظر عن الفارق الكبير في سعة المدينة لكل منهما، حيث كانت منطقتي الكرخ والرصافة تمثل ١٪ من مساحة بغداد الكبرى في عام ١٩٨٠ م. وكانت الرؤية للتجديد الحضري متمثلة بشق شوارع عريضة تخترق النسيج العضوي لمنطقتي الكرخ والرصافة القديمة، بالرغم من ان سياسات التخطيط للنمو الحضري لمدينة بغداد كانت تؤكد على هدف الحفاظ على المناطق القديمة، ولكن بقي الحفاظ محدودا على بعض المباني التراثية والتاريخية مع إزالة أجزاء كبيرة من النسيج العمراني.

يهدف هذا البحث الى دراسة وتحليل التناقضات والاشكالات الحاصلة ضمن سياسات الحفاظ على مدينة بغداد القديمة من جانب، والسياسات التخطيطية لمدينة بغداد الكبرى من جانب اخر، للوصول الى منظور موضوعي واضح لمفاهيم الحفاظ على المناطق القديمة.

يتكون البحث من ثلاثة اقسام رئيسية، يتضمن القسم الأول موجز للتطور التاريخي لمدينة بغداد منذ نشأتها، ويتضمن القسم الثاني دراسة تأثير سياسات التخطيط الحضري والتصاميم الأساسية لمدينة بغداد على منطقتي الكرخ والرصافة القديمة، ويوضح القسم الثالث مفاهيم التخطيط والحفاظ للمناطق القديمة مع موجز للاستنتاجات والتوصيات.

أولا: التطور التاريخي لمدينة بغداد
نشوء المدينة (١٤٥هـ / ٧٦٢م)

ان فكرة انشاء مدينة بغداد (مدينة السلام)، من قبل الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور، لتكون مقرا للخلافة الإسلامية، وتعتبر النواة الأساسية لبدء مستوطنة حضرية جديدة في هذه المنطقة ولها كامل مقومات النمو لتصبح مدينةa كبرى. بنى المنصور مدينة بغداد المدورة في مزرعة المباركة تيمنا باسمها، وسط منطقة زراعية بالقرب من نهر دجلة وعلى الضفاف الغربية له. وكان هذا الموقع وسط العديد من القرى القديمة المنتشرة في الجانب الغربي من النهر.[١]

كان من أسباب اختيار المنصور لهذا الموقع ما يلي:[٢]

١. يتسم الموقع بالعمق التاريخي حيث ان موضع قرية سوق بغداد القديمة كان مركزا حربيا واقتصاديا وتجاريا ويتوسط مراكز المدنيات البابلية والاشورية والكيشية واليونانية والفارسية.
٢. كان موضع بغداد مركزا مهما للمواصلات بين الشرق والغرب قبل ان يفتح الطريق البحري الى الشرق الأقصى.
٣. ان انهار بغداد القديمة ونظم الري كانت الأساس التي شيدت عليه المدينة في مختلف أدوارها التاريخية حيث كانت عامرة بريها ومزارعها ومناخها المعتدل.
٤. يتسم الموقع بالبيئة الدفاعية لاحاطته بالأنهر الرئيسية والفرعية.

منطقة بغداد في أواخر العهد الساساني واوائل العهد الإسلامي (سوسه، ١٩٥٢)

تصميم مدينة بغداد[٣]

صمم المنصور مدينة بغداد تصميما هندسيا دائريا لتكون قلعة حصينة ورمزا لمقر الخلافة العباسية، ونظيرة لعدة مدن تاريخية كمدينة الحضر والمدائن واشور. وكانت لها ثلاثة اسوار حلقية كبيرة مع فصيلين فيما بينهم ورحبة داخلية واسعة، ويحيط بالمدينة خندق. وصممت المدينة المدورة على أساس محوري بواسطة أربعة شوارع متعامدة تبدا من المركز وتنتهي الى بوابات المدينة الأربع في السور الخارجي وبهذا تقسم المدينة الى أربعة قطاعات. وصممت المدينة المدورة ليكون قصر الخلافة والمسجد الجامع في مركز الدائرة ومحاطا بدواوين الحكومة، وكل هذه ضمن الرحبة الداخلية. وصممت المنطقة السكنية وخدماتها والأسواق ضمن الفصيل الداخلي للمدينة ومحصورة بين السورين الثاني والثالث، ومنافذها من الطاقات (الأسواق) الواقعة على محاور الشوارع الأربع. وقد قسمت المنطقة السكنية على شكل قطائع بواسطة السكك الشعاعية (الطرق) التي سميت بأسماء القادة والأشخاص البارزين الذين وزعت عليهم هذه القطائع مع جماعاتهم، علما بان حجم هذه القطائع كان متغايرا حسب حجم الجماعات وان كل مجموعة مسؤولة عن تصميم وبناء المنطقة السكنية ضمن قطيعتها. التوسع خارج المدينة

٢٦١٥ م

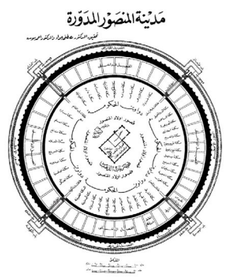

٢٥٠٠ م

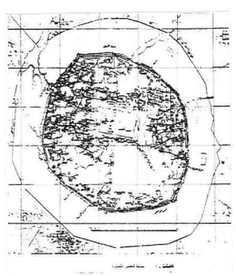

مخطط مدينة بغداد المدورة (جواد وسوسه، ١٩٦٩) ومخطط مدينة الحضر (سفر، ١٩٧٤)

التوسع خارج المدينة

اسكن المنصور ابنه المهدي عبر النهر في محلة الرصافة الاولى (الاعظمية حاليا) شرقي نهر دجلة مع جيشه عند قدومه هناك، وبنى للرصافة سورا وحفر خندقا حولها. واقطع المنصور ذوي قرابته وذريته وقواده ورجال دولته حول المدينة، وللمقطع حق التصرف والتمليك، كما وقسم ما حول المدينة الى ارباض. واستمر توسع المدينة في الجانب الغربي لنهر دجلة باتجاه قرية الكرخ القديمة، حيث نقل المنصور أسواق المدينة المدورة الى مواضع خارجها في عام ١٥٧هـ/٧٧٣م لان المدينة ضاقت بالتجار والباعة، وامر ان يبنى لهم مسجدا يصلون فيه يوم الجمعة. وتم التوسع العمراني في الجانب الشرقي لنهر دجلة وبنفس نظام التقسيم بهيئة ارباض وقطائع وشوارع. وكان النمو الحضري للجانب الغربي سريع من حيث السكان والتجارة فامتدت سوقه العظمى الى ما يقابل سوق الثلاثاء في الجانب الشرقي. ان قرار المنصور في اخراج الأسواق من المدينة المدورة قد أثر على دفع النمو الحضري خارجها وبقاء المدينة المدورة مقرا للخلافة ودواوينها بصورة رئيسية. [٤]

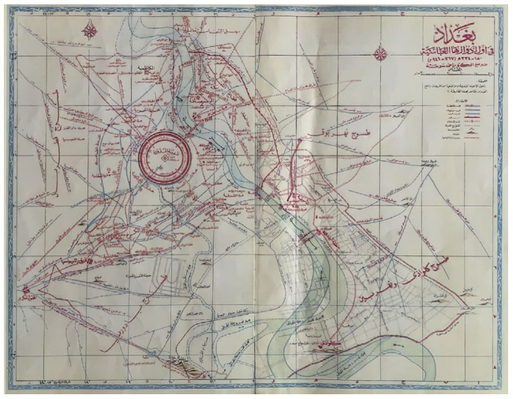

بغداد في أول أدوارها العباسية ١٥٠-٣٣٤ هـ / ٧٦٧-٩٤٦ م (سوسه، ١٩٥٢)

وخلال عهد الرشيد (١٩٣.١٧٠هـ/٨٠٩.٧٨٩م)، ومن تبعه من الخلفاء، امتد الجانب الشرقي للمدينة من منطقة الشماسية في الشمال (الصليخ حاليا) والى منطقة المخرم في الجنوب (باب المعظم حاليا)، وكانت هذه المنطقة بطول ٦ كم وبعرض ٢,٥ كم تقريبا أي حوالي ضعف المساحة للمنطقة الحالية للرصافة القديمة. ويرتبط الجانب الشرقي والغربي لمدينة بغداد بثلاث جسور. ويعتبر القصر الماموني (القصر الحسني لاحقا) ومحلة المأمونية التي طورها المأمون قبل توليه الخلافة (٢١٨.١٩٨هـ/٨٣٣.٨١٣م) النواة الأساسية لنمو منطقة الرصافة في موقعها الحالي. [٥]

ان توسع مدينة بغداد قد تم بالصورة التراكمية التدريجية، ولم يكن هناك مخططا شاملا لأسلوب التوسع العمراني، وان المجاميع السكانية ساهمت في تخطيط وبناء المناطق الممنوحة لهم، وهذا هو السبب الرئيسي في نمو النسيج العمراني العضوي للمدينة. [٦]

في عهد المعتصم بالله (٢٧٩.٢٢١ هـ/ ٨٩٢.٨٣٦ م) انتقل مقر الخلافة العباسية من مدينة بغداد الى مدينة سامراء، وتعتبر هذه الفترة قصيرة نسبيا (٥٦ سنة) وقد سببت في تخلف واندثار الكثير من مدينة بغداد.

بغداد خلال العصر العباسي الاوسط (٢٧٩ ـ ٥٥٥هـ/٨٩٢ ـ ١١٦٠م) [٧]

انتقلت الخلافة العباسية الى بغداد ثانية في أواخر عهد الخليفة المعتمد على الله (٢٧٩هـ/٨٨٢م)، واختار الجانب الشرقي للمدينة مقرا للخلافة، عندما كان الجانب الغربي قد تقلص الى جزء صغير غير مهم. وبعده اتخذ الخليفة المعتضد بالله (٢٨٩.٢٧٩هـ/٩٠٢.٨٩٢م) موقع القصر الحسني (المأموني سابقا) مقرا للخلافة حيث بنى ابنه المكتفي بالله قصرا جديدا مكانه وبنى جامع الخلفاء، وكانت دار الخلافة العباسية الجديدة مركز العمران واتساع المدينة في الجانب الشرقي. [٨]

اتصف الدور البويهي للخلافة العباسية (٤٤٧.٣٦٣هـ/١٠٩٤.٩٧٤م) بضعف الحكومة وعدم الاستقرار العام. واتجه العمران في الجانب الشرقي بصورة تدريجية نحو الجنوب واستقر أخيرا في منطقة الرصافة الحالية وبحجم صغير. اما الجانب الغربي فقد تقلص الى مستوطنة صغيرة تسمى الكرخ وبقي مقر الخليفة ضمن حريم دار الخلافة في الجانب الشرقي.

خلال الخلافة العباسية (٥٥٥.٤٨٧هـ/١١٦٠.١٠٩٤م) ترك السلاجقة الاتراك اثرا كبيرا في هيكل النسيج العمراني في الجانب الشرقي من بغداد. فتم بناء سورا حول حريم دار الخلافة في عهد الخليفة المستظهر بالله (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، بعد ان غرقت بغداد وتهدم الكثير من مبانيها. كما وتم بناء السور الكبير في الجانب الشرقي للمدينة في عهد المسترشد بالله (٥١٧هـ/١١٢٣م).

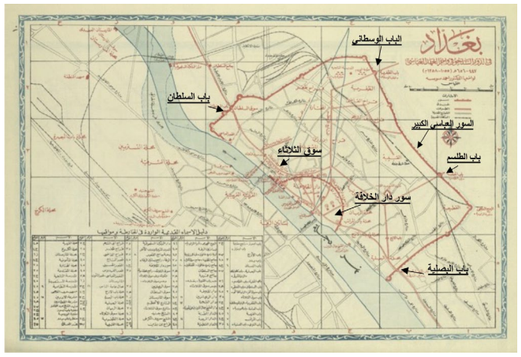

بغداد في الدور السلجوقي واخر العصر العباسي (سوسه، ١٩٥٢)

وكانت هذه الاسوار للأغراض الدفاعية ولدرء خطر الفيضان. هذا وقد حدد السور الشرقي الكبير معالم مدينة بغداد العباسية (حاليا منطقة الرصافة القديمة) ولاتزال اثار بعض بوابات السور الأربع باقية ليومنا هذا وهي باب الظفرية (الوسطاني) وقواعد باب الحلبة (الطلسم).

ان النسيج العمراني للرصافة القديمة، ضمن السور العباسي الكبير، قد تغير قليلا منذ ذلك العهد واستمر السور في درء خطر الفيضان لأكثر من ثمانية قرون، الى ان هدم عام ١٨٦٩م من قبل

الوالي العثماني مدحت باشا. وهجرت خلال هذه الفترة الاحياء الشمالية للمدينة. وكانت تربط طرفي نهر دجلة ثلاثة جسور من القوارب وقد استبدلت بجسر واحد حافظ على مكانه لأكثر من سبعة قرون الى ان استبدل بجسر حديدي في عام ١٩٤١م. [٩]

بغداد خلال العصر العباسي الاخير (٥٥٥ ـ ٦٥٦هـ/١١٦٠ ـ ١٢٥٨م)

فقدت مدينة بغداد، في الجانبين الشرقي والغربي، أكثر بناياتها خلال هذا العصر والادوار التي اعقبته، فتقلصت المدينة من حيث سعتها وانحصر معظم عمرانها في الجانب الشرقي داخل السور الكبير، وكان ذلك بسبب الفيضانات والحصار والهجمات على المدينة. وبالرغم من الخراب الذي حصل فقد ذكر بان عموم الجانب الغربي للمدينة كان يحتوي على سبع عشرة محلة، كل منها مدينة مستقلة، والجانب الشرقي للمدينة هو العامر، واهم ما فيه دار الخلافة الذي يؤلف الربع منه او أكثر. وكانت اهم محلة من المحلات المحيطة بدار الخلافة داخل السور الكبير هي محلة سوق الثلاثاء التي كان فيها أعظم سوق في الجانب الشرقي، وقد اصبحت المركز التجاري الرئيسي لمدينة بغداد. ان الكثير من الموروث العمراني العباسي يعود لهذه الفترة ومن ضمنها منارة جامع الاخفافين وقبر زمرد خاتون ومنارة جامع الشيخ معروف الكرخي والقصر العباسي والمدرسة المستنصرية ومنارة مسجد قمرية وقبر الشيخ عمر السهروردي. [١٠]

بغداد خلال العصر الايلخاني (٦٥٦ ـ ٧٣٨هـ/ ١٢٥٨ ـ ١٣٣٨م)

احتل هولاكو مدينة بغداد في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وكان هذا الاستيلاء المغولي على المدينة واجتياح العراق (وبقية البلدان) صدا لتيار الحضارة والثقافة برهة من الدهر، فقد هدموا كثيرا من المباني والمدارس والمكتبات ودمروا عديدا من المدن. ان تدمير الكثير من مدينة بغداد من قبل المغول وضع نهاية لحكم العرب وحسر المدينة الى كيان صغير. وبعد اعتناق المغول الإسلام قاموا بإصلاح بعض الضرر، فاعادوا بناء منارة جامع الخلفاء في عام ٦٧٨هـ/١٢٧٨م، وهي ما بقي من الموروث العمراني لهذه الفترة إضافة الى جامع العاقولية. [١١]

وظلت بغداد بعد الاحتلال المغولي تتقاذفها أمواج الحروب والاحتلال زهاء اربعة قرون متتالية، الى ان احتلها السلطان العثماني مراد الرابع في عام ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م، وبقيت تحت حكم العثمانيين حتى الاحتلال البريطاني في عام ١٣٣٥هـ/١٩١٧م، فقد حكم فيها بصورة متعاقبة الايلخانيون اخلاف هولاكو ثم الجلائريون والتركمان والصفويون والاكراد والعثمانيون والبريطانيون. [١٢]

اتصف العصر الجلائري (٧٣٨ ـ ٨١٤ هـ/١٣٣٨ ـ ١٤١١م) بالركود واندثار الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتخلل هذه الفترة احتلال بغداد من قبل تيمورلنك المغولي مرتين وحل الدمار فيها. وورد ذكر فيضانين خطرين حدثا فيها. ومن الموروث العمراني لهذه الفترة جامع مرجان (المدرسة المرجانية) وخان مرجان وكلاهما شيدا ضمن منطقة سوق الثلاثاء شمال دار الخلافة الذي بقي مقرا للخلافة خلال هذه الفترة. [١٣]

استمرت مدينة بغداد بالاندثار خلال العصر التركماني (٨١٤ ـ ٩١٤ هـ/١٤١١ ـ ١٥٠٨م) وخلال العصر الصفوي (٩١٤ ـ ٩٣٠هـ/١٥٠٨ ـ ١٥٢٣م) وبقي الجانب الشرقي في ركود. [١٤]

باب الحلبة/الطلسم (هدمت)

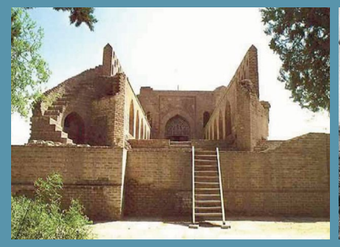

بقايا باب الظفرية/الوسطاني (الفترة السلجوقية)

القصر العباسي (١٢٢٦)

قبر زمرد خاتون (١٢٠٢)

المدرسة المستنصرية (العصر العباسي الاخير)

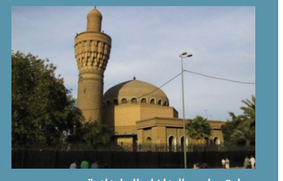

منارة جامع الخلفاء الايلخانية (القبة جديدة)

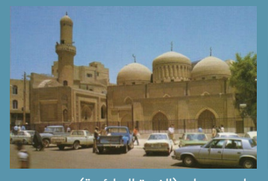

جامع مرجان (الفترة الجلائرية)

خان مرجان (الفترة الجلائرية)

بغداد خلال العهد العثماني الاول (٩٤١ ـ ١٠٣٢هـ /١٥٣٤ ـ ١٦٢٢م) والثاني (١٠٤٨ ـ ١٣٣٥هـ/١٦٣٨ ـ ١٩١٧م)

لم تتغير سمات النسيج العمراني القديم كثيرا لمنطقتي الرصافة والكرخ خلال عدة قرون ولغاية الفترة العثمانية الأخيرة. وكانت مدينة بغداد خلال هذه الفترة تتمثل بصورة رئيسية في الرصافة والكرخ مع نهر دجلة بينهما وضمن اسوارها القديمة، وكانت تشكل وحدة عمرانية واضحة الحدود والمعالم والتكوين وذات نسيج عضوي متضام وازقة ضيقة متعرجة تنعدم فيها سمات الخطوط المستقيمة. كما وبقي مركز المدينة الرئيسي في منطقة الرصافة القديمة وفي نفس الموقع التاريخي العام منذ العصر العباسي الأخير. ولم يبق من الامتداد الحضري خارج الاسوار سوى مناطق حضرية صغيرة ومتناثرة مثل الكاظمية والاعظمية وذلك لوجود المراكز الدينية ومراقد الائمة فيها.

بغداد في القرن التاسع عشر. مسح فيلكس جونز وكولنكوود ١٨٥٣م (سوسه، ١٩٥٢)

تم اجراء مسوحات ورسم خرائط عديدة لمدينة بغداد خلال القرن السابع عشر وما بعده.[١٥] وفي منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٣) وضع فيلكس جونز وكولنكوود خارطة على أساس مسح فني خاص قاما به للمدينة، فقد شملت جميع محلات بغداد وشوارعها واسوارها بجانبيها الشرقي والغربي، وتوضح الخارطة سور الجانب الغربي والمحلات السكنية ضمنه (منطقة الكرخ)، ولهذا السور أربعة أبواب، ومشيد هذا السور هو سليمان باشا الكبير والي بغداد خلال الفترة (١٧٧٩-١٨٠٢م).[١٦]

شهدت الفترة العثمانية الأخيرة (١٨٦٠-١٩١٧م) تغييرات مهمة في تطور مدينة بغداد. وان ظهور عربة الحصن والقطارات والسيارات أثر بصورة فعالة على اتخاذ القرار لفتح بغداد بشوارع عريضة ومستقيمة. وفي حكم الوالي مدحت باشا (والولاة بعده) شهدت بغداد سلسلة من خطط التجديد والتحديث المستلهمة من الغرب، ففي عام ١٨٦٩م هدم مدحت باشا السور العباسي في جانب الرصافة (المشيد في سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م) وسور الكرخ العثماني والمشيد في أواخر القرن الثامن عشر، وفتح شارع موسى الكاظم الذي شق نسيج الكرخ القديمة واسس خط سكة الحديد (الترام المسحوب بالحصن) بين الكرخ والكاظمية. كما واقترح مدحت باشا عدة إصلاحات اقتصادية وبلدية وشيد مبنى القشلة (مقر الحكومة) ضمن المركز التجاري لمنطقة الرصافة، وانفتحت المدينة للنمو خارج اسوارها وللمرة الأولى خلال ٨٠٠ عام. هذا وبنى ناظم باشا سدة ترابية حول بغداد الشرقية لدرء خطر الفيضان (١٩١١-١٩١٢م). وفتح خليل باشا في عام ١٩١٥م الشارع الجديد (الرشيد حاليا)، الذي شق نسيج الرصافة المتضام، وأكمل هذا الشارع من قبل الإنكليز في عام ١٩١٧م، وأصبح الشارع التجاري الأكثر أهمية في المدينة. ولأول مرة ربطت بغداد بأوروبا بسكة

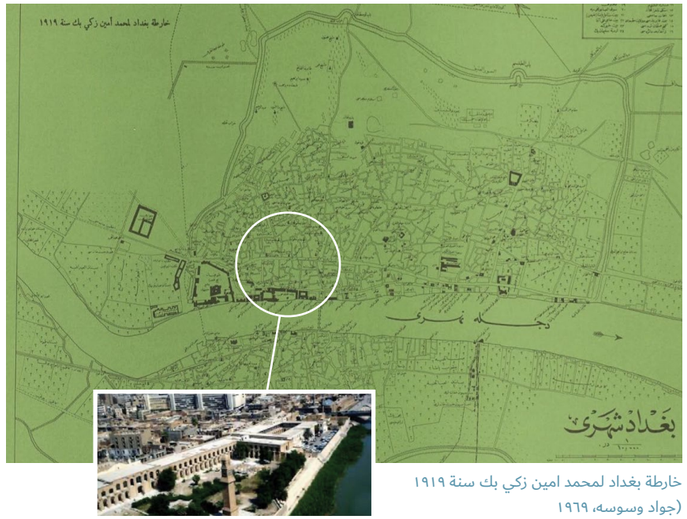

خارطة بغداد لمحمد امين زكي بك سنة ١٩١٩ (جواد وسوسه، ١٩٦٩

مبنى القشلة/السراي ١٨٦٩ (مقر الحكومة العثمانية سابقا)

حديد في عام ١٩١٥م وبمساعدة الالمان.[١٧]

تأثير مشاريع التطوير خلال الفترة العثمانية الاخيرة على منطقتي الرصافة والكرخ (١٨٦٠ ـ ١٩١٧م)

يعتبر قرار الوالي مدحت باشا في إزالة سور الرصافة العباسي وسور الكرخ العثماني اول اجراء كبير في تغيير معالم المدينة القديمة، لكون هذه الاسوار تمثل موروثا ومعلما تاريخيا مهما، وعنصرا معماريا أساسيا في تحديد الوحدة التكوينية لمدينة بغداد القديمة وإعطاء الهوية المحلية لمرحلة زمنية معينة. وان إزالة هذه الاسوار بسمح لنمو وتوسع المدينة بنمط تداخلي هجين بين القديم والحديث مما يجعل عملية الحفاظ على الموروث العمراني أصعب نسبيا.

ان قرار شق شارع موسى الكاظم في نسيج الكرخ القديمة وشق شارع الرشيد في نسيج الرصافة القديمة كانا الإشارة الأولى باتجاه التجديد الحضري حسب المفاهيم الغربية آنذاك، والتي كانت تركز على فتح خطوط الحركة العريضة والمستقيمة في نسيج المدينة القديم، وذلك لغرض التحديث وتحقيق الانفتاح وتسهيل حركة السيارات والعربات. أدى تنفيذ هذين المشروعين الى إزالة الكثير من المباني، وتمزيق النسيج العمراني والاجتماعي للمحلات

السكنية، واستحداث شوارع تجارية جديدة وبنمط عمراني جديد على البنية القديمة. وكانت المباني الجديدة المحاذية للشارعين بنفس المقياس العمراني للدور والمباني القديمة (عموما بطابقين) مما جعل اندماجها متوافقا وتكوين نسيج هجين. وكذلك غيرت هذه الشوارع اتجاه خطوط الحركة السائدة والتي كانت باتجاه النهر الى خطوط حركة رئيسية موازية له مما أضعف العلاقة مع النهر وقلل الاهتمام به.[١٨]

بغداد خلال فترة الانتداب البريطاني والعهد الملكي (١٩١٧ ـ ١٩٥٨م) [١٩]

ان فشل سدة ناظم باشا في درء خطر الفيضان لعام ١٩١١م دفع البريطانيين لبناء سدة ثانية بعد احتلالهم بغداد عام ١٩١٧م. والأمان الذي وفرته هذه السدة الثانية هيأ أراضي جديدة واسعة للاستغلال ونمو المدينة شريطيا بمحاذاة النهر.

ان النمو السريع لمدينة بغداد قد بدا في هذه الفترة. فكانت سياسة التحديث والتجديد الحضري خلال هذه الفترة مبنية ايضا على شق شوارع عريضة في نسيج المدينة القديمة وتطوير الشريط المحاذي لها، وكذلك تم بناء خمسة جسور حديثة لربط جانبي النهر للمدينة ومن ضمنها منطقتي الرصافة والكرخ القديمة. وبدا التطوير الحضري خارج البوابة الجنوبية للمدينة وبدا النمو بمحاذاة نهر دجلة. وضمن خطة التوسيع للمدينة الكبرى فقد تم تطوير مناطق عديدة خارج المدينة القديمة وعلى نمط التخطيط الغربي المتمثل باعتماد شبكات الطرق المستقيمة والمتعامدة.

وكان بناء سد الثرثار عام ١٩٥٦م قد وضع نهاية لخطر الفيضان، وبهذا فتح إمكانية توسع المدينة في جميع الأطراف. كما وان الهجرة السكانية من الريف والمدن الصغيرة الى مدينة بغداد العاصمة، خلال الاربعينات والخمسينات من القرن الماضي، قد أثر على نمو المدينة سكانيا وعمرانيا.

خارطة محلات مدينة بغداد (سوسه، ١٩٥٢)

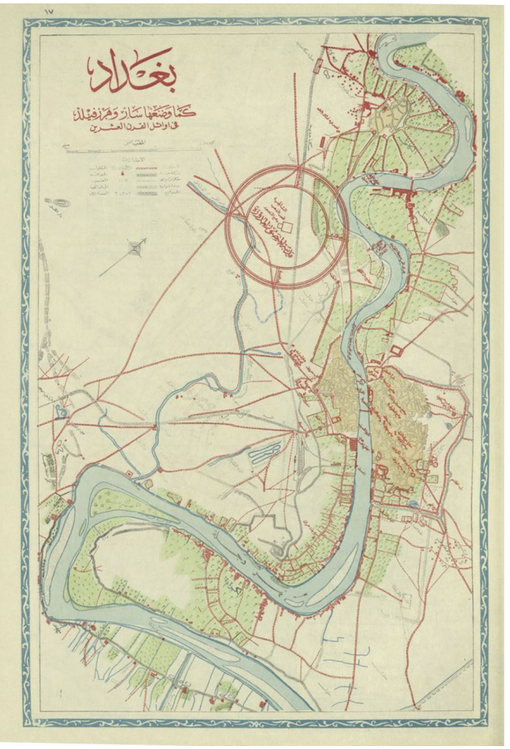

بغداد كما وضعها سار وهرزفيلد في أوائل القرن العشرين (سوسه، ١٩٥٢)

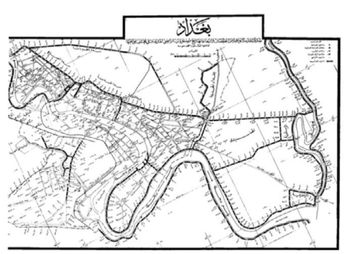

سداد مدينة بغداد الواقية من الفيضان تبين سدة ناظم باشا (سوسه، ١٩٦٩)

خارطة لمدينة بغداد الشرقية تبين السدة الشمالية

ثانيا: تأثير المشاريع التطويرية والتصاميم الأساسية لمدينة بغداد الكبرى على منطقتى الكرخ والرصافة القديمة

تأثير المخططات ومشاريع التطوير الحضري خلال فترة العهد الملكي والانتداب البريطاني (١٩١٧-١٩٥٨م)

التصميم الأساسي لمدينة بغداد لعام ١٩٣٦ (F. Brecks & Bronoweiner)

كان هذا اول تصميم أساسي لمدينة بغداد وكان الهدف تطوير المدينة وتحديثها. وبموجب سياسات هذا التصميم شقت في نسيج الرصافة في عام ١٩٣٦م شوارع طولية وعريضة بموازاة نهر دجلة، وهي شارع غازي (الكفاح حاليا) وشارع الشيخ عمر، وفي عام ١٩٥٤م تم شق شارع الخلفاء في النسيج. كما وفتحت في مطلع الأربعينات من القرن الماضي الشوارع العرضية لربط الجسرين (الشهداء والاحرار) لتكمل شبكة الطرق المتعامدة للمدينة. وتم بناء مباني تجارية ودوائر اعمال متعددة الطوابق بمحاذاة الشوارع الجديدة وبارتفاعات تصل الى ثمانية طوابق في شارع الخلفاء.[٣٠]

ان هذه السياسة في التحديث والتجديد الحضري كانت متأثرة بالنمط الغربي. وكنموذج لهذا النمط يمكن اعتبار مدينة باريس في فترة حاكمها نابليون الثالث في منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٣م)، حيث كانت رؤية نابليون الثالث مسبقا استحداث شوارع عريضة ومستقيمة في النسيج القديم لمدينة باريس، وكان الهدف المعلن هو التجديد وتحديث المدينة، وقد تم تنفيذ المشروع من قبل مستشاره الخاص المخطط جورج يوجين هاوسمان (G.E. Haussmann)، وكان قسم من هذه الشوارع العريضة يخترق مركز مدينة باريس القديمة. [٣١]

كما واعتمد التصميم الأساسي ان يكون مركز الاعمال التجاري والمالي لمدينة بغداد الكبرى (CBD) ضمن المنطقة المركزية للرصافة القديمة، فتم تطوير هذه المنطقة عمرانيا لتلبية المتطلبات الجديدة، حيث بنيت خلال الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي مباني المصارف ودوائر الاعمال العالية نسبيا (تصل الى ١٥ طابق في مبنى مصرف الرافدين الرئيسي)، علما بان هذا النمو ضمن موقع سوق الثلاثاء التاريخي ودار الخلافة العباسية.

ان توقيع المركز التجاري والمالي لمدينة بغداد الكبرى في وسط منطقة الرصافة القديمة، يحفز بشكل مستمر على زيادة القوة التنموية لهذه المنطقة، وما يترتب عليه من زيادة في متطلبات الكثافة البنائية العالية والكثافة المرورية العالية، والتوجه نحو تغيير استعمالات الأرض ضمن المنطقة المركزية وما يحيطها من دور سكنية الى وظائف تجارية وإدارية وصناعات حرفية. والنتيجة الحتمية لهذا الحالة هو التغيير التدريجي المستمر للبنية العمرانية والوظيفية لعموم هذه المنطقة التاريخية باستثناء الحفاظ على مباني تاريخية مفردة وكما هو حاصل لحد الان. ان هذه السياسة في التطوير الحضري للمدينة القديمة مبنية على أساس إزالة الموروث العمراني والبناء فوق ما بناه الأجداد. فهل هذا ما يهدف اليه أصحاب القرار التخطيطي؟

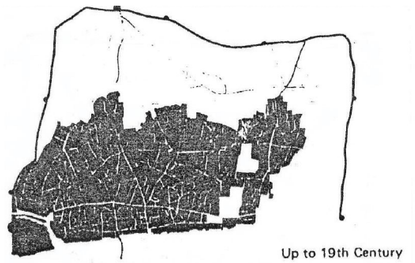

التحول العمراني لمنطقة الرصافة القديمة من أواخر القرن التاسع عشر الى عام ١٩٦٠ (JCP et al., ١٩٨٤)

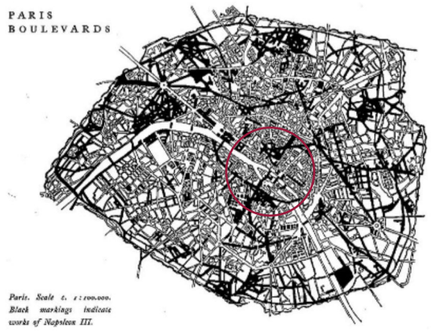

مدينة باريس في منتصف القرن التاسع عشر، ١٨٥٣م العلامات بالأسود تشير الى اعمال نابليون الثالث، والدائرة الحمراء تشير الى مركز المدينة (Rasmussen,1969, p 164)

مصرف الرافدين الرئيسي

التصميم الأساسي لمدينة بغداد لعام ١٩٥٦ (Minoprio, Spencely & Macfarlane) [٣٢]

اقتصر هذا التصميم الأساسي على مخطط استعمالات الأرض لمدينة بغداد الكبرى وبدون مخططات تفصيلية للمناطق المركزية، ولاتوجد سياسة واضحة للحفاظ على منطقتي الرصافة والكرخ القديمة. لم ينفذ هذا التصميم ومن مقترحاته ما يلي:

١. يكون النمو والتوسيع لمدينة بغداد مركزي ولحدود السدة الشمالية الجديدة آنذاك والتي أقامها البريطانيون.
٢. إبقاء مركز الاعمال التجاري والمالي للمدينة ضمن المنطقة القديمة للرصافة.

مقترحات التصميم الأساسي المذكورة تؤكد على سياسة النمو المركزي واعتماد المنطقة القديمة (الرصافة والكرخ) كمركز رئيسي للمدينة الكبرى. وكما حصل في التصميم السابق لعام ١٩٣٦، فان هذه السياسة التخطيطية ستزيد من الضغط التنموي ضمن المنطقة القديمة والحاجة الى زيادة الكثافة البنائية والتغييرات الوظيفية الناتجة كمحصلة.

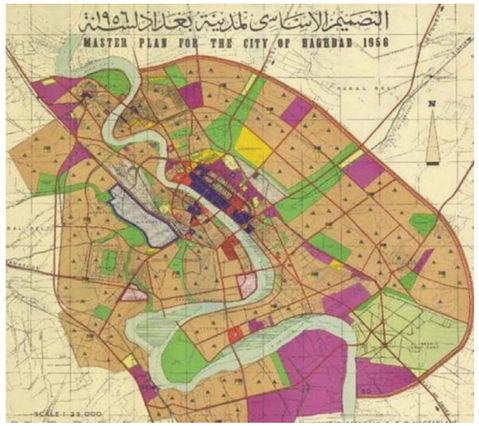

التصميم الأساسي لمدينة بغداد لعام ١٩٥٦ (Minoprio, Spencely & MacFarlane)

تأثير المخططات ومشاريع التطوير الحضري خلال فترة العهد الجمهوري (١٩٥٨م -)

التصميم الأساسي لمدينة بغداد لعام ١٩٥٩م (شركة دوكسيادس اليونانية – (Doxiadis & Associates

كان الهدف تطوير مدينة بغداد الكبرى لتغطي مساحة ٥٠٠ كم٢ ولتسع ٣ مليون نسمة، وهذا يمثل ثلاثة اضعاف الحجم السكاني للمدينة في عام ١٩٥٧م والبالغ مليون نسمة. كان المقترح تقسيم مدينة بغداد الكبرى تقسيما هندسيا والى خمسة احياء كبيرة وكل حي له الاكتفاء الذاتي حيث يتضمن كافة الخدمات التسويقية والاجتماعية والترفيهية الضرورية. هذا ويقسم كل حي كبير الى احياء صغيرة. كما واعتمد التصميم التقسيم الهندسي المتعامد لشبكة الشوارع ولتكوين الاحياء بحيث يكون شكل مدينة بغداد الكبرى بهيئة مستطيل مقسم الى مربعات صغيرة. كما وتضمن التصميم ان يكون المركز الرئيسي لبغداد الكبرى في نفس الموقع التاريخي للمدينة القديمة، ومن مقترح التصميم ان يكون المركز الحكومي، الذي يضم كافة الوزارات، في جهة الكرخ جنوب المنطقة القديمة، وان يكون المركز المدني، والذي يضم الدوائر المدنية البلدية، في منطقة الرصافة القديمة. هذا وكانت منطقتي الرصافة والكرخ القديمة تمثل جزءا مندمجا مع مركز الاحياء الكبيرة والمقترحة ضمن التصميم الأساسي. [٣٣]

لا يتضمن التصميم الأساسي سياسة واضحة للحفاظ على منطقتي الرصافة والكرخ القديمة وكأنها جزء مندمج في عملية التطوير للمدينة الكبرى. كما في المخططات السابقة، فان اعتبار المنطقة القديمة من ضمن المركز الاعمال الرئيسي للمدينة الكبرى سيؤدي الى صعوبة الحفاظ على الموروث العمراني القديم، وذلك بسبب الضغط التنموي الناتج من المتطلبات الوظيفية والعمرانية لمركز المدينة الكبرى، وهذا بدوره يؤدي الى التحول في المقياس والكثافة البنائية والنمط الوظيفي الجديد ضمن منطقة الرصافة والكرخ القديمة. وهذا سيؤدي تدريجيا الى إزالة الموروث العمراني من خلال مشاريع إعادة التطوير الحضري كما في مشروع المركز المدني المقترح ضمن منطقة الرصافة القديمة. هذا وان التقسيم الهندسي المقترح لشبكة الشوارع المتعامدة لتشكيل الاحياء لا يعطي أي اعتبار للنسيج العضوي للمدينة القديمة ولوجود العناصر الطبيعية مثل النهر والمناطق الخضراء على ضفافه.

التصميم الأساسي لمدينة بغداد لعام ١٩٥٩ (Doxiadis & Associates)

التصميم الأساسي لمدينة بغداد لعام ١٩٦٧ والمخطط الإنمائي الشامل لبغداد ٢٠٠٠ لعام ١٩٧٣(شركة بول سيرفس البولونية - Polservice & Miastoproject)[٢٤]

كان الهدف لمخطط بغداد ٢٠٠٠ تطوير المدينة لتسع ٤,٣ مليون نسمة، وهذا يمثل تقريبا ضعف الحجم السكاني للمدينة في عام ١٩٧٣م والبالغ ٢,٣ مليون نسمة. اعتمدت فكرة التصميم الأساسي النمو اللامركزي لمدينة بغداد الكبرى وذلك بتقسيم المدينة الى تسعة قطاعات، حيث تتضمن المنطقة المركزية (الشريط النهري) قطاعين وهنالك سبعة قطاعات حولها، ويكون لكل قطاع مركزه الخاص وبكافة الخدمات الضرورية لنواة مكتفية ذاتيا. وكان الموقع العام المقترح لمركز الاعمال للمدينة الكبرى (CBD) ضمن المنطقة المركزية للشريط النهري.

يغطي مركز المدينة الكبرى (CBD) المقترح منطقة واسعة مساحتها ١٧كم٢ ومحاط من اربع جهات بصندوق مروري (Motor Box)، كما يسميه المخطط، وهي تمثل طرق الحركة السريعة للسيارات (Free Ways) وبعرض محرمات ١٠٠م، علما بان طرق الصندوق المروري تخترق أجزاء من منطقتي الرصافة والكرخ القديمة من الجهة الشرقية. ويشمل مركز المدينة الكبرى المقترح منطقتي الرصافة والكرخ القديمة والتي تمثل تقريبا ١٧٪ من مساحته. ويتضمن المخطط الإبقاء على المركز التجاري والمالي الحالي (منطقة المصارف والاسواق) في منطقة الرصافة القديمة واكد على تنميته.

ويتضمن التصميم الأساسي سياسة الحفاظ على الشواخص والمناطق التاريخية لمدينة بغداد وتشمل الرصافة والكرخ والكاظمية والاعظمية. كما ويقترح الحفاظ على المناطق الاثرية مثل اثار تل حرمل والتي يقترحها ان تكون حدائق عامة. المقترح للمشهد الحضري ان يكون مركز المدينة، ومن ضمنها الكرخ والرصافة القديمة، بمباني عالية متعددة الطوابق وبكثافة عمرانية قدرها (٤-FAR) أي بارتفاع ٦-٨ طابق تقريبا.

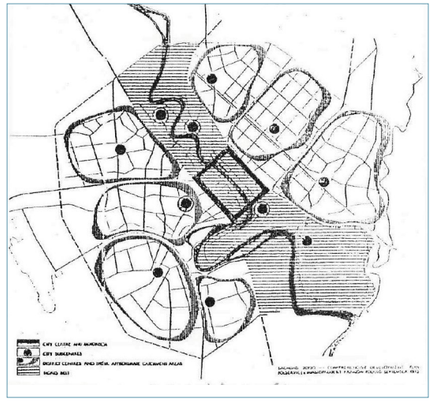

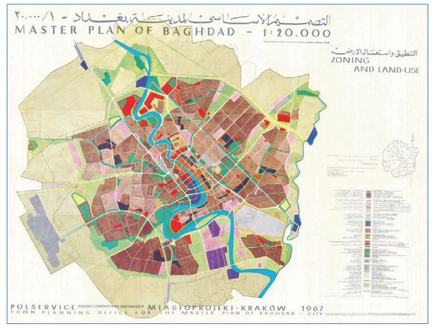

التصميم الأساسي لمدينة بغداد لعام - 1967 1973 (Polservice & Miastoprojekt)

ملاحظات حول التصميم الاساسي والمخطط الإنمائي الشامل لبغداد ٢٠٠٠

<u>عموما فان الاهداف وسياسات الحفاظ والتطوير الحضري المقترحة تعتبر متناقضة فيما بينها وتسير باتجاه متعاكس وكما يلي:</u>

١. بالرغم من ان هدف التصميم الاساسي كان النمو اللامركزي لمدينة بغداد الكبرى (إشارة الى القطاعات الجديدة المكتفية ذاتيا)، ولكن سيكون التركيز للنمو الحضري ضمن المنطقة المركزية وخاصة منطقتي الكرخ والرصافة القديمة، حيث يؤكد التصميم في كل جوانبه تطوير وتنمية هذه المنطقة القديمة كجزء رئيسي من مركز مدينة بغداد الكبرى (CBD). وكما أشرنا سابقا فان سياسة التطوير هذه تؤدي الى زيادة الضغط التنموي في هذه المنطقة (مباني بحدود ٦-٨ طوابقFAR ٤ -)، وهذا سيكون باتجاه معاكس لسياسة الحفاظ على النسيج العمراني القديم الواطئ الكثافة، كما وسيؤدي تدريجيا الى زوال النسيج وتغيير المشهد الحضري لمنطقتي الكرخ والرصافة القديمة والتي تتصف بانخفاض المباني (عموما طابقين) وبروز قباب ومآذن المساجد من خلال خط سمائها.

٢. نفذت مشاريع إعادة تطوير ضمن النسيج القديم لمنطقتي الرصافة والكرخ خلال عقدي السبعينات والثمانينات من القرن الماضي[٢٥] ومنها مجمع المركز المدني المنفذ في منطقة الرصافة، ويضم جميع الدوائر البلدية للعاصمة. وقد ازيلت مئات الدور السكنية التراثية لهذا المشروع وتم تشييد مباني حديثة لأمانة بغداد ودوائرها مع مساحات مفتوحة واسعة وبنمط عمراني حديث. والتساؤلات هنا – هل كان من الضروري توقيع مثل هذا المشروع الحديث نسبيا ضمن منطقة الرصافة القديمة والذي تسبب في إزالة الكثير من الدور التراثية؟ الم يكن أفضل وانسب توقيع مشروع حديث في منطقة حديثة؟

٣. من طرق المرور السريع التي نفذت للصندوق المروري (Motor Box) المقترح هو طريق محمد القاسم، ويمتد من شمال مدينة بغداد الى جنوبها ويخترق جزءا من منطقة الرصافة القديمة من الجهة الشرقية، حيث يمر بين الباب الوسطاني (احدى بوابات بغداد العباسية) ومرقد الشيخ عمر السهروردي ذي القبة المخروطية (يعود للفترة العباسية)، وبهذا يشطر منطقة الباب الوسطاني ويعزلها عن جسم المدينة القديمة. والسؤال المهم هنا – الم يكن بالإمكان ابعاد موضع الطريق السريع بضع مئات من الأمتار شرقا لغرض الابتعاد عن المناطق القديمة والاثرية في الرصافة؟

شارع الخلفاء عند سوق الشورجة المركزي

شارع الرشيد عند سوق الشورجة المركزي ومنطقة المصارف الرئيسية ويظهر ايضا جامع مرجان

شارع المصارف المركزي

صورة جوية للمركز المدني الحديث النمط والمنفذ ضمن النسيج السكني القديم للرصافة

بقايا الباب الوسطاني
(السور العباسي - 1135م)

مرقد الشيخ عمر السهروردي
(الفترة العباسية - 1234م)

صورة جوية لمنطقة الباب الوسطاني ومرقد الشيخ عمر السهروردي ويفصلهما الطريق السريع والمنفذ في الجانب الشرقي للرصافة القديمة

مخطط الحفاظ وإعادة تطوير منطقة الرصافة لعام ١٩٨٤ (مجموعة JCP اليابانية ومستشارين آخرين) [٢٦]

يعتبر هذا المخطط اول مشروع جاد في فكرة الحفاظ على منطقة كبيرة من المدينة القديمة، حيث يغطي كل منطقة الرصافة القديمة والتي كانت محصورة ضمن السور العباسي القديم. وتبلغ مساحة هذه المنطقة ٤,٥ كم٢ ويبلغ عدد السكان فيها ٢٠٣,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٠، وكانت تضم ١٥,٧٠٠ منشأ. ومع ان مساحتها كانت تمثل ٠,٦٪ من المساحة الكلية لمدينة بغداد الكبرى فأنها تؤمن السكن لـ ٦,١ ٪ من المجموع الكلي للسكان، وعلى نحو ذلك فهي تضم ٩٪ من مجموع الاسر في المدينة وتجهزها بـ ١٨٪ من الايدي العاملة. وتضمن المخطط دراسة تحليلية لمراحل التحول العمراني الحضري لمنطقة الرصافة القديمة ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر الى عام الدراسة (١٩٨٣)، وكذلك تضمن مقترح لثلاثة مراحل تحول عمرانية مستقبلية لغاية عام ٢٠٠٠.

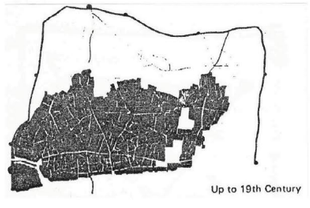

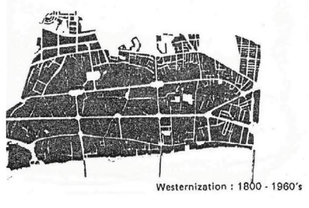

التحول العمراني لمنطقة الرصافة القديمة من أواخر القرن التاسع عشر الى عام 1970 (JCP et al., 1984)

تضمن المخطط تشخيص ستة مواضيع رئيسية لمنطقة الرصافة:

١. الاكتظاظ السكاني.
٢. رداءة الأحوال العمرانية والمعايير البيئية.
٣. عدم كفاءة منافذ المركبات بصورة عامة.
٤. خدمات اجتماعية وعامة غير ملائمة.
٥. اهمال وتدهور النسيج التاريخي.
٦. تشوه المشهد العام.

وتم تحديد أهدافا عامة للمخطط وهي:

١. استمرار مركز يليق بالعاصمة التاريخية للعراق.
٢. إعادة تكامل الهيكل الحضري المهشم للمدينة القديمة.
٣. الحفاظ على النسيج التاريخي واحياؤه.
٤. توجيه وتنظيم التنمية في المناطق الحديثة وفق معايير وضوابط التصميم الحضري.

اعتمد المخطط هدف إبقاء وتنمية منطقة الرصافة القديمة كجزء حيوي من مركز الاعمال لمدينة بغداد (CBD) واعتمد في نفس الوقت هدف الحفاظ على النسيج التاريخي لهذه المنطقة. وتضمن المخطط ثلاث مستويات وهي خطة التصميم الهيكلي وخطة الحفاظ وخطة التصميم الحضري.

وتضمنت خطة التصميم الهيكلي ما يلي:

١. زيادة المساحة ذات الاستعمال السكني الخاص والمشترك من ١٢٧,١ هكتار الى ٢٠٩,٧ هكتار أي بنسبة ٦٥٪.
٢. تقليص عدد سكان المنطقة من ٢٠٣,٠٠٠ الى ١٨٠,٠٠٠ نسمة (-١١٪) وخفض الكثافة السكانية من ١,٧٥٠ شخص/هكتار الى ٧٦٠ شخص/هكتار (-٥٧٪).
٣. زيادة مساحة أماكن العمل من ١٥٣,٨ هكتار الى ٢٠١,٧ هكتار أي بنسبة ٣١٪.
٤. زيادة العمالة من ١١٦,٥٨٥ الى ١٧٢,٥٠٠ أي بنسبة ٥٠٪.[٣٧]

مخطط الحفاظ وتطوير منطقة الرصافة القديمة (JCP et al., 1984)

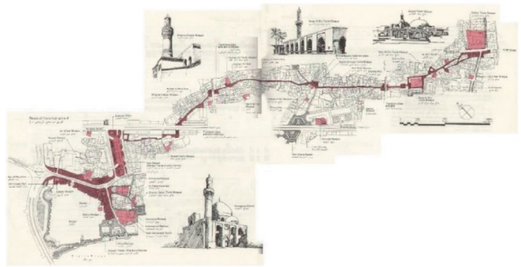

احد محاور الحركة التاريخية الرئيسية ضمن مخطط الحفاظ على الرصافة القديمة (JCP et al., 1984)

وضمن خطة الحفاظ أظهرت المسوحات التفصيلية الشاملة للمنطقة بان ٣,٨٩١ بناية يتطلب حمايتها لكونها تحوي قيم معمارية او تاريخية، وهذا العدد يمثل ٢٤,٨٪ من مجموع مباني الرصافة ويشمل ١٣٢ معلما تاريخيا مصان الى حد كبير، وان ٦٦,٣٪ من المباني المسجلة عبارة عن بيوت سكنية و ٦٠٪ منها في حالة عمرانية سيئة او سيئة جدا.

وعموما قسم المخطط منطقة الرصافة الى مناطق حفاظ ومناطق إعادة تطوير حضري. وتضمن المخطط الحفاظ على محاور الحركة التاريخية الرئيسية الخمسة، ووضع خطة خاصة بشارع الرشيد وتم تشخيص خمس مناطق بؤرية فيه. وتضمنت خطة شارع الرشيد والمناطق البؤرية إزالة المباني المشوهة والمباني ذات الحالة العمرانية المتدهورة، وصيانة المباني ذات القيمة المعمارية والتأكيد على عنصر الرواق والملامح التاريخية كالبوابات والفتحات على النهر. وتضمن المخطط إقامة مباني جديدة وتطوير عدد من المناطق البؤرية لملئ الفراغات القائمة والمساعدة في استحداث خصائص أكثر تحضرا في بعض النقاط.

وبصورة عامة اعتمد المخطط فكرة تقسيم منطقة الرصافة القديمة الى اشرطة طولية بموازاة النهر لتكون المناطق التخطيطية، وان تكون الشوارع الرئيسية الحديثة نسبيا (الرشيد والخلفاء والكفاح والشيخ عمر) هي الأساس في عملية التخطيط الهيكلي العمراني للمنطقة، علما بان هذه الشوارع الرئيسية تتقاطع بشكل متعامد مع المحاور التاريخية الرئيسية الخمسة والمقترح الحفاظ عليها. كما وتضمن المخطط زيادة الكثافة البنائية على امتداد الشوارع الرئيسة لتصل الى (٨ FAR) في شارع الخلفاء وشارع الشيخ عمر.

ملاحظات حول مخطط الحفاظ وإعادة تطوير منطقة الرصافة (JCP et al ١٩٨٤)

١. اعتمد المخطط هدف تنمية منطقة الرصافة القديمة كجزء حيوي من مركز الاعمال لمدينة بغداد (CBD) وليكون "مركزا يليق بالعاصمة التاريخية للعراق"، واعتمد المخطط أيضا هدف الحفاظ واحياء النسيج القديم لهذه المنطقة. كما وضحنا سابقا فان مركز مدينة بغداد الكبرى يتطلب كثافة بنائية عالية نسبيا ومباني بارتفاعات عالية أيضا، بالإضافة الى ازدياد مستمر للقوة التنموية للمنطقة المركزية، وهذا لا ينسجم مع مفهوم الحفاظ للرصافة القديمة ذات المقياس العمراني الواطئ الكثافة والارتفاع للمباني. ان هذين الهدفين متناقضان في المضمون ومتعاكسان في الاتجاه، وان تحقيق الهدف الأول يحول دون تحقيق الهدف الثاني بل يؤدي الى

الزوال التدريجي لما تبقى من النسيج القديم، باستثناء الحفاظ على بعض المباني المفردة كما هو حاصل حاليا.

٢. ان فكرة تقسيم منطقة الرصافة القديمة الى اشرطة طولية لتكوين المناطق التخطيطية وحسب وضعية الشوارع الرئيسية الحديثة نسبيا (الرشيد والخلفاء والكفاح والشيخ عمر) تؤكد بان هيكل التخطيط مبني بالدرجة الأولى على أساس البنية الحديثة لمنطقة الرصافة وتنميتها وليس على أساس بنية النسيج العمراني القديم ومن ضمنها المحاور التاريخية الرئيسية والمقترح الحفاظ عليها. هذا الأساس الهيكلي للتخطيط يشير الى أولوية التحديث والتجديد الحضري مقارنة مع مفهوم الحفاظ على النسيج القديم.

٣. تضمن المخطط سياسة الحفاظ واحياء المحاور التاريخية الرئيسية الخمسة الممتدة باتجاه النهر وكذلك النسيج القديم المحاذي لهذه المحاور، وهي سياسة جيدة وتتطلب تهيئة الظروف الملائمة لتحقيقها. ولكن تضمن المخطط أيضا سياسة التطوير الحضري للشوارع الرئيسية الحديثة نسبيا وزيادة الكثافة البنائية وارتفاع المباني على امتدادها (FAR-٨)، علما بان هذه الشوارع تمتد بشكل متعامد مع المحاور التاريخية الرئيسية المقصودة بالحفاظ. ان هذا النمط في سياسة التطوير التنموي يؤدي الى ظروف غير ملائمة لتحقيق هدف الحفاظ، حيث سيكون التركيز عمرانيا على امتداد الشوارع العريضة وعلى حساب احياء المحاور التاريخية.

٤. تضمن برنامج التنفيذ الجدول الزمني لمراحل تنفيذ المخطط ولم يتطرق للكلف التخمينية للمراحل وطرق التمويل، ولم يتضمن المخطط سياسة واضحة بخصوص ملكية العقارات وطبيعتها واسعارها وكيفية التعامل معها، ولا توجد إشارة الى أدوار الجهات المعنية والتي من الممكن ان تشارك في العملية التمويلية والتنفيذية.

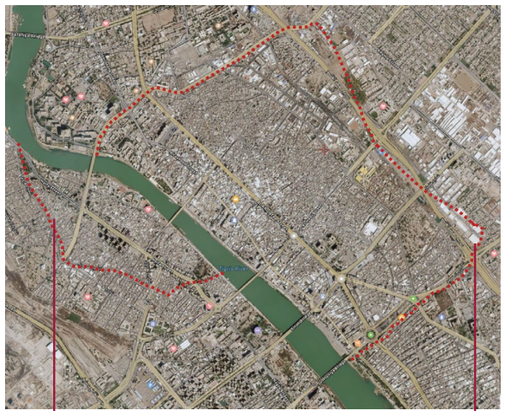

صورة جوية لمنطقة الرصافة والكرخ القديمة ضمن مدينة بغداد
Satellite.Pro May 7, 2021

حدود السور العباسي - 1123م (منطقة الرصافة القديمة)

حدود السور العثماني (منطقة الكرخ القديمة)

٥. بصورة عامة اقتصرت العملية التخطيطية واتخاذ القرارات على فريق العمل التخطيطي وامانة بغداد والجهات الرسمية المعنية، ولم تتضمن العملية الأطراف المعنية الأخرى المتمثلة بالساكنين والمالكين وأصحاب الاعمال ومستثمري القطاع الخاص والمعنيين الاخرين. عموما يفضل مشاركة كافة القطاعات في مثل هذا المشروع.

ثالثا: المفاهيم التخطيطية للحفاظ على مدينة بغداد القديمة (منطقتي الرصافة والكرخ)

إذا استمرت سياسات التخطيط والتطوير الحضري للمنطقة المركزية لمدينة بغداد الكبرى كما هي مبينة انفا، فسيكون من الصعب جدا الحفاظ على ما تبقى من النسيج العمراني لمنطقتي الرصافة والكرخ القديمة، باستثناء الحفاظ على مباني مفردة وبعدد محدود. ولكن بالإمكان الحفاظ على ما تبقى من الموروث العمراني باعتماد سياسات ملائمة لهدف الحفاظ ومتكاملة مع سياسات التطوير الحضري، وخاصة ان مساحة هذه المنطقة القديمة تعتبر صغيرة نسبة الى مساحة المدينة الكبرى (١٪ في العام ١٩٨٠).

مفهوم الحفاظ على المدينة القديمة في سياق النمو السريع لمدينة بغداد الكبرى

عدة مواضيع وتوجهات جوهرية تبرز في هذا المجال أهمها. هل نبني فوق ما بناه الأجداد؟ وهل يكون النمو الجديد للمدينة فوق أسس وبنية المدينة القديمة بعد ازالتها او إزالة أجزاء منها؟ ام يكون النمو والبناء الهيكلي الجديد للمدينة الحديثة خارج حدود المدينة القديمة لتسهيل عملية الحفاظ عليها؟ وهذا يحقق ايضا المجاورة والتواصل بين طور المدينة القديم والطور الحديث مما يساعد على تعزيز الهوية المحلية للمجتمع عبر الزمان والمكان.

مما تقدم نستطيع ان نستخلص ثلاثة مستويات رئيسية للحفاظ والتطوير للمدينة القديمة وهي:

١. **الحفاظ المستديم** لعموم المدينة القديمة ويشمل النسيج العضوي للمباني والشوارع والازقة والفضاءات المفتوحة والبيئة الطبيعية مع الحفاظ على كيان المحلات السكنية قدر الامكان. وهذه هي الحالة المثالية المفضلة ابتداء، ولكن لا تنطبق الان مع واقع حال منطقتي الرصافة والكرخ القديمة، حيث تمت تغييرات واستحداثات كثيرة وكما وضحنا انفا.

٢. **الحفاظ الهجين** والمصحوب بالتجديد الحضري لأجزاء من المدينة القديمة. ويشمل هذا عدة مستويات ضمنية وحسب درجة الحفاظ مقارنة مع درجة التجديد الحضري. وهذه الحالة تنطبق على واقع حال منطقتي الرصافة والكرخ القديمة، حيث فتحت شوارع تجارية عريضة وحديثة ونفذت مشاريع إعادة التطوير والتجديد الحضري بعد إزالة أجزاء كبيرة من النسيج القديم. وعموما يفضل الحفاظ على ما بقي من النسيج العمراني القديم.

٣. الحفاظ المحدود والمقتصر على بعض المباني ذات القيمة التراثية او الاثارية، ويشمل هذا المستوى إعادة التطوير والتجديد الحضري بدرجة عالية بما في ذلك إزالة معظم النسيج العمراني عدا المباني المحافظ عليها. ومن المحتمل مستقبلا ان تنطبق هذه الحالة على منطقتي الرصافة والكرخ القديمة اذا استمر تطبيق السياسات التخطيطية السابقة.

سيكون الهدف الحفاظ على ما تبقى من الموروث العمراني والحضاري لمنطقتي الرصافة والكرخ القديمة، وضمن مستوى **الحفاظ الهجين** كواقع حال، وبموجب مفاهيم وسياسات حفاظ وتجديد حضري متكاملة ومتناسقة فيما بينها، ونابعة من الظروف المحلية.

ان المفهوم العام المقترح لعملية التخطيط سيكون الحفاظ على مدينة بغداد التاريخية (منطقتي الرصافة والكرخ القديمة) كوحدة حضرية متكاملة ومكتفية ذاتيا ولها مركزها الخاص بها، وإلغاء فكرة كون هذه المنطقة القديمة جزءا من مركز الاعمال لمدينة بغداد الكبرى (CBD)، وذلك لأبعاد المنطقة القديمة عن التيارات التنموية القوية لمركز المدينة الكبرى. وبهذا تبقى منطقتي الرصافة والكرخ كمدينة بغداد القديمة الصغيرة نسبيا ومعرفة بحدود واضحة. ويفضل اعتبار المدينة القديمة كمنطقة حفاظ، بشكل عام، واعتماد سياسات اعادة التطوير الحضري المنسجم مع الحفاظ في المناطق المتهرئة والفارغة، وان تخضع للضوابط القانونية والتخطيطية الخاصة بكل منطقة.

تكامل البنية العمرانية والبنية الوظيفية لمنطقتي الرصافة والكرخ

تتضمن فكرة الحفاظ على المدينة القديمة (بواقعها الهجين) مفهوم الحفاظ المتزامن على البنية العمرانية والبنية الوظيفية، وهذا التكامل ضروري لضمان الحياة والديمومة المستقبلية للمباني المفردة وللمدينة عموما. ولتحقيق فكرة التكامل هذه يتطلب ما يلي:

١. عزل مركز مدينة بغداد الكبرى عن منطقتي الرصافة والكرخ القديمة، ويفضل نقل الوظائف الخاصة بمركز المدينة الكبرى (مثلا المصارف الرئيسية وتجارة الجملة) الى خارج المدينة القديمة. ومن الممكن استحداث مركز اعمال (CBD) جديد وخاص بالمدينة الكبرى خارج المدينة القديمة.
٢. تحقيق الموازنة لاستعمالات الأرض والوظائف ضمن المنطقة لتلائم الهيكل الوظيفي والعمراني للمدينة القديمة، مثلا يتم اعتماد مركز المدينة الحالي ليكون مركزا للمدينة القديمة مع مراعاة المقياس الملائم وظيفيا وعمرانيا، كما ويتم الحفاظ على الوظيفة السكنية مع مراعاة توفير الخدمات الاجتماعية الضرورية وضمن معايير الحفاظ على المدينة القديمة.
٣. الحفاظ على ما تبقى من نسيج الدور والمحلات السكنية والمباني التراثية والتاريخية واحيائها وظيفيا واجتماعيا، وكذلك الحفاظ على واحياء شرايين الحركة التاريخية الرئيسية وتحقيق الحركة باتجاه النهر (كما هو مقترح في مخطط الحفاظ على منطقة الرصافة - JCP et al، ١٩٨٤).
٤. يفضل تأهيل الدور والمباني المحافظ عليها على أساس وظيفتها الاصلية وأحيانا يتطلب إعادة التأهيل لوظيفة أخرى مع مراعاة الحفاظ والانسجام مع التكوين الوظيفي والعمراني العام للمدينة القديمة.
٥. الحفاظ على المقياس العمراني الملائم للمدينة القديمة (واطئة الارتفاع نسبيا)، وخاصة مراعاة التكامل العمراني والوظيفي للنسيج السكني الواطئ الارتفاع (عموما طابقين) مع المباني العالية نسبيا (٨-١٠ طوابق) والمحاذية للشوارع التجارية العريضة.
٦. اعتماد نهر دجلة وضفتيه في الرصافة والكرخ كفضاء عام مفتوح، واحياء ارتباط هذا الفضاء بمنظومة الحركة والفضاءات العامة للمدينة وحركة المشاة على ضفتيه، واحياء الوظيفة النهرية والنقل النهري العام (والسياحي). ويفضل استحداث بؤر وظيفية لهذا الغرض وفي ضفتي النهر.

المفاهيم الاقتصادية والاستثمارية

تتضمن العملية التخطيطية دراسات جدوى اقتصادية على عدة مستويات، ومنها العام على صعيد المدينة والمنطقة والخدمات، ومنها الخاص على صعيد المباني المنفردة. وتكون هذه الدراسات مبنية على أساس الموازنة بين الجدوى الاقتصادية والاجتماعية والبيئة الطبيعية، بالإضافة الى الجدوى الحضارية بشكل عام. هذا ويفضل مشاركة جميع الأطراف المعنية في العملية التخطيطية والاستثمارية وان يكون الاعتماد على مبدا التنمية والتمويل الذاتي للمشروع.

المفاهيم القانونية

تتضمن المفاهيم القانونية الموازنة لحقوق ومسؤوليات الأطراف المعنية المرتبطة بالمشروع والمتأثرة سلبا او ايجابا بعملية الحفاظ وإعادة التطوير، ومن ضمنها القطاع العام (الحكومي) والقطاع الخاص المتمثل بالمستثمر الخاص والمالكين بالإضافة الى الساكنين وعموم المجتمع، وهذه الموازنة تكون ضمن إطار الدستور والقوانين المحلية والضوابط التخطيطية. ان الاخلال في الموازنة القانونية لحقوق الأطراف المتأثرة بهذه العملية يؤدي الى ان يقوم كل طرف بالموازنة التي يرتئيها ملائمة لتحقيق مصالحه.

تتصف سياستي الحفاظ وإعادة التطوير بالفارق الكبير في الجدوى الاقتصادية بين ما تحققه كل منهما. ولتحقيق هدف الحفاظ للمباني التاريخية والتراثية العائدة ملكيتها الى القطاع الخاص، فان بديل الاستملاك القانوني من قبل الجهة الرسمية يكون مكلفا ماديا. ويمكن أيضا تحقيق الموازنة الاقتصادية والقانونية من خلال برنامج خاص يمنح المالك إمكانية نقل حقوق الاستثمار من موقع المبنى التاريخي او التراثي الى موقع خارج منطقة الحفاظ.

المفاهيم التنفيذية للعملية التخطيطية ومشاركة الأطراف المعنية وأصحاب المصلحة في اتخاذ القرارات

تتضمن العملية التخطيطية مفهوم المشاركة والموازنة بين أدوار جميع الأطراف المعنية وأصحاب المصلحة المرتبطة بهذه العملية. وتتمثل هذه الاطراف في ثلاثة اقطاب رئيسية وهي:

١. القطاع العام (الحكومي) ويشمل جميع الجهات الرسمية وكوادرها الفنية المسؤولة عن العملية التخطيطية والتصميمية.
٢. القطاع الخاص ويشمل المستثمرين والمالكين وجميع الاستشاريين المرتبطين بعمليات التخطيط والتصميم..
٣. قطاع المجتمع، ويشمل الساكنين في المنطقة والمجتمع المحلي بالإضافة الى المجتمع العام ومؤسسات المجتمع المدني.

في معظم التصاميم الاساسية والمخططات الشاملة والمذكور قسما منها في هذا البحث، كان اتخاذ القرارات محصورا على القطاع العام (الحكومي) بشكل رئيسي، وعلى القطاع الخاص بشكل ثانوي، ولم يكن لقطاع المجتمع (المحلي والعام) دور فعال في اتخاذ القرارات، بل كان بمثابة المتلقي للنتائج خلال وبعد عملية التنفيذ. ويشار الى هذا النهج في اتخاذ القرارات التخطيطية والتصميمية بنهج الفوق الى التحت (Top-to-Bottom Approach). ونتج من اتباع هذا النهج، محليا وعالميا، التأثيرات السلبية على المجتمع، ومنها عدم تحقيق العدالة الاجتماعية، وكذلك التأثيرات السلبية على منظومات البيئة الطبيعية (مثلا التغير المناخي والتلوث البيئي).

ونتيجة لهذه الحالة السيئة تحرك المجتمع المدني عالميا لإحلال الموازنة لهذه المكونات، فبرز نهج في التخطيط يعتمد على المجتمع المحلي كأساس ومنطلق لعملية التخطيط (Community-Based Planning) أي تكون القرارات نابعة من قطاع المجتمع وصعودا الى متخذي القرار في القطاع العام والقطاع الخاص (Bottom-to-Top Approach). ٢٩ وكذلك ظهرت فكرة التنمية المستديمة (Sustainable Development) والتي تستند على مبدا الموازنة بين المكونات الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية.[٣٠]

وعموما تعتمد هذه المناهج على مفهوم المشاركة (Collaboration) في عملية اتخاذ القرار من قبل جميع الأطراف المعنية. بالإضافة الى ذلك ظهرت أهمية مفهوم الشراكة (Partnership) وامكانيات تشكيلها فيما بين القطاعات الرئيسية الثلاثة، ليكونوا جميعا بمثابة المستفيدين وأصحاب المصلحة في عملية التخطيط. وعموما هنالك شكلان من الشراكة، الأول يكون بين القطاع العام الحكومي والقطاع الخاص المستثمر (Public-Private Partnership)، والشكل الثاني يكون بين القطاعات الثلاثة وهي القطاع العام والقطاع الخاص وقطاع المجتمع (Public-Private-Community Partnership). وضمن هذا الإطار تكون مشاركة القطاعات أكثر فاعلية وتكون هنالك موازنة في تحقيق الاهداف لكل منها، ويكون كل طرف رابحا في النتيجة أي ما يسمى (Win-Win Approach). وعموما فان اعتماد مفهوم الشراكة بين الأطراف المعنية يزيد من احتمالية نجاح المشروع.

خلاصة الاستنتاجات والتوصيات

بالرغم من الظروف الصعبة عبر العصور، فان مدينة بغداد لها قابلية تحمل هذه الظروف وثم استعادة نشاطها، فهي مدينة مرنة ومستديمة بطبيعتها.

- إعادة تقييم سياسات التخطيط والتصميم للمدينة الكبرى، بشكل عام، والمدينة القديمة التراثية بشكل خاص، وتحديد الأهداف لكل منهما، مع مراعاة الخصوصية للمدينة القديمة وعزل مركز المدينة الكبرى (CBD) عن المدينة القديمة، وذلك لتهيئة ظروف ملائمة لتحقيق هدف الحفاظ على الموروث العمراني والحضاري.
- الحفاظ على ما بقي من الموروث العمراني والحضاري القديم وبواقعه الهجين (منطقتي الرصافة والكرخ)، واتباع مفاهيم وسياسات منسجمة مع هدف الحفاظ على المدينة القديمة وتحقيق الهوية المحلية.
- تكون دراسات الجدوى الاقتصادية متوازنة مع الجدوى الاجتماعية والبيئة الطبيعية والحضارية لمشروع الحفاظ، ويفضل اعتماد مبدا التنمية الذاتية والتمويل الذاتي للمشاريع.
- تحقيق الموازنة القانونية لحقوق ومسؤوليات الأطراف المعنية والمتأثرة سلبا او ايجابا بالعملية التخطيطية والمشاريع التنفيذية.
- مشاركة جميع الأطراف المعنية في عملية التخطيط واتخاذ القرارات، متمثلة بالقطاعات الرئيسية الثلاث، وبحث إمكانية تحقيق الشراكة (Partnership) بين القطاعات، وتفعيل دور المجتمع المحلي كقاعدة أساس في العملية.
- اعتماد الفكرة التكاملية لمكونات العملية التخطيطية واتخاذ القرارات وتشمل، بشكل عام، مكونات البيئة الطبيعية والعمرانية والاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية/السياسية، بالإضافة الى عامل الزمن والتوقيت الزمني، ومشاركة الاختصاصيين ضمن هذه المجالات في العملية التخطيطية.

المصادر باللغة الانكليزية

1. Abu-Lughod, Janet (1980). "Contemporary Relevance of Islamic Planning Principles". Ekistics, 47 (Jan-Feb1980), pp 6-8.
2. Alousi Associates, (1982). "Al-Karkh Development Project". Baghdad, Iraq. Submitted to Mayoralty of Baghdad.
3. Barnett, Jonathan (1974). "Urban Design as Public Policy". Published by McGraw-Hill Companies.
4. Doxiadis Associates (1959) "Baghdad Master Plan".
5. Fethi, Ihsan (1985). "Contemporary Architecture in Baghdad – Its Roots and Transition". Article published in Process Architecture Magazine, Tokyo, Japan, No. 58, May 1985.
6. Friedmann, John (1987). Planning in the Public Domain: From Knowledge to Action. Princeton, NJ, Princeton University Press.
7. JCP Inc., Japan, Planners, Architects & Consulting Engineers, & Others Consultants (1984). "A Study for Conservation and Redevelopment of Rusafa Area". Submitted to the Mayoralty of Baghdad.
8. Minoprio, Spencely & Macfarlane, Baghdad Master Plan, (1956).
9. Polservice & Miastoproject, Krakow (1967). "Master Plan of Baghdad, and Polservice & Miastoproject, Krakow (1973). "Comprehensive Development Plan for Baghdad 2000".
10. 10. Rasmussen, Steen Eiler (1969). "Towns and Buildings". The MIT Press, Cambridge, Massachusetts.
11. United Nations World commission on Environment & Development (1987). "Our Common Future: Report of the World Commission on Environment & Development - Brundtland Report.

المصادر باللغة العربية

1. العلي، صالح احمد (1985). "بغداد مدينة السلام". مطبعة المجمع العلمي العراقي.
2. جواد، مصطفى وسوسه، احمد (1969). "خارطة بغداد قديما وحديثا". في كتاب "بغداد"، مصطفى جواد، احمد سوسه، محمد مكيه، وناجي معروف. نقابة المهندسين العراقية، مؤسسة رمزي للطباعة، بغداد.
3. سفر، فؤاد (1974). "الحضر". مؤسسة رمزي للطباعة، بغداد.
4. سوسه، احمد (1952). "أطلس بغداد". مطبعة مديرية المساحة، بغداد.
5. سوسه، احمد (1965). "فيضانات بغداد في التاريخ". مطبعة الاديب، بغداد.
6. سوسه، احمد (1969). "ري بغداد". في كتاب "بغداد"، مصطفى جواد، احمد سوسه، محمد مكيه، و ناجي معروف.

الملاحظات

1. جواد وسوسه، 1969، ص 16.
2. سوسه، 1969، ص 93-91.
3. جواد وسوسه، 1969، ص 22.18.
4. المصدر السابق، 1969، ص 24. 30.
5. المصدر السابق، 1969، ص 31.
6. Abu-Lughod, 1980.
7. جواد وسوسه، 1969، ص 50.31.
8. المصدر السابق، 1969، ص 41. .
9. JCP et al., 1984, Report 3A, p. 2
10. جواد وسوسه، 1969، ص 54.
11. المصدر السابق، 1969، ص 57.56.
12. جواد وسوسه، 1969، ص 55.
13. المصدر السابق، 1969، ص 63.62.
14. المصدر السابق، 1969.
15. المصدر السابق، 1969، ص 70.64.
16. المصدر السابق، 1969، ص 71.
17. المصدر السابق، 1969، ص 71.
18. JCP et al., 1984, Report 3A, p. 5
19. المصدر السابق، 1984.
20. المصدر السابق، 1984.
21. Rasmussen, 1969, p 162-164
22. Minoprio, Spencely & Macfarlane, Baghdad Master Plan, 1956
23. Doxiadis, Baghdad Master Plan 1958.
24. Polservice, Master Plan of Baghdad 1967 & Comprehensive Development Plan for Baghdad 2000, 1973
25. لقد تم أيضا خلال عقد الثمانينات من القرن الماضي تنفيذ مشروع تطوير الكرخ ويشمل إعادة تطوير شارع حيفا الذي يخترق منطقة الكرخ القديمة والذي تسبب في إزالة عدد كثير من الدور السكنية القديمة Alousi Associates, 1982)).
26. JCP et al., 1984.
27. المصدر السابق، 1984.
28. تم استخدام هذه الفكرة للحفاظ على المباني التاريخية في كثير من المدن الامريكية الكبيرة وضمن برنامج خاص يسمى نقل الحقوق الاستثمارية (Transfer of Development Rights – TDR). (Barnett, 1974 & 1982)
29. لتفاصيل أكثر حول أهمية المشاركة الجماهيرية للمجتمع المحلي، انظر المصدر (Friedmann, 1987).
30. لتفاصيل أكثر حول نشوء فكرة التنمية المستديمة (Sustainable Development) انظر المصدر United Nations World Commission on Environment & Development, 1987)

الحياة اليومية والعنف المديني
الحرب غير المرئية والمقاومة المرئية

ساحرة بليبلة | أستاذ مشارك، جامعة الامارات العربية المتحدة

لم يعد النزاع المسلح يهدف إلى الانتصار في المعارك الميدانية و حسب، بل أصبح يستهدف قهر ثقافة الشعوب وتفكيك المجتمعات. تتضمن هذه الدراسة نموذجاً لاستجابة المجتمع للابقاء على هويته وثقافته من خلال الحفاظ على منازله وبنيته التحتية رغم الجهود المنظمة لتدمير أسس استقرار المنازل. سوف يتم التدقيق في ذلك من خلال دراسة الآثار الاجتماعية والمكانية للاستراتيجيات العسكرية للاحتلال الاسرائيلي في الحروب المدينية الحديثة، بما فيها استراتيجية "المشي خلال الجدران". إنها مقاربة علمية لتوثيق، لتحقيق، ولتحليل الاستجابة المجتمعية لاستراتيجية إسرائيل في الحرب المدينية غير المرئية.

كانت النتائج الإنسانية والعاطفية للفلسطينيين الذين دُمّرت منازلهم خلال الاجتياح الاسرائيلي في العام ٢٠٠٢ أكثر من صادمة. من خلال الاستناد إلى بحث أثنوغرافي بين الفلسطينيين من أبناء البلدة القديمة في مدينة نابلس الذين دمرت منازلهم خلال الاجتياح الاسرائيلي في العام ٢٠٠٢، أحاول دراسة آثار هذه الاستراتيجية الحربية على مكونات المكان المادية والمعنوية الاجتماعية، الحياة المجتمعية، و الهوية. لقد أجريت في نابلس بين العامين ٢٠٠٩ و٢٠١١ مقابلات شخصية، و مقابلات مع مجموعات اننتقائية ومركزة، و تم خلالهما مراقبة و تدوين ملاحظات المشاركين في الدراسة. لقد أجريت المقابلات مع سكان البلدة القديمة وممثلين عن بعض الجهات الرسمية والمؤسساتية.

آما فيما يتعلق بالخصائص المكانية والعمرانية، فكما يتبين من الرسم ١، فإن المميزات المدينية للبلدة القديمة في نابلس تتناغم مع الأعراف الاجتماعية للمجتمع، حيث يحترم التسلسل الهرمي المكاني للنسيج العمراني التقليدي من حيث الانتقال التدريجي من المكان الخاص و الفراغ المشترك والعام.

لقد وقعت العديد من الاعتداءات العسكرية خلال ما يفوق السبعة عقود من الاحتلال الإسرائيلي، احدثها للأسف كان يجري اثناء كتابة هذا النص في أيار ٢٠٢١. في العام ٢٠٠٢، تم اعتماد إستراتيجية عسكرية جديدة يطلق عليها اسم "المشي باختراق الجدران". وتهدف هذه الاستراتيجية على تفجير الجدران، الأرضيات، واسقف المنازل المتلاصقة للمرور من خلالها بمباغتة أهلها بدون استئذانهم، وعوضاً عن تسيير دوريات الاحتلال في الشوارع الرئيسية وأزقة المدينة وقرع الأبواب للدخول. حسب الرواية الاسرائيلية، اعتمدت هذه الاستراتيجية لتفادي أي مواجهة مباشرة أو أفخاخ متفجرة مشتبه بها، والأهم من ذلك، لمفاجأة الناس في أماكن سكنهم، كما ذكرت. بالإضافة إلى ترك الناس في حالة من عدم الحيلة، لم يكن تهديم الجدران يهدف إلى إفقاد الناس شعورهم بالمنزل وحسب، بل أيضاً إبعاد فكرة أي احتمال مستقبلي في "الدولة السيادية". تنفيذ الممارسة

حالة حصار
في الحصار، يصير الزمان مكانًا
تحجر في أبده
في الحصار، يصير المكان زمانًا
تخلف عن أمسه و غده
محمود درويش – حالة حصار -

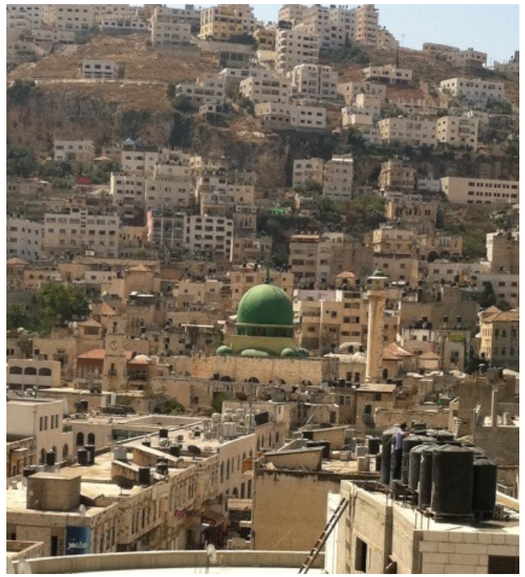

الرسم ١: التركيبة الحضرية المكتظة، خط السماء المتدرج، امتداد المدينة الحديثة بالاتجاه الجنوبي. المصدر: ساحرة بليبلة (2011)

العسكرية لـ "المشي باختراق الجدران" - على مستوى المنزل، المدينة، أو "الدولة" - يربط الخصائص المادية للبناء بهذا التركيب المعماري، الاجتماعي، والأوامر السياسية. باستخدام المتفجرات أو المطارق الضخمة يتمكن الجيش الاسرائيلي من إحداث فجوة كبيرة في الجدران ليستطيع جنوده العبور من خلالها من منزل إلى آخر متسببين بالفوضى والخوف بين السكان. والتقنيات الحديثة التي طورها الجيش الاسرائيلي سمحت لجنوده رؤية الكائنات الحية من خلال الجدران، وتسهيل قدرتهم على السير وإطلاق النار من خلالها، وبالتالي يسعى لتهديم ليس الجدران المادية للمنزل فحسب، بل أيضاً معنى العاطفي والانساني للبيت. و"المشي باختراق الجدران" ، لم يبدل المساحات الداخلية إلى مساحات خارجية والملكية الخاصة إلى ممرات فحسب، لكنه حوّل أيضاً معنى المساحة اليومية الخاصة للمنزل إلى "مساحات محظورة" حيث أضحت تلك المساحة الخاصة مساحةً حربية (بليبلة ٢٠١٠ و٢٠١٥). ومع تلاشي واقع الجدار مادياً من حيث اعتباره صلباً غير قابل للاختراق، فإن التركيبة المكانية الوظيفية الجديدة التي نشأت – الفصل بين الداخل والخارج، الخاص والعام – انهارت (أرندت ١٩٩٨ صفحات ٦٣-٦٤).

وتمثل الفلسفة العسكرية المطبقة منطق إعادة ترتيب للتركيبة المكانية لأنها تلاعبت أو بالأحرى تجاهلت نمط الشوارع أو الحركة القائم، واستبدلته بنمط سير آخر اكثر سلاسة لمركباتها و أهدافها العسكرية.

ومن خلال تمييع اواذابة الهيكلية الحضارية، يصبح التحكم بالتخطيط الميداني أكثر سهولة، حيث يتم تحديد المسارات وفقاً للفرص المتوفرة. يقول أيال وايزمان (٢٠٠٧) إن الدول لم تكن تعني الاحتلال فقط، بل في الواقع إعادة ترتيب مساحات المدن المستعمرة بشكل تخدم فيه الحروب الحديثة بأسلحتها المتطورة وأنظمة المراقبة، مصلحة المستعمر بأفضل طريقة ممكنة. ومع وصفها بـ "التصميم من خلال التدمير"، يؤكد وايزمان أن "الحرب الحضارية المعاصرة تدور داخل هندسة معمارية مبنية، حقيقية أو خيالية، ومن خلال التدمير، بناء، إعادة ترتيب وإخضاع أو تخريب المساحات" (ميسلويتز ووايزمان، ٢٠٠٣، صفحات ٢٧٢-٢٧٥).

وبهذا السياق، تطور التفكير الاستراتيجي العسكري ليتجاوز تعقيدات المدينة؛ بالتالي، تطورت الحرب بعدما كانت

"في المدينة لكن من اجل المدينة من خلال المدينة. لم تعد المدينة هي المكان، بل اصبحت جهاز الحرب".

(ميسلويتز ووايزمن، ٢٠٠٣ صفحة ٣٧٩؛ وايزمن ٢٠٠٦، ٢٠٠٧). هذا الاختراق غير المتوقع للحرب داخل الملكية الخاصة للمنزل، تم اعتماده أيضاً في العراق من قبل الجيش الأميركي. الاستراتيجية الحربية، المبنية على التدريبات المشتركة بين الجيشين الأميركي والاسرائيلي، أصبحت الشكل الأكثر عمقاً للاذلال والأذى الذي يلحق بالمجتمعات التي تتعرض للاجتياح (ميسلويتز ووايزمن، ٢٠٠٣).

والتقنية العسكرية الاسرائيلية الجديدة المعنمدة "المشي باختراق الجدران" لم تؤثر على معنى هذه العلاقة التسلسلية فحسب، بل إن الأسر أصبحت تعيش بخوف وعدم أمان داخل "مساحتهم الحميمة"، وبالتالي لم يعد المنزل كما كان خاصاً وآمناً؛ بل أصبح كما ذكرنا "مساحة محرّمة" او "فراغا محظورا". الفراغ المحظور على سكانه للعيش بحرية والمحظور ايضا على الاسرائيليين من ناحية وحشية اجتياح خصوصية سكانه وحياتهم العادية. لقد قلب القصف والتقنية العسكرية "المشي باختراق الجدران" داخل المنازل خارجها تماما كما اجتاح حياة السكان اليومية. لقد اضطرت العديد من المشاركات في البحث مثل أم رائد، أم جهاد، وأم جمال وبناتها للبقاء بملابسهن وحجاباتهن استباقاً لاحتمال أي هجوم مستقبلي على منازلهن. لقد سمح النسيج الحضري التاريخي ببعض المرونة للانتقال بين المنازل خلال الاعتداءات وأتاح لسكان الاحواش والمجاورات السكنية التصرف كعائلة واحدة. وكما قالت أم جهاد "خلال وقت الاجتياح، كنا دائماً بكامل ملابسنا على استعداد للانتقال ... لقد كان قلقي الأكبر على ابنتي البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً.. لم أكن أعرف ما الذي علي أن أفعله سوى حمايتها بجسدي". وفي الاطار نفسه، قالت ابنة أم جمال "كنا ننام بجلابياتنا وحجاباتنا" فيما قالت أم رائد بحسرة "والله يا بنتي، مرت علينا أياماً صعبة. لقد تم انتهاك حرماتنا الداخلية وخصوصياتنا. انكشف حالنا" {للتعبيرعن انتهاك الخصوصية}.

معظم الذين تمت مقابلتهم قالوا إنهم أصرّوا على البقاء في منازلهم رغم الأضرار و التدمير. وذكروا أن الاهتمام بحطام منازلهم دفعهم إلى " التمسك وزرع الأمل" واستعادة حياتهم بعدما كان عالمهم قد تضرر بشكل كبير، وشلّت مدينتهم، وحياتهم العملية توقفت نتيجة فرض منع التجول الطويل والاغلاق القسري العام. لقد كان أسهل بالنسبه إليهم البقاء في منازلهم في بيئة مدمّرة عوض اختبار مأساة التهجير مجددًا، كالتي عانى منها فلسطينيو النكبة في العام ١٩٤٨. وتظهر الروايات أن إصرار المشاركين في البحث على البقاء في بقايا منازلهم المدمرة كان ولا يزال غير قابل للتفاوض. لقد أجبروا على المغادرة فقط عندما كانت حياتهم معرضة للخطر أو عندما أجبرهم الجيش الاسرائيلي على المغادرة. و الإصرار نفسه ظهر لدى سكان المنازل وأصحاب المحال التجارية الذين استمروا في زيارة محالهم التجارية وتفقدها حتى في ظل منع التجوال. وكما في حالة أبو صالح، اختاروا أن يعرضوا حياتهم للخطر فقط للتأكد من أن محلاتهم كانت بأمان. من الواضح أن المقاومة والبقاء على قيد الحياة كانا الخياران الوحيدان للاستمرار، كما أكد معظم المشاركين في البحث. على سبيل المثال، قال أبو فادي "ليس لدينا خيار، نحتاج للبقاء على قيد الحياة لكي نبقى في منازلنا ونحميها، الاستمرار والمقاومة ... في الواقع هذه هي مقاومتنا".

"البناء مع التغيير"

خلال الاجتياح الاسرائيلي في العام ٢٠٠٢، وخلال منع التجوّل، تعلّم معظم المشاركين في البحث الكثير عن التوزيع الفراغي لمنازلهم وبالتالي درسوا إعادة توزيع المساحات الداخلية للمنازل وادخلوا عليها بعض التغييرات من أجل سلامتهم والحماية من أي هجوم مستقبلي. واختلفت هذه التغييرات نسبة إلى استخدام المساحة

الرسم ٢: المصعد الخارجي الذي اضيف الى احد المباني في البلدة القديمة في نابلس. المصدر: ساحرة بليبلة (2019)

وخبرة المشاركين، فشملت مثلا المداخل، المواد، الموقع، الحجم، أو التعديل؛ المساحة الداخلية وتبديل استخدام الغرف لابعاد غرف النوم عن الخارج؛ مواد بناء جديدة وتقنيات بناء مختلفة عن التقنيات التقليدية؛ توسيع الأحجام والمواقع؛ زيادة ارتفاع السقف؛ رصف الواجهات الخارجية وزيادة عرض الشوارع. وفي حالات مستجدة اقتضتها تبعات هجوم الاحتلال الاسرائيلي وما تسببته من اعاقات للمصابين. فمثلا، كانت هناك حالة أضافت فيها البلدية مصعداً خارجيا لأحد المنازل لأن أحد أفراد العائلة أصيب بإعاقة خلال الهجوم الإسرائيلي وكان يسكن في الطابق الثاني، كما هو موضح في الرسم ٢ .

وبصورة عامة فان هذه التغييرات يمكن تصنيفها الى تغييرات مؤقتة وتغييرات أخرى دائمة. فحالة استخدام المساحات العامة مثل المدارس، المساجد والكنائس كملاجئ أو ومستوصفات طوارئ يدخل في إطار التغيير المؤقت. والتغيير في استخدام بعض المباني العامة لمواكبة الوضع الاقتصادي الصعب يدخل في إطار التغيير الدائم. وهناك بعد اخر دائم له علاقة بذاكرة المكان. مثلاً، الملصقات، الجداريات والنصب التذكارية انتشرت على معظم

الرسم ٣ (يمين): ذاكرة المكان ومجموعة أسماء لشهداء فلسطينيين محفورة على أحد جدران البلدة القديمة في نابلس. المصدر: ساحرة بليبلة (٢٠٠٩)

الرسم ٤: ملصقات تمثل مجموعة من الشهداء الفلسطينيين على أحد الجدران في البلدة القديمة في نابلس. المصدر: ساحرة بليبلة (٢٠٠٩)

المساحات العامة والواجهات الخارجية لتخليد الأحداث الأليمة للانتفاضة الثانية، بما في ذلك أسماء شهداء الاجتياح الاسرائيلي في العام ٢٠٠٢، وبالتالي تمثيل الذكريات الأليمة مكانيًا وتداول قصص الموت والدمار كما يظهر في الرسمين ٣ و٤. وتشرح أم علاء في حديثها الوضع: "تخيّل أنك وعائلتك في غرفة الجلوس تشاهدون التلفازوتتحدثون مع بعضكم بعد عشاء المساء. وفجأة تسمع هديراً ضخماً ويختفي الجدار. تمتلئ الغرفة بالغبار والركام، ويظهر الجنود واحداً تلو الآخر إما مقنعين أو قد صبغوا وجوههم بالاسود وقد اخترقوا الجدار. يصرخ الأطفال ويرتجفون رعباً .. لا تعرف ماذا تفعل أو إلى أين تذهب عندما توجه فوهات البنادق الآلية إلى كل مكان. إنه بمثابة كابوس".

وكما نعرف، فإن المنزل وجدرانه يحددون السيادة الشخصية كما هي الحال بالنسبة للمدينة - الدولة. وفي الحرب المدينية الحديثة، فإن أسلوباً مثل "المشي باختراق الجدران" يظهر أن اجتياز الحدود لا يقتصر على المدينة - الدولة بل أيضاً جوهر الحياة اليومية والسيادة المنزلية الداخلية. فالآباء تقليدياً مسؤولون عن حماية عائلاتهم،

لكن الوجود التطفلي للجيش الاسرائيلي داخل المساحة "الحميمة" جعل ذلك شبه مستحيل. وأثناء أجراء المقابلات الميدانية، أكد العديد من المشاركين هذا الواقع وما عانوا منه عندما شعروا بأنهم مهددين داخل مساحتهم "الحميمة"، أصبحت أجسادهم وحالتهم النفسية ملاذهم المباشر الذي يحاجة للحماية، وبالتالي أصبحت سلامتهم أولوية. وقال أبو علاء، أحد المشاركين: "خلال الاجتياح، أبقيت نفسي منشغلاً في تزيين وترميم الجدار الخارجي لتشتيت افكاري. شعرت بالأمان رغم أني كنت محاطاً بالجنود الاسرائيليين". ويتابع: "كان بإمكانهم (الاسرائيليين) القيام بأي شيء وكل شيء، كان بإمكانهم اعتقالي أو حتى قتلي، وعقلي هو الشيء الوحيد الذي بإمكاني استعماله للحصول على القوة لمنعهم من المساس بي".

وتحت ظروف التجربة الصادمة للاحتياح الاسرائيلي في العام ٢٠٠٢، واستراتيجية "المشي باختراق الجدران" العسكرية، فإن الكشف عن التبعات المكانية والسلوكية لأولئك الذين عاشوا تلك التجربة في البلدة القديمة في نابلس، أمر يستحق، وان كان معقد بعض الشيء. إن تجارب السكان بعد أن تعرّضت منازلهم للاجتياح والقصف، والسبل التي أتبعوها لحماية أنفسهم وعملهم على إصلاح الدمار، تروي قصة الإصرار والفاعلية الحيوية لفهم نطاق "الحياة اليومية". إضافة إلى ذلك، فإن تفاعل السكان مع المؤسسات المحلية التي انخرطت في مسيرة الترميم خلال مرحلة ما بعد إعادة الإعمار للبلدة القديمة في نابلس، تقدّم مثالاً هاماً عن الالتزام الجماعي للناس لإعادة بناء منازلهم استنادا إلى أسس أرثها التاريخي وآمالهم بمستقبل يحافظ على ثقافتهم وهويتهم وتمسكهم بالثوابت.

إن قصص السكان عن الاجتياح الاسرائيلي في العام ٢٠٠٢ تلقي الضوء على كيفية تجربة الفلسطينيين وتعاملهم مع العيش في بيئة مفجوعة يسيطر عليها القلق، الخوف والصدمات (بليبلة ٢٠١٢). كانت المواضيع المنبثقة عن قصص الناس تدور بمعظمها حول المسائل المشتركة للمكان، الزمان، الثقافة الاجتماعية والسلامة. وفي تحليل روايات المشاركين، برزت عوالم مكانية مختلفة. هذه العوالم المكانية يفترض أنها تعكس تجربة السكان خلال الاجتياح الاسرائيلي في العام ٢٠٠٢، بدءاً من الاحتجاز في المنزل، الاخلاء، تصليح الأضرار والعودة: "الحميمية" خارج المساحة المباشرة، الاخلاء، وتصليح الأضرار الخارجية وأضرار المنزل؛ وسلوكية الناس بمعنى تفضيلهم للبقاء أو خروجهم من المنازل خلال العوالم المكانية المختلفة، و الطرق التي استخدموها للتعايش كأفراد وكمجتمع. بكلمات أخرى،

فإن الرحلة الاضطرارية للمشاركين في البحث من الاخلاء إلى العودة إلى المنزل تترابط مع المعنى الحميمي للمنزل "كمكان تخرج منه وإليه تعود" بالتالي ينظر إلى المنزل كالتجذر وكالمكان المحوري للوجود الانساني

(نوربرغ – شولتز، ١٩٨٠ & ١٩٨٨؛ ريلف، ١٩٧٦؛ تيوان، ١٩٧٧).

ويكشف هذا البحث تفاصيل عن النواحي المكانية والسلوكية للحياة اليومية في بيئة مفجوعة، ويأتي في المقدمة معنى المنزل كمكان للتماسك والشعور بالترابط والأمان. يقول عدد من الأكاديميين أن علاقة الناس بمنازلهم هي إشارة إلى انتمائهم و سلامتهم النفسية. بالتالي، فإن التجربة الصادمة تؤثر على النظام العاطفي لشخص في العالم الذي ينتمي إليه ويتفاعل معه في

حياته اليومية (أيلز & ويليامز، ٢٠٠٨). وانطلاقاً من هذا المفهوم، فإن المنزل يتضمن روابط لا يمكن فصلها بين العمليات المادية والخصائص النفسية. إنه يعكس مزايا فريدة وواضحة للسكان، وفي الوقت نفسه، يظهر الناس روابط اجتماعية مع مجتمعهم وثقافتهم من خلال الملامح المادية لمنازلهم. عندما يعيش شخص ما في مكان ويكوّن ذكريات فيه، ينشأ الارتباط ومن خلال هذا الارتباط الشخصي بالمكان، يكوّن الشخص حساً بالانتماء والغاية، الذي بدوره يعطي أهمية ومعنى لحياته. ومع هذه الرغبة في إعادة البناء تكمن صعوبة إعادة دمج الأبنية المرتبطة بماض لا ترغب بتذكّره. لكن ماذا يعني العيش في حالة من عدم اليقين يومياً؟

الحياة اليومية في ظل العنف المديني

وفيما يلي يبني السياق ويوسّع نظرية الحياة اليومية للاتصال مع ناحيتين من البحث حول البيئة المبنية: العلاقات الانسانية وانتاج المكان/الفراغ. وبالتالي، يساهم في تكوين نظرة انتروبولوجية لفهم الحياة اليومية والتجربة للعلاقات التفاعلية للناس مع بيئتهم المبنية وإنتاج المكانية، بشكل خاص عندما يعيشون في ظل وضع سياسي مقيّد. ويكشف هذا المنظور الانتروبولوجي عن مستويين من التفاعل، الأول يتعلق بتصرفات الناس داخل مكانهم المادي المحاصر ومقاومتهم للاجتياح الاسرائيلي، والثاني يتعلق بإعادة بناء منازلهم فيما يتعاملون مع المؤسسات المحلية على مستويين مكاني و تخطيطي. ومن الواضح أن الناس والمؤسسات كانوا يتعاملون مع الاجتياح الاسرائيلي الكارثي في العام ٢٠٠٢ كردة فعل عوضاً عن الفعل او التخطيط المسبق. وذلك بسبب أنه لم يتوقع أحد الهجمات الاسرائيلية أو حجم الدمار، خصوصاً أن كل فريق اعتبر أن العيش في المنطقة (أ) تحت حكم السلطة الفلسطينية يوفر"نوع" من الحماية ويمنع الاسرائيليين من القيام بهجمات عسكرية. لقد كانوا مخطئين والاجتياح الاسرائيلي في العام ٢٠٠٢ أثبت استمرار السيادة الإسرائيلية، والاحتلال الاسرائيلي.

ورغم هشاشة وضعهم، أجبر الناس على اخذ القرار إما البقاء أو ترك منازلهم. ومواجهة الخوف لم يمنعهم من السعي إلى الاحتماء إما في الغرف البعيدة في منازلهم، لدى جيرانهم أو في الأماكن العامة القريبة التي لجأوا إليها. وبالتزامن، دفعتهم شدة ونوعية الهجمات الاسرائيلية إلى إعادة تقييم منازلهم وإدخال تغييرات على المساحة لغايات تتعلق بالسلامة ولاستخدام المساحات بشكل أفضل خلال الأوقات الصعبة، رغم أن أي تغيير مادي لا يقلّص من تأثير إستراتيجية "المشي باختراق الجدران" التي اعتمدت اثناء الاجتياح. وتجربتهم هذه ساعدتهم لاحقا (اثناء رفع منع التجول لساعات قليلة) على تأمين حاجياتهم الأساسية من الطعام والمياه من خلال تقاسم ما خزّنوه من طعام لا يحتاج للكهرباء للاحتفاظ بجودته، وامتلاكهم لخزانات مياه موجودة داخل منازلهم وليس على الاسطح، بعيدة عن مرمى رصاص جيش الاحتلال الاسرائيلي. ورغم أن الأولوية بالنسبة للمشاركين في البحث كانت المحافظة على السلامة، شعروا بأن احتجازهم معاً، وفّر لهم الدعم الاجتماعي وعزّز من صمودهم ومقاومتهم، فبعضهم عزز مقولة "الموت مع الجماعة رحمة"..

لكن العيش بقلق وعدم يقين يخلق طبيعة مختلفة للحياة اليومية وتحديات أكثر تعكس الأولويات العديدة المستندة إلى الحاجيات اليومية. فعلى سبيل المثال، كان التحدي الرئيسي عندما كان الناس يعيشون في ظل حظر التجوال، هو تأمين الحاجيات الأساسية من طعام وملجأ، وفي حين أن ذلك يبقى أولوية، إلا أن ترميم المنازل المتضررة بدا وكأنه بحاجة لاستجابة فورية. فبدلاً من ذلك، تحوّل تركيز الناس إلى الطريقة التي يجب عليهم اتباعها من أجل تلك الاستجابة، ليكتشفوا بعداً آخر لهشاشتهم ومزيداً من الفوضى وغياب أي خطة طوارئ أو دور واضح لمن يقوم بماذا في مثل هذه الحالة. ورغم المسح الذي قامت به البلدية، إلا أنه لم تتم استشارة الناس حول أي ترميم للأضرار أو حتى أين كانوا، بل كان مجرد تسجيل لأسمائهم من دون تفاصيل إضافية.

الخاتمة

تكشف التكتيكات اليومية السبل التي يلجأ إليها الناس للتفاوض وإعادة ترتيب الفضاءات/المساحات والتصرفات ضمن بيئة تعيش بشكل دائم تحت القمع ومحظور عليها التجوال أو أنها تملك مقداراً محدوداً من الحرية والحركة ، أو من دونها إطلاقاً. ان العيش بخوف يقيّد وقت وفضاءات الناس، وبالتالي إجبارهم على أن يكونوا فوريين او عفويين لكن خلاقين من أجل مواجهة أو تجاوز أو التلاعب بمثل هذه القيود من أجل استقرار أي حالة جديدة من عدم اليقين او الشك. والحرب عادة تجعل من المدن والناس أهدافاً خالية من أي إنسانية. والاعتداءات الاسرائيلية تحديداً، "المشي باختراق الجدران"، حوّلت لب واساس الحياة اليومية وكامل فضاء الحياة الفلسطينية إلى مسرح للحرب حيث سلبت الناس منازلهم وحياتهم اليومية من أي إنسانية، وبالتالي ناقضت المعنى الجوهري للمنزل.

ويناقش هذه البحث الذي يأتي ضمن إطار إستراتيجية عالمية أوسع للحروب، العواقب المعيشية للهجوم العسكري الإسرائيلي على الحياة المدنية والمدينية للفلسطينيين الذين يعيشون في المنطقة، وتأخذ في عين الاعتبار مسارات السكان وتجاربهم في إعادة بناء منازلهم ولملمة حياتهم، او بقاياها أحيانا للاستمرار قدما. وضمن إطار إعادة البناء كشكل من أشكال المقاومة، فإن مرحلة ما بعد إعادة بناء البلدة التاريخية في نابلس، تشكّل مثالاً ذات مغزى عن الالتزام الجماعي للناس في إعادة بناء منازلهم استناداً إلى أسس الارث التاريخي للمدينة وآمالهم بمستقبل يحافظ على ثقافتهم وهويتهم. وتقدم هذه الورقة ايضاً منظورًا متعدد الخصائص حول العواقب الزمنية والمكانية والسلوكية استناداً إلى روايات وتجارب المشاركين. وتؤكّد أن الاعتداء الاسرائيلي على الحياة المدنية والمدينية في فلسطين تشكل نوعاً جديداً من الحروب الذي يصوّر البيئة المبنية على أنها العدو. بالتالي، فإن الحرب المعاصرة للقوة الاستعمارية تؤخر أي خطة على المدى الطويل للتنمية والسيادة وإقامة دولة من خلال تعليق الحياة اليومية للفلسطينيين.

ونهج "البناء مع التغيير" يتضمن تاريخاً، حداثة ومرونة. في إطار الاجتياح الاسرائيلي لفلسطين في العام ٢٠٠٢ دمّرت العديد من المنازل معظمها كانت سكنية. وما يبرز من روايات السكان حول تجربتهم في إعادة إعمار منازلهم، هو كيف أن الهندسة المعمارية ساعدت في تشكيل الهوية والمجتمع. رغم أن ذلك أنتج قصصاً متباينة، إلا أنها كانت مترابطة من حيث الصدمات والذكريات العميقة والمرونة التي ساهمت في ديناميكية التغيير في الإطار العالمي. وضمن هذا السرد، فإن تحويل التركيز من المجرد إلى الملموس في الوقت الذي يوضع فيه المقياسان الجزئي والكلي جنباً إلى جنب، والانتقال بين ثقافة اللامبالاة وثقافة المشاركة، يوفّر اعترافاً ضمنياً للأدوات والامكانيات. في طيات المشهد الثقافي والسياسي، يدور نزاع حول الحدود والسلطات، ويتم التفاوض حول جغرافية المرونة بسلاسة لا تأتي إلا من خلال الفهم العميق للمكان، روحه، طبقاته الجغرافية والارادة للمحافظة عليها. ورغم عمق الصدمة المكانية والاجتماعية، فإن الصور الدائمة هي تلك المتعلقة بالمرونة والديمومة وليس الصدمة نفسها. وجوانب التصميم المكاني والبيئي على ارض الواقع، يستخدم لابراز الصدمة وبلاغة المثابرة. من خلال التركيز على الروايات الانسانية، المكانية والبيئية الشاملة، والصور الرمزية التي يتم تخليدها في الوعي، تتجلى مكانة التصميم بوجوه متعددة من الدمج، التواصل، التعبير، التفاوض والاستجابة للقوى، وفي النهاية، دفع قوة الاستجابة للصدمة إلى لغة عالمية مشتركة للمرونة والديمومة والمقاومة.

- Arendt, H. (1998). The Human Condition. University of Chicago Press.
- Bleibleh, S. (2010). Everyday urbanism between public space and "forbidden space": The case of the old city of Nablus, Palestine. Spaces of History / Histories of Space: Emerging Approaches to the Study of the Built Environment. Berkeley: University of California.
- Bleibleh, S. (2012). Everyday life: Spatial oppression and resilience under the Israeli occupation: The case of the old town of Nablus, Palestine (Unpublished doctoral thesis). Seattle: University of Washington.
- Bleibleh, S. (2015). Walking through walls: The invisible war. Space and Culture, 18(2), 156-170. doi:10.1177/1206331213512919
- Eyles, J., & Williams, A. (2008). Sense of Place, Health and Quality of Life. Alder-shot: Ashgate.
- Relph, E. C. (1976). Place and placelessness. Research in planning and design, 1. London: Pion.
- Tuan, Y.-f. (1977). Space and place: The perspective of experience. Minneapolis: University of Minnesota Press.
- Misselwitz, P., & Weizman, E. (2003). Military operations as urban planning . In A. Franke, Territories: Islands, camps and other states of Utopia (pp. 272-285). Ber-lin: KW, Institute for Contemporary Art.
- Norberg-Schulz, C. (1980). Genius loci: Towards a phe-nomenology of architecture. New York: Rizzoli.
- Norberg-Schulz, C. (1988). Architecture: Meaning and place: selected essays. Ar-chitectural documents. New York, N.Y.: Rizzoli International Publications.
- Weizman, E. (2006). Walking through walls: Soldiers as architects in the Israeli-Palestinian conflict. Radical Philosophy, 136(1), 8-22.
- Weizman, E. (2007). Hollow land: Israel's Architecture of Occupation. London: Ver-so.

سياق "دمشق الكبرى" ومقتضيات العمران المعاصر

د. ناتاليا عطفة

أستاذ في جامعة دمشق، كلية الهندسة المعمارية - قسم التخطيط والبيئة

يمثل مفهوم "المدينة الكبرى" مطلباً مكانياً كونه يعكس تطور المدينة وينظم ديناميكيتها ويدخلها في سياق العولمة. ويشكل هذا المفهوم الذي طور بشكل خاص للعواصم العالمية، عملية منهجية ومرجعية تعكس حجم التبادلات والارتباطات بين المركز والأطراف وتتطلب اشتراطات مكانية متطورة. كما تشكل مبادئ وقضايا التنمية المستدامة الأدوات الرئيسية في صياغة النسج العمرانية وإعادة تشكيلها وربطها بالنسج التقليدية وفق المتطلبات المعاصرة في مجالات التخطيط والتنظيم العمراني. لذلك تتناول مختلف النهج والمقاربات الحديثة نماذجاً مدينية ترتكز على معطيات المدن التقليدية وتطور أحيائها باتجاه المقاربات البيئية والمدن الذكية والنقل الأخضر المستدام، وغيرها من التطبيقات المستدامة.

وإذا كانت المدن الكبرى توصف بالديناميكية العالية والامتدادات العمرانية المتجزأة أحياناً، فهي تُعرف بالتحولات العمرانية التي تحتاج إلى الفهم والتحليل العميقين. حيث تثير التحولات العمرانية التساؤلات حول إمكانيات تطبيق مفهوم المدينة المستدامة ورفع كفاءة الأداء الحضري الذي يشكل تحدياً حقيقياً بسبب التوسعات العمرانية في العقود الأخيرة، وخاصة في إنشاء الضواحي بمقاييس لم يسبق للمدن أن عرفتها. إضافة إلى التطور السريع للمناطق العشوائية التي تؤثر على الاقتصاد المديني والناتجة عن حركات الهجرات الداخلية التي تصيب المدن الكبرى.

ضمن هذا السياق، تعاني مدينة دمشق من مشاكل تطوير النسج العمرانية فيها نتيجة متطلبات الإسكان والبنية التحتية وازدحام المرور والضغط الهائل على الشبكات الحضرية والتلوث البيئي المتزايد، بالإضافة إلى الحاجة للتنمية ونمو الاستثمارات وما حمل ذلك من تحولات عمرانية وتراجع للبيئات الحضرية. فما هي المقتضيات الحديثة التي تؤثر على تطوير العمران فيها في إطار الاستدامة والمبادئ والمرجعيات المكانية المناسبة الواجب اتخاذها؟

كما تعرف إشكالية مدينة دمشق في صعوبة فهم علاقاتها المكانية وعدم تبني القراءة العمرانية الصحيحة لتحدياتها الكبيرة وخاصة في ظل الأزمة الحالية. فكيف يمكن الاستفادة من مرجعيات المدن الكبرى في تجديد مناطق دمشق وإعادة صياغة عمرانها؟ وبالتالي تطوير نسجها بما يتناسب مع مرحلة إعادة الاعمار والمراحل التنموية اللاحقة.

ويأتي هذا البحث في اطار مجموعة من الأبحاث السابقة وعديد من الأبحاث الحالية التي تجرى في مختبر دمشق "ميتروبول" والذي أسس في عام ٢٠١٩، بهدف تقديم أوراق بحثية لمحافظة دمشق والجهات المعنية الفنية والأكاديمية الوطنية حول التغييرات المكانية والمنعكسات على البيئة والهيكليات العمرانية والإقليمية والاستفادة من مزايا الإدارة الحضرية الذكية بناء على الاحتياجات البيئية والديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها.

الهدف

تهدف هذه الورقة البحثية إلى فهم ظاهرة المدن الكبرى وإظهار المسارات المنهجية التي تؤثر على سياق تطور النسج العمرانية فيها، بغية التوصل إلى تحديد الاعتبارات والاشتراطات المكانية المناسبة، إضافة إلى تطوير صيغ جديدة ترتبط بنوعية المنتج العمراني المستدام. وتعتبر مدينة دمشق كباقي المدن بحاجة إلى رصد تحولاتها العمرانية والنظر في المبادئ والمرجعيات التي تحكم صناعة نسجها المعاصرة وأهم الدروس المستفادة منها، وخاصة ضمن الظروف التي مرت بها من أضرار والحاجة إلى توجيه تعافيها وإعادة اعمارها. وذلك بالاستناد إلى الأسس النظرية والاستفادة من سياقات التجارب العالمية لتحقيق إعادة تنمية المناطق العمرانية وتطويرها وتحسين بيئتها ورفع نوعية الحياة فيها.

المقدمات النظرية

هناك صعوبة في تعريف المدينة الكبرى، ولعل ترجمة مصطلح "الميتروبول" والذي يعبر عن درجة الاستقطابية أو النفوذية، هو الأقرب إلى ذلك مع كل تحفظات هذا المصطلح من حيث المضمون وحجم الاستقطاب. من هذا المنطلق، لابد من توضيح مفهوم "الميتروبول" كونه بات موضوعاً مهماً له دراسات كثيرة معقدة لمدن عالمية كبيرة ومتنوعة. ولفهم سياق هذا المصطلح، يقوم أكاديميون بالتعبير عنه تحت مضمون "Métropolisation"، ويتناول التغييرات المعقدة التي تطرأ على المدن، كما يقوم بتحليل العلاقات على ما يطلق عليه بـ "تحضر أطراف المدن –"Périurbanisation"، للتوصل إلى بعض التعاريف الجديدة في هذا المجال، والتي لها الانعكاس الأكبر على الهيكلية العمرانية المستقبلية للمدن. ويستند هذا البحث على مجموعة من الدراسات الحديثة المنشورة في هذا المجال ولاسيما دراسات المرصد العمراني في فرنسا CERTU[١]، ومجموعة من الباحثين المهتمين [٩]، والتي تنوه بمجملها عن المفارقة بين الظاهرتين Métropolisation وPériurbanisation، حيث تعتبر ظاهرة Périurbanisation أو تحضر الأطراف، ظاهرة قديمة تتوافق مع مراحل متتابعة من الانتشار والتطور العمراني للمدن، في حين تظهر Métropolisation كظاهرة خاصة وحديثة نسبياً تستند على التواصل والعولمة، وترجع للربع الأخير من القرن الماضي. وهذا لا يعني عدم وجود هذا المصطلح تاريخياً، ولكنه تطور في القرن الماضي وأطلق على تسميات مدينية اختلفت مبرراتها حسب اختلاف الإشكاليات المكانية للدول. ففي أمريكا أطلق المصطلح على المدن وفق احصائيات التجمعات السكانية وحجم السكان، وفي إنكلترا استخدم للدلالة على مدينة لندن، وفي فرنسا قامت المدن الميترولوليتانية للموازنة المكانية مع إقليم العاصمة باريس. ولكن الظهور الجديد لمفهوم Métropolisation جاء ليدل على عملية انتقال المدينة إلى مفهوم المدينة ذات النفوذ أو المدينة الكبرى، ويعرفه المخططون الغربيون بأنه التطور المكاني للدول المتقدمة اقتصادياً ضمن إطار العولمة[٢]. كما يعتبرون بأنه شكل معاصر من عملية التمدن أو التحضر التي تسير عليها دول العالم وخاصة الغربية منها. وعلى ذلك فإن الميتروبوليتانة ليست بظاهرة بسيطة لتوسع المدن، فهي تعمل على إدخال مدناً وقرى تقع على مسافات أبعد في منظومة عمل المدن الكبرى، وبالتالي تخلق نسجاً وسياقات مدينية وريفية جديدة. وتقع هذه العملية في مجال التحولات العميقة التي تعتمد على الاقتصاد العالمي وديناميكية التحولات الاجتماعية. هذه التغييرات مجتمعة تخلق نموذجاً مكانياً ديناميكياً وجديداً من الاستعمالات والانتماء للأراضي، وتشكيل فضاءات مدينية ذات الكثافات العالية ولكنها أيضاً، متباعدة وغير متصلة بالضرورة ومتفاوتة التجانس ومتعددة الأقطاب.

وقد ارتبط هذا المفهوم بالتخطيط الإقليمي حيث تناولت الكثير من النظريات والأدبيات العالمية مفهوم التنمية الإقليمية وأقطابها منذ الخمسينيات من القرن الماضي (بيرو وبودفيل وآخرون)[٣]، لما كان للتنمية الاقتصادية من دور في تنمية البلدان وازدهارها وخاصة في المجال الصناعي. ثم اتسعت هذه النظريات لتدخل في موضع التطبيق ضمن المفهوم الجغرافي فظهرت مفاهيم الاستقطاب وآثارها الإقليمية. حيث تطورت المدن الكبرى ضمن هذا السياق لتشمل على تقسيمات مكانية واضحة تكونت في معظم الأحيان من قراءة واضحة للأراضي وشملت: **المدينة ومنطقة الضواحي Agglomération، الميتروبول Métropole وباقي مناطق الإقليم.**

وعلى الرغم من الخلفية النظرية المعقدة والتطبيقات العالمية في التأكيد التجريبي المكاني، فإن الإغراء في نظرية الاستقطاب ومراكز النمو أدى إلى استمراريتها وتبني السياسات التي تنقل التنمية الاجتماعية والاقتصادية إلى مناطق حول مراكز النمو. (ولعل من أشهر هذه التطبيقات كانت سياسة المدن الجديدة التي ظهرت حول المدن الأم في الكثير الدول والدور الذي لعبته في استقطاب التنمية للتخفيف عن المدن الأم الكثير من المنعكسات السلبية الناتجة عن النمو والتطور وذلك ضمن تنمية إقليمية متكاملة في الوقت والمكان)[٤].

وحديثاً أتت سياقات التطور والتوجهات الجديدة التي تطلقها الشبكات العالمية والهيئات لربط المدن الميتروبوليتانية ببعضها لتبلور أساسيات وضع المبادرات والخطط المناسبة لها، كاستراتيجيات الحد من الاحتباس الحراري التي تعتمد نماذجاً عمرانية "موديل" أكثر استدامة وأكثر خضراء. كذلك لعبت المدن

شكل ١، السياق العمراني لمدينة دمشق

تتلخص المسألة إذاً، في البحث عن التوازن التنموي المكاني المطلوب، بهدف صقل الاعتبارات التي تدخل في التنمية في مراكز نمو محددة، أفضل من أن تتناثر باحثة عن التوازن الإقليمي في ديناميكيتها، ولكن أيضاً في توجيه التعريف التطبيقي للسياقات العمرانية وصناعة المدن الكبرى بالشكل المعاصر والمستدام.

دمشق مدينة كبرى والسياق العمراني الجديد

"الميتروبوليتانية" دوراً حاسماً في اتفاقية باريس ٢٠١٥ حول الإجراءات الاحترازية والتخفيض من الاحتباس الحراري إلى أقل من درجتين مئويتين لعام ٢١٠٠. وشاركت في تحديد البرامج "المدن الجديدة" تحضيراً لمؤتمر Habitat III وأهداف التنمية المستدامة للألفية الثالثة التي أطلقتها المنظمات الدولية في عام ٢٠١٦[٥]، بما فيها الهدف ١١ الذي ينادي بتحويل المدن إلى مؤسسات إنسانية منفتحة ومفتوحة للجميع وأمنة وصامدة ومستدامة.

تناولت مجموعة من الدراسات قضية دمشق ومحيطها وكيفية الترابط الصحيح لأراضيها الواقعة بين محافظتي دمشق وريف دمشق[٦]. واستناداً إلى دراسة التخطيط الإقليمي لريف دمشق عام ٢٠١١[٧]، فقد تبين أن هناك مجموعة من القضايا انطلقت من الواقع المكاني لمحافظتي دمشق وريف دمشق وتحدياته وتطلبت وضع الاستراتيجيات المناسبة لمعالجتها من: تراجع للمنظومة البيئية والتباين الاجتماعي والتركز السكاني، وتأخر التنمية الاقتصادية ارتباطاً بضعف في منظومة النقل العام، والزيادة في التطور والتوسع العمراني المنظم والمخالف، إضافة إلى غياب الحوكمة في الإدارة الفاعلة للأراضي. واقترحت الدراسة الإقليمية السابقة التقسيم المكاني لدمشق الكبرى والمبين في الشكل ٣، حسب التسلسل المكاني التالي:

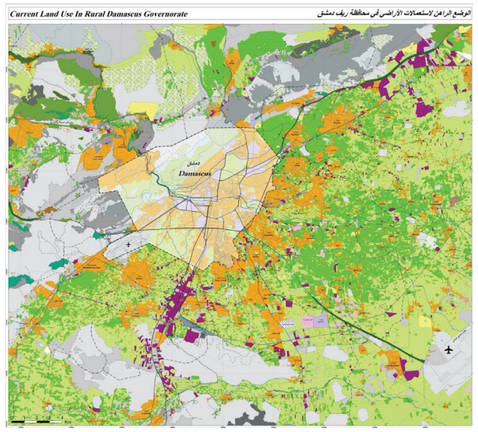

شكل ٢، الوضع الراهن: التداخل المكاني لمحافظتي دمشق وريف دمشق
المصدر: ناتاليا عطفة - الشركة العامة للدراسات والاستشارات الفنية – مديرية تخطيط المدن والضواحي – دمشق ٢٠١١

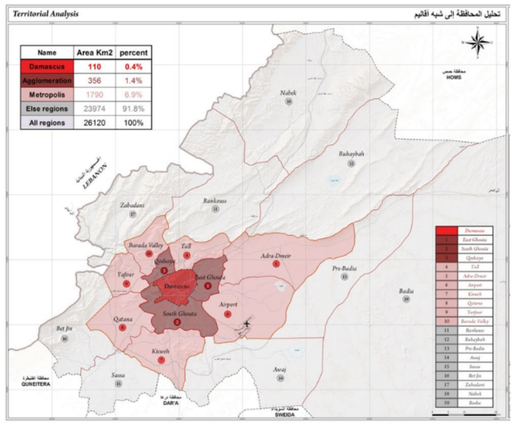

شكل ٣، التقسيم المكاني لمتروبول دمشق – دمشق الكبرى
المصدر: ناتاليا عطفة - الشركة العامة للدراسات والاستشارات الفنية – مديرية تخطيط المدن والضواحي – دمشق ٢٠١١

- **مدينة دمشق:** وتتمثل بمحافظة دمشق ضمن حدودها الإدارية الحالية.
- **منطقة الضواحي وهي منطقة التكتل العمراني Agglomeration:** وتتمثل بالنطاق المحيط بمدينة دمشق وتم تحديدها على أساس الامتدادات العمرانية والاتصالات الفيزيائية التي تشكل استمرارية للمكون العمراني بدءاً من الحدود الإدارية لدمشق. وتعتمد على المعيار العالمي الذي يحدد مسافة ٢٠٠م من استمرارية عمرانية محيطية دون وجود أي محدد يفصل العمران عن جواره. وضمت هذه المنطقة دوما من الشرق وصولاً إلى السبينة جنوباً وضاحية قدسيا في الشمال الغربي. ويضم هذا التجمع المكاني حوالي ٣ ملايين نسمة (بما فيها دمشق).
- **منطقة النفوذ الميتروبولية لدمشق Metropole:** وتتضمن المساحات الواقعة خارج منطقة الامتداد العمراني الفيزيائي أو الضواحي، ولكنها تقع ضمن النفوذ المباشر لمدينة دمشق وديناميكيتها. واعتمدت في تحديدها بشكل رئيسي على مدى الاتصال بدمشق والهجرة اليومية إليها وفرص العمل فيها. تشكل هذه المنظومة التراتبية واقعاً مكانياً متجانساً يسمى ميتروبول دمشق ويحتوي على ٤ ملايين نسمة. وتمتد إلى الضمير شرقاً والكسوة جنوباً وقطنا في الجنوب الغربي والديماس في الشمال الغربي، وصولاً إلى التل في الشمال.

إن التسلسل السابق (المدينة والتكتل العمراني والميتروبول ضمن مجاله العمراني)، يشكل ورقة علمية ومنهجية ومرجعية يمكن الاعتماد عليها لإجراء الدراسات اللازمة للحلول المكانية، كما يمكن الاستفادة منها في وضع التصورات لإدارة الأراضي بين المحافظتين وتعزيز المقارنات العالمية لاتجاهات التطوير والدخول في التنافسية مع المدن الميتوبوليتانية العالمية. حيث يمكن مقارنته مع المدن الميتروبولية الكبرى في منطقة الشرق الأوسط والمتوسطية التي توازي حجم ميتروبول دمشق مثل الجزائر وأثينا وأنقرة والاسكندرية.

ولكنها تظل أقل من المدن الميتروبولية الكبرى وهي القاهرة واستنبول، وكل من بغداد والرياض. إضافة إلى مدن ميتروبوليتانية ثانوية أخرى من الممكن أن تشكل منافسة بسبب قوة الجذب والاستثمارات فيها مثل بيروت وعمان.

وبالنظر إلى التحديات الجديدة ومنعكسات الأزمة الحالية والضرر الذي لحق بمساحات واسعة بالأراضي الواقعة ضمن الإطار المكاني لدمشق ومحيطها، يظهر التسلسل المكاني أهميته في رصد هذا الأضرار والتي تركزت بشكل رئيسي في محيط التكتل العمراني. ويظهر الشكل ٢ هذه الأضرار التي بلغت حوالي ٢٠٪ من مجمل المساحة المبنية وتستدعي تبني التوجهات المناسبة للتعافي وإعادة الإعمار، ويمكن رصدها بالاستفادة من التسلسل المكاني على:

- مستوى التجمعات العمرانية نفسها؛ (بلغت نسبة الأضرار في النسيج العمراني لمدينة داريا حوالي ٦٠٪ من المساحة العمرانية للمدينة).
- بين مناطق التقسيم، المدينة والتكتل العمراني والمجال العمراني أو الميتروبول؛ (حيث سجلت نسبة الأضرار ١٧٪ ضمن حدود دمشق المركزية، وحوالي ٥٠٪ ضمن منطقة التكتل العمراني).
- بين القطاعات الاختصاصية (مثل النقل والزراعة والمياه...) وذلك ضمن الاستمرارية المكانية الكاملة لدمشق الكبرى.

أما ضروريات هذه المنهجية المكانية المطورة حالياً، فتظهر بالترابطات المهمة والأساسية التي تستدعي التنسيق الكامل بين الجهات المعنية في المراحل القادمة وربطه بالمستويات التخطيطية لضمان التوصل إلى الحلول الملائمة لمشكلات الوضع الراهن، إضافة إلى التوجهات العمرانية والإقليمية المستقبلية الصحيحة.

وعلى الرغم من جميع التحديات المطروحة وبهدف تحقيق التصور المعمق لميتروبول دمشق بالعلاقات والتبادلات الديناميكية المنشودة، يمكن إسقاط مجموعة الاشتراطات المكانية والعمرانية، على التسلسل المكاني المقترح لدمشق الكبرى والذي تم إظهار أهميته سابقاً.

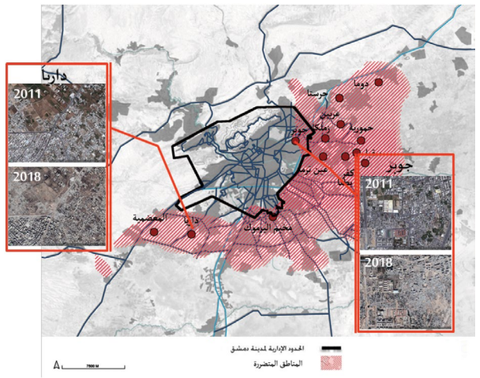

شكل ٤، تركز الأضرار في محيط التكتل العمراني لدمشق الكبرى
المصدر: ناتاليا عطفة - بالاعتماد على الصور الفضائية عالية الدقة من المصادر المفتوحة ٢٠١٨.

شكل ٥، التنوع العمراني لمدينة دمشق ومحيطها

الاشتراطات المكانية والعمرانية المقترحة

إذا كانت الميتروبوليتانية هي عملية تحول ينتج عنها إيجاد أقطاب نمو وشبكات جديدة، فإنها لا تعطي لكل مكان عمراني نفس التكوين ولا الخصائص وإن تفاعلت مع كل المجالات القطاعية فيه. فبالنسبة إلى الاقتصادي سيعتمد على تكثيف التقاطعات والتبادلات استناداً على درجة العولمة الاقتصادية المكانية. والاجتماعي سيهتم بالآليات المجتمعية وديناميكية التشاركية وسيخلق الشبكات اللازمة لتنظيم اجتماعي متطور. في حين سيتناول المخطط المنظار من جانب مكاني والتحركات الاجتماعية الاقتصادية بالاعتماد على المورفولوجية والنسج العمرانية وعلاقات الاستقلالية المكانية.

ويبرز السؤال حول أساليب التعامل الملائم لاختيار الاشتراطات المناسبة وإجراءات تنفيذها، وخاصة في ظل ضعف قدرة المدينة على تجاوز الأزمة والنمو بطرق منيعة. إضافة إلى فشل التخطيط الفيزيائي الذي اعتمد على أسس التخطيط فقط، الأمر الذي لا يحقق الاستدامة فيها. وبما أن دمشق تقع ضمن نماذج مدن "الميتروبوليتانية" والمدن الكبرى، لذلك ستتطلب في ظل تحولاتها العمرانية ولاسيما على مستوى الأحياء، التفكير بالمبادئ الخاصة للتصدي لأهم اشكالياتها من خلال الاعتماد على بعض المنصات المرجعية الأساسية لمستقبلها، والتي تم استخلاصها بالاستناد إلى عمل ميثاق دمشق ميتروبول[٨] وتجارب المدن الميتروبوليتانية العالمية، وتمثلت بأهم الاشتراطات التالية:

- **الانتقال من العمران الصاخب إلى الهادئ:** وهذا يقتضي تحقيق النوعية المطلوبة لوسائل النقل الجماعي والمرور وتأمين الاتصال مع الأطراف وكافة المناطق العمرانية التي تخدمها.
- **تبني حلول العمارة الخضراء ولاسيما في المناطق الهشة بيئياً أو المتضررة:** ويتم عن طريق اعتماد السياسات والتطبيقات العمرانية المرتبطة بالتطور التكنولوجي ومعايير الاستدامة وخاصة في المحيط بمراكزه العمرانية الثانوية والمناطق المتضررة والعشوائية.
- **الاعتماد على التغييرات العمرانية الجذرية لبعض المناطق:** ويسعى لتلبية الاحتياجات الحضرية والتنموية وإعادة توزيعها مع توظيف وحماية المناظر الطبيعية والتأكيد على الجذب السياحي للمواقع المميزة.
- **التخطيط البيئي والأحياء البيئية:** اتباع سياسة الحماية والحفاظ على الغوطة للحد من الامتدادات العمرانية ونقلها إلى المحيط الأكبر، مع رفع لكفاءة نوعية الإنتاج الزراعي وتنوعه فيها، وتطوير مبدأ الزراعة الحضرية كأولوية اقتصادية وهوية مكانية مميزة.
- **تفعيل العمران ذو البعد الاجتماعي:** معالجة التفاوت الاجتماعي والارتقاء بالنسج السكنية المتدهورة والمتضررة مع التأكيد على ضرورة تأمين الخدمات اللازمة، والسرعة في تنفيذ المخططات التنظيمية المصدقة بالصيغ المناسبة مع تعزيز لأنظمة القروض والضرائب لتأمين السكن المدعوم والاجتماعي.
- **الأخذ بمبدأ التميز والتسويق المديني City Marketing:** وتتمثل بإقرار مشاريع مميزة في أماكن محددة ومحدودة لضمان تأمين الاستثمار اللازم للمدينة مما يضمن الحوكمة الصحيحة لإدارة أراضيها والحفاظ على المكونات الطبيعية فيها.
- **تعزيز الثقافة في أحياء المدينة:** التأكيد على نوعية وتنوع النماذج العمرانية والفراغات العامة وعلاقة مركز دمشق بالضواحي وبلداته القديمة والغوطة. حماية النسج التقليدية والتاريخية وإدخال البعد الابتكاري لتعزيز الهوية المكانية والثقافية، إضافة إلى تطوير البنية التحتية الثقافية وضمها لشبكة الفراغات العامة التي من الممكن أن تقوم بدور المعزز عن طريق برامج الأنشطة الاجتماعية والثقافية الاضافية.
- **جذب الفعاليات الرياضية:** من خلال دعم الأنشطة الرياضية المتنوعة وخلق المنافسات الرياضية في المنشآت التابعة لها ولكن أيضاً في المناطق المدينية المفتوحة والمحيط.
- - العمل على تحقيق البعد الانساني: وهو هدف جميع الاشتراطات في المكونات العمرانية كافة، التي يجب أن تهتم بالإدراك الحسي والمعنوي للبعد الانساني.

النتائج والتوصيات

تميزت الأدبيات المتعلقة بمفهوم الميتروبول التحدث عن المدن الكبرى بامتداداتها العمرانية والتوجيه لجعلها أكثر فاعلية وتحضر. فبدا الأمر ملحاً في تشخيص وتحديد نفوذها الفعلي. وأظهرت النتائج تعقد هذا المفهوم حالياً ليشمل متطلبات العولمة والتبادلات والتشابكات التي تنتجها، لتصبح مدن الميتروبول نماذجاً لأقطاب معقدة في صنع القرار على المستوى الوطني وأحياناً الدولي والعالمي. وبقيت تتمايز في تجديد الحقيقة العمرانية داخلها وفق مجموعة من الاشتراطات المكانية المعاصرة والمستدامة.

ولم تتبعد مدينة دمشق عن هذا السياق وخصوصاً بعد المتغيرات المكانية الكبيرة التي أصابت هياكلها المكانية، فقد تم مراجعة العيد من الدراسات السابقة التي تناولت التقسيم المكاني لها ضمن نطاقات النفوذ الميتروبوليتانية، ليخرج البحث في هذه المرحلة، إلى حزمة من التوجهات تتطلب التطوير والدراسات اللاحقة لتكون قادرة على رسم ملامح السياقات العمرانية المستقبلية والصياغات المكانية لميتروبول دمشق ولاسيما في الفترة القادمة من إعادة الاعمار.

وعلى نفس السياق وبهدف موائمة النتائج مع منعكسات الأزمة، سيهتم البحث لاحقاً بتبني مؤشرات المبادئ المكانية المستدامة والربط بالهدف /١١/ من أهداف التنمية المستدامة للألفية الثالثة في أجندة /٢٠٣٠/، لضمان التوصل إلى الحلول المناسبة للتحديات العالمية الحالية وتوجهات صياغة دمشق الكبرى المستقبلية والصحيحة.

- CERTU, Centre d'Etudes sur les réseaux, le transport, l'urbanisme et les constructions publiques.
- مركز الدراسات لشبكات النقل وتخطيط المدن والمنشآت العامة
- Europa XXI, European Urban System: Metropolization and Networking, Institute of Geography and Spatial organization, Warszawa, 2009.
- Boudeville, J.R., Problems of Regional Economic Planning, Edinburg University Press, 1966.
- Atfeh N., La centralité dans les villes nouvelles, DEA en Urbanisme et Aménagement, Université de Paris XII, 1994.
- United Nations Human Settlements Programme (UN-Habitat), Sustainable Urbanization in the Paris Agreement Comparative review for urban content in the Nationally Determined Contributions (NDCs), Nairobi, October 2017.
- مجموعة من الدراسات التخطيطية ومنها المصور العام لمدينة دمشق ومحيطها الحيوي، خطيب وعلمي، 2012.
- عطفة ناتاليا، القراءة المكانية للأراضي في تجربة التخطيط الإقليمي في ريف دمشق، مجلة جامعة البعث، 2012.
- Puca, BURGEL Guy, FERRAND Nicolas, Un demi-siècle d'urbanisation dans la région lyonnaise 1962-2010, œuvre de collaboration, Auvergne Rhône-Alpes, 2017.

مدينة الخليل وتطورها عبر التاريخ

د. رباب صلاح الشويكي | دكتوراة في الترميم والحفاظ، فلسطين

تضم فلسطين العديد من المدن التاريخية والتي نشأت وتطورت عبر العصور والحضارات المختلفة التي مرت على أرضها، وتعود هذه الحضارات إلى عصور ما قبل التاريخ؛ حيث تتواجد بها أول مدينة في العالم، بالإضافة إلى أنها أرض الديانات السماوية والتي اكسبتها أهمية دينية مع أهميتها الاستراتيجية بسبب موقعها الجغرافي ووقوعها على خطوط التجارة العالمية قديما. هذه العناصر جعلت من فلسطين بيئة خصبة لنشوء المدن- خصوصا في العصور الإسلامية والتي اهتمت بتطوير المدن القديمة وإنشاء مدن جديدة حملت طابعا معماريا مميزا.

مدينة الخليل أو مدينة خليل الرحمن والتي تنسب إلى خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام- كانت من ضمن المدن التي لاقت اهتماما بالغا من قِبل حكام المنطقة نظرا لأهميتها الدينية والتي تعود إلى وجود قبور الأنبياء "ابراهيم واسحاق ويعقوب" عليهم السلام فيها، حيث تم بناء الحرم الابراهيمي على المغارة التي دفنوا فيها ليصبح الحرم مزارا ومقصدا دينيا عبر العصور.

تعاقبت الحضارات على المدينة؛ فقد كانت عبارة عن مدينة مزدهرة في الفترة الكنعانية في منطقة تل الرميدة، هاجر إليها إبراهيم عليه السلام واستقر فيها إلى أن مات ودفن هو وابناؤه وزوجاتهم على أرضها. حكمها الأشوريون والبابليون والفرس إلى أن أصبحت تحت حكم الرومان؛ حيث تم إنشاء مدينة وسوق تجاري في منطقة الرامة، أما بعد انتشار الديانة المسيحية، فقد تم بناء سور حول قبور الأنبياء ليكون فيما بعد كنيسة للحج المسيحي لتقديس تلك القبور ومن ثم لبنة المدينة الحديثة.

مرّت المدينة بالعديد من الحروب والكوارث الطبيعية التي هدمتها عدة مرات ليعاد بناءها في كل مرة من قِبل القوة الحاكمة في ذلك الوقت لتتكون مدينة جديدة. وقد قامت الحضارات القديمة في المدينة على عدة بقع جغرافية، فقد نشأت المدينة الكنعانية في أماكن تختلف عن أماكن المدينة الرومانية، ولم يكن مركز المدينة الحالي ذات أهمية إلا بعد أن أصبح مدفنا للأنبياء، حيث بدأت المباني السكنية والأسواق التجارية تنتشر في تلك البقعة مشكلة نواة المدينة الحالية والتي تتميز بطابعها المعماري الإسلامي الباقي لغاية الآن.

هذا الطابع الذي بدأت معالمه تتشكل منذ الفتح الإسلامي لفلسطين؛ حيث كانت المدينة تُولى أهمية كبرى من قِبل الخلفاء المسلمين بسبب مكانتها الدينية؛ حيث تعتبر ثاني أهم مدينة بعد القدس ورابع مدينة مقدسة في الإسلام، ولقد كان هناك عناية خاصة بالحرم الإبراهيمي من حيث الاعمار والإضافات والترميمات، لهذا فقد كان الحرم نواة المدينة الذي التفت المباني من حوله لتشكل "البلدة القديمة"؛ حيث تشكّلت الحارات وارتبطت بطرق وأسواق تجارية عملت على ازدهار التجارة والحرف اليدوية، بالإضافة إلى زيادة أهمية المدينة دينيا وتاريخيا.

زارها العديد من الرحالة في العصور الصليبية والعصور الإسلامية، كل منهم قام بتدوين ما رأه في تلك المدينة لتكون هذه التدوينات بمثابة تأريخ وتوثيق للمدينة وتطورها، بالإضافة إلى وجود العديد من الصور القديمة والتي تم تصويرها في عدة فترات مختلفة ساهم أيضا في التوثيق. هذه الصور والتدوينات ستكون المصدر الرئيس لهذا البحث وذلك من خلال مقارنتها بالصور الحديثة لدراسة هذا التطور من عصور ما قبل التاريخ إلى وقتنا الحاضر مع التركيز على تطور البلدة القديمة والتغييرات التي طرأت على الحرم الابراهيمي- المبنى الرئيسي في المدينة.

تقع مدينة الخليل في جنوب فلسطين على بعد ٣٦ كم من مدينة القدس، وقد أكسبها هذا الموقع أهمية كبيرة عبر العصور القديمة؛ فقد كانت طريقا مهما للتجارة في تلك المنطقة؛ حيث تربط الشام مع مصر وشرق الأردن، كما كانت مركزا تجاريا مهما للصحراء والقرى والمدن المجاورة لها، ومما زاد من أهميتها الإستراتيجية بالإضافة للتاريخية والدينية، كونها من ضمن المثلث المقدس في فلسطين (القدس وبيت لحم والخليل).

كما أن جبال الخليل تعمل كحلقة وصل طبيعية ما بين القدس والنقب ونهاية الجنوب، وهي الطرق الأساسية للتجارة في فلسطين، والطريق الروماني القديم الذي يتقاطع مع وادي الأردن والذي يصل إلى دمشق ويكمّل الطريق إلى الأناضول، بالإضافة إلى طرق التجارة العربية للأردن؛ حيث يصل إلى دمشق والأردن وبيسان وعكا ومن ثم إلى الميناء الرئيس للرومان والصليبيين.

وقد سُميت المدينة بعدة أسماء اختلفت حسب الحضارات المتعاقبة فيها، ولكنها اتفقت بالرجوع إلى صاحب الاسم سيدنا إبراهيم عليه السلام والذي يسمى بأبي الأنبياء وخليل الله. أما أول اسم عرف للخليل فكان "قرية" أو "قريات أربع" نسبة إلى الأربع تلال، أو نسبة إلى "أربع" الذي يعتبر أعظم رجل في قومه الكنعانيين؛ حيث أقام المباني وأسس المدينة (مدينة أربع) والتي دعيت بقرية أربع.

ومن ثم سُميت "حِبرون" أو "حِبرى" من الجذر "حبر" والذي يعني "الصديق" أو "الخليل" نسبة إلى "إبراهيم" عليه السلام والذي يُدعى "الخليل" حيث سكن هناك واشترى "مغارة المكفيلة"/ "حرم الخليل"، ومن ثم أصبح يطلق عليها اسم "خليل الرحمن" أو "مدينة الخليل".

شكل ١: الأماكن الرئيسية في مدينة الخليل وطرق التجارة التي كانت تمر منها في العصور القديمة، (الشويكي: ٢٠٢١).

ممرا والحرم الإبراهيمي وتل الرميدة، (Michael Edward Edgerton ١٩٠٦).

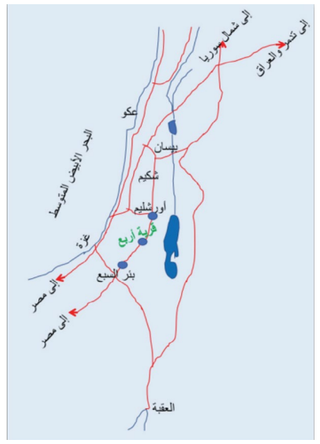

طرق التجارة في الفترة الكنعانية، (الشويكي عن الدباغ ص: ٤٧٤\ج١)

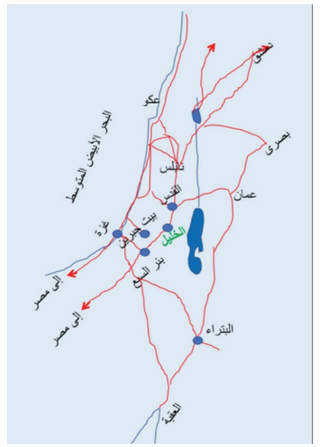

طرق التجارة في العصر الروماني، (الشويكي عن الدباغ ص: ٦٨٠\ج١)

فترة ما قبل الميلاد

تُعد مدينة الخليل من أقدم مدن فلسطين ومن أقدم مدن العالم؛ حيث يعود تاريخ المدينة إلى أكثر من ٣٥٠٠ سنة، وقد وُجد فيها آثارا من العصر البرونزي ٣١٠٠-٢٩٠٠ ق.م. ومن العصر الحديدي ١٢٠٠-٥٨٧ ق.م.

كانت المدينة تقع على التل الشمالي "تل الرميدة" -غرب البلدة القديمة الحالية، وقد كان مأهولا بالسكان ومغطىً بأشجار الزيتون ويحوي بقايا جدرانا فخمة وغرفا معقودة وجدار وبناء مستطيل وعقودا مهدمة وقبرا مبني بالحجارة؛ حيث سكن الكنعانيون التل ما بين ١٥٣٠-١٧٢٠ ق.م. بشكل كثيف في العصر البرونزي القديم، ومن ثم زحفت مدينة الخليل من التل نحو مغارة المكيفلة / البلدة القديمة.

كانت فلسطين في هذه الفترة بلدا مزدهرا؛ حيث أسسوا المدن والحكومات المحلية المستقلة وبنوا المعابد الضخمة والقصور الفخمة، وبلغوا درجة كبيرة من الرقي في الزراعة والصناعة والتجارة.

وقد كانت تجارة مصر مع فلسطين وسوريا يجري معظمها عن طريق البحر، وبينها وبين مصر بالقوافل عن طريق الصحراء، وتعتبر الطريق التي تربط بلاد الشام بمصر وغيرها أول طريق تجارية دولية سلكها الإنسان في التاريخ، كما وُجدت طريق تربط مصر بفلسطين مارة بشمال سيناء حتى تصل إلى بئر السبع ومن ثم إلى الخليل والقدس ونابلس ومرج بني عامر حيث تلتقي مع الطريق الأول، شكل"١".

ومن أشهر الطرق الكنعانية في فلسطين؛ الطريق الداخلية التي تقع وسط البلاد من شمالها إلى جنوبها، تبدأ من بيسان والتي تتصل بعجلون أو دمشق ومنها إلى مرج بني عامر، ومن ثم إلى جنين ونابلس والقدس وبيت لحم والخليل وبئر السبع فالصحراء ومن ثم إلى مصر، ولم تكن الطرق الداخلية في فلسطين معبدة بالحجارة أو بغيرها بل كانت ممهدة بسبب سير الناس والحيوانات عليها.

وقد سيطر الكنعانيون على الطرق التجارية بين غزة والعقبة، حيث كانت تأتي السفن التجارية من الهند وأسيا والخليج العربي إلى موانئ الجزيرة العربية ومن ثم إلى جنوب فلسطين إلى أن تستقر أخيرا في موانئ غزة. ولا يستبعد أن تكون الطرق والتي أنشئت في العهد الروماني سارت على هذه الطرق والتي أنشأها الكنعانيين في الألف الثالث والثاني ق.م.

وفي هذه الفترة لم تتكون ممالك أو امبراطوريات في فلسطين بسبب قلة مصادر المياه فيها، لذا فقد ظل شكل الحكم فيها على نمط ممالك المدن التي تكون فيها المملكة مؤلفة من مدينة تقطنها قبيلة أو مجموعة من القبائل وأجزاء منها تحيط بها قرى ومضارب بدوية وأراضٍ تابعة لها يرأسها أبرز شيوخها ملكا عليها، وقد كانت المدن ذات أسوار عالية فيها مساكن متينة.

وكانت البيوت تُبنى من الحجر المتوافر محليا، وكان البيت عادة يتألف من طابق واحد والغرف صغيرة والمباني متلاصقة والشوارع ضيقة متعرجة، وقد أدى التطور في البناء إلى زيادة عدد المساكن التي تتألف من طابقين؛ العلوية للسكن والسفلية للخزن والحيوان، وكانت الأسطح حجرية أحيانا وطينية أحيانا أخرى، وكانت عبارة عن عوارض خشبية وأغصان من الشجر يوضع فوقها الطين.

وفي القرن التاسع عشر قبل الميلاد؛ هاجر سيدنا إبراهيم من بلدة أور العراقية مع زوجته سارة إلى مدينة حاران شمال شرق دمشق، ومن ثم إلى فلسطين "أرض كنعان"؛ حيث نزل في مدينة شكيم (نابلس) في فلسطين واستقر في بئر السبع وتنقل بينها وبين غزة والخليل، ومن ثم سكن بمدينة الخليل وهي عامرة باهلها الكنعانيين العرب.

وقد أقام عليه السلام في منطقة "ممرا" أو "نمرا" -شمال مدينة الخليل والتي تقع على بُعد ٢,٥ كم شمال غرب الحرم الإبراهيمي، وعلى بُعد ٤٠٠ م للشرق من طريق القدس- الخليل. ومنطقة ممرا هي بلدة "تربينتس" والتي تعرف اليوم باسم الرامة أو حرم رامة الخليل، كما أطلق عليها اسم "المرطوم"، وتحوي مبنى مستطيلا مبني من الحجارة فيه بقايا كنيسة وعين ماء وكروم، وقد كان ذلك زمن الملك الكنعاني "ملكي صادق" والذي التقى بإبراهيم عند مجيئه إلى فلسطين.

ولما توفيت سارة دفنها سيدنا إبراهيم في مغارة "مكيفلة: المغارة المزدوجة" والتي اشتراها هي وحقلها من "عفرون بن صوحر"، وقد كانت هذه المغارة في الصحراء ولم يكن يحيط بها أي بناء، ولما توفي إبراهيم غليه السلام ومن بعده ولده اسحاق وزوجته رفقة دفنوا في المغارة، كما دفن فيها بعد ذلك يعقوب وزوجته ليقة، شكل "١".

عصر الفراعنة

ثم تعاقبت على فلسطين عدة حضارات منها حكم الفراعنة؛ حيث وقعت فلسطين وسوريا ومصر تحت حكم الهكسوس في سنة ١٦٧٥ق.م. ومن ثم تحت حكم فرعون مصر "امنحتب الثالث" سنة ١٤١٣ق.م.، ثم خضعت لحكم "اخناتون" في سنة ١٣٧٥ق.م. ثم "توت عنخ امون" سنة ١٣٥١ق. م، ومن ثم "سيتي الأول" ١٣١٤ق.م.

كما كانت فلسطين مقاطعة مصرية تحت سلطة "تحوتمس الثالث" سنة ٤٦٨ ق.م.، ومن ثم تحت عصر البطالمة ضمن حكم "بطليموس الأول" ٣٢٣-٢٨٤ ق.م.، ومن ثم "بطليموس الثالث" ٢٣٧ ق.م. و"بطليموس الخامس" ١٩٧ق.م.، وكان ولاتها تابعين لسلطة الفراعنة.

العصر الروماني (٦٣ ق.م -٣٢٤م)

في سنة ٣٧ ق.م. دخل القائد "أنطوني" القدس وعين "هيرودس الأول" والمدعو "الكبير" - ملكا عليها، وقد عمل وكيلا للروم في ديار فلسطين وحكمها لمدة ٣٣ عاما من سنة ٣٧ ق.م- ٤م، والمُرجح أن السور الضخم الذي يحيط بالحرم الابراهيمي هو بقايا بناء أقامه هيرودس الأدومي حول المغارة.

وفي سنة ٦م، أصبحت فلسطين مقاطعة رومانية كجزء من ولاية سوريه، وأصبحت الخليل "جبرون" في العهد الروماني قرية تحمل اسم "تشيبرون"، وفي سنة ٧٠م دُمرت المدينة على يد الرومان وأحرقت تحت قيادة الإمبراطور الروماني "فسياسيان".

أما في عهد الإمبراطور "نيرون" (٥٤-٦٨ م)؛ فقد كان الطريق الرئيس في فلسطين منذ أقدم العصور هو طريق البحر الساحلي الذي تتفرع منه شبكة من الطرق تصل إلى المدن الداخلية -ومن هذه الطرق -الطريق الواصل من العقبة وغزة إلى الخليل (حبرون) ومن ثم إلى القدس.

وفي عهد الإمبراطور "هدريان" (١١٧-١٣٨م) اتسعت المدينة وبُني فيها معبدا وثكنة عسكرية، وفي عهد "سبتيموس سفيروس" (١٩٣-٢١١م)؛ أقيمت الكثير من المدن في فلسطين من ضمنها "بيت جبرين" (إليوتيروبولس)، وفي سنة ١٣٥م أصبحت المدينة سوقا تجاريا.

وقد شهدت البلاد ازدهارا اقتصاديا في هذه الفترة فتوسع فيها الاستيطان، كما أعيد بناء عدد من المدن وانتشرت القرى الزراعية فيها، وازدهرت الصناعة والتجارة بسبب سهولة النقل وكثرة الطرق والجسور التي أنشأها الرومان وبسبب حالة السلم والاستقرار لمدة قرنين من الزمن؛ ومن أهم هذه الطرق: الطريق الجبلية التي تبدأ من دمشق إلى بيسان ثم الى جنين، نابلس، البيرة، القدس، الخليل، بئر السبع ومن ثم إلى سيناء فمصر. وقد كان "هدريان" من أكثر الأباطرة اهتماما ببناء الطرق في فلسطين والتي كان من أهمها: طريق القدس- الخليل- بيت جبيرين، وطريق شرق الاردن- أريحا- القدس- بيت جبرين- الساحل، شكل "١".

وفي عصر "ديوقليتان" (٢٨٤-٣٠٥ م) قسّمت الولايات الى ألوية، وقسّمت فلسطين إلى لواءين في عهده ومن بعده قسمت إلى ثلاثة ألوية (فلسطين الأولى والثانية والثالثة)؛ وقد كانت مدينة الخليل من ضمن فلسطين الأولى.

وقد قسّمت الألوية إلى أقضية في مركز كل منها مدينة، وكانت الإدارة تضبط مدنيا وكنسيا كما زاد عدد السكان منذ القرن الثالث الميلادي، إذ أصبحت البلاد كلها مقسّمة إلى وحدات مدنية تتمتع بحكم ذاتي. والراجح أن هذا التقسيم حوفظ عليه إلى نهاية العهد البيزنطي في سوريا وفلسطين، ولم يتغير بصورة جذرية إلا عند الاحتلال الفارسي في بداية القرن السابع عشر الميلادي.

العصر البيزنطي (٣٢٤م -٦١٤م)

في سنة ٣١٢م اعتنق الإمبراطور "قسطنطين" المسيحية، وفي سنة ٣٢٤م تم الانتقال من الحكم الروماني إلى الحكم البيزنطي، وفي سنة ٣٢٥م بنى "قسطنطين الكبير" كنيسة في مدينة الخليل في منطقة رامة الخليل (ما زالت بقاياها موجودة للآن).

وقد أقام "قسطنطين الأول" (٣٠٦-٣٣٢م) قواعد الإمبراطورية البيزنطية في فلسطين حسب قواعد الديانة المسيحية، وفي سنة ٣٢٦م زارت أمه "هيلانة" فلسطين وقامت بنهضة عمرانية دينية سنة ٣٣٠م وأمرت ببناء عدة كنائس في فلسطين وذلك في أيام حكم الإمبراطور "يوستنيانوس" ٥٢٧-٥٦٥م، من ضمنها كنيسة أقيمت على مقبرة سيدنا إبراهيم وعائلته، وكان ذلك زمن بدء رحلات الحج المسيحي إلى الكنائس في فلسطين.

ويقال: "أنه بعد ذلك كان بالرامة رجل أدرك زمن عيسى عليه السلام وآمن به فبنى بالقرب من السور (المغارة) بيوتا للسكن تبركا بقبور الأنبياء، وهو أول من اختط البناء حول السور" ثم تتابع البناء رويدا رويدا فصارت هناك مدينة تحيط بالسور من الجهات الأربع.

أي أن أقدم حضارة في ذلك العهد كانت في حوالي سنة ٤٠٠م، حيث كانت الخليل في ذلك العهد تتألف من قطاع صغير يضم المواقع الآتية:

١. **<u>حبرون:</u>** وقد كانت بلدة متواضعة وفيها قلعة وحرم بيت إبراهيم - أي منطقة الحرم الإبراهيمي وما كان يحيطه من مبانٍ سكنية.
٢. **<u>ترينتس:</u>** رامة الخليل، وهي المكان الذي سكن فيه إبراهيم عند هجرته إلى الخليل. وقد أصبحت "تربينتس" \ "رامة الخليل" مركزا وسوقا تجاريا هاما لمصر وفلسطين وسوريا، بعد ان دمّر "سيريالس" أحد قواد الإمبراطور "ڤاسبسيانوس" الروماني الخليل؛ حيث كانت تسمى "Terebinth of Mamre"، وقد وجد فيها أساسا لبازيليكا من زمن قسطنطين من القرن الرابع وتنسب إلى أم قسطنطين حيث جعلت في الموقع كنيسة دمرها الفرس في ٦١٤م.
٣. **<u>القرية الحصينة" "بيت عينون":</u>** والتي تقع على بعد ٣ أميال شمال شرقي الخليل.

وقد حققت الإمبراطورية البيزنطية نهضة عمرانية وفنية وفكرية؛ فقد بنيت المدن والكنائس، وازدهرت التجارة وتشكلت اسواقا تجارية ضخمة، وكانت ولاية سوريا (من ضمنها فلسطين) ولاية غنية تنعم بازدهار اقتصادي وفترات طويلة من الأمن والاستقرار؛ حيث شهدت بناء المدن والموانئ والحصون والطرق والكنائس منذ القرن الرابع الميلادي، كما كانت سوقا تجاريا جذب إليه الكثيرين من سوريا وفلسطين ومصر.

وفي هذا العصر ازداد عدد السكان العرب فقد دخلت قبائل عربية جديدة الى فلسطين وعاشت إلى جانب السكان الأصليين وتمركزوا في المدن، ولكن فيما بعد ونتيجة الحروب بين الفرس والروم أصبحت الطرق الدولية في فلسطين غير آمنة.

العصر الفارسي (٦١٤م -٦٣٦م)

في سنة ٦١٤م أغار الفرس الساسانيين على بلاد الشام ومصر بقيادة "كسرى الثاني" وحاربوا الإمبراطورية الرومانية تحت حكم "هرقل" (٦١٠-٦٤١م) وخربوا الكثير من مدن وحصون الرومان، ودمروا معظم المباني المسيحية القديمة بما فيها مدينة الخليل؛ بالإضافة لهدم سقف الحرم الإبراهيمي، ويبدو أن المدينة بأسرها تدمرت على أيدي الفرس فهجرها أهلها تماما.

العصور الإسلامية الأولى (٦٣٦م - ١٠٩٩م)

في عصر النبوة زار مدينة الخليل الصحابي تميم الداري، حيث كانت في ذلك الوقت عبارة عن قرية "جبرى" و"بيت عينون" ولم تكن المباني قد امتدت إلى منطقة الحرم الإبراهيمي في تلك الفترة.

ومع الفتح الإسلامي لفلسطين في القرن السابع الميلادي -كانت الخليل قرية متواضعة تابعة لبيت جبرين في جند فلسطين وقد أسلم سكانها وأصبح من الضروري وجود مسجد في المدينة – لذا فقد اتخذوا السور المحيط بالمغارة وجعلوه مسجدا مع اجراء العديد من التغييرات والإضافات ليظهر في هيئة المسجد عبر القرون الإسلامية اللاحقة.

أما البيوت حول السور فكانت قليلة حتى العصور الإسلامية الأولى، مع أنها قد تكون عُمّرت في العهد الروماني المسيحي ولكنها تأثرت سلبا بالحروب والزلازل التي حدثت فيما بعد عبر السنين.

وقد كان التقسيم الإداري لفلسطين عبارة عن قسمين: حيث قسمت فلسطين إلى جُند فلسطين، ويضم فلسطين الأولى والثالثة ومن ضمنه القدس وبيت جبرين....، وجُند الاردن، وهي فلسطين الثانية (حسب التقسيم البيزنطي).

في العصر الأموي بدأ حكم الخلافة في بيت المقدس في ٦٦٠م واستقرت البلاد وازدهرت ولكن لم يتم إقامة مدن جديدة حيث استقر الفاتحين في المدن البيزنطية.

في العصر العباسي في سنة ٧٥٠م، انتقلت الخلافة إلى العراق، لذا فقد تم تهميش بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين في تلك الفترة. وفي بداية القرن العاشر، سيطر الفاطميون على فلسطين في سنة ٩٦٩م، وظلت فلسطين في هذه الفترة ساحة حرب، وسادت بلاد الشام حالة من التدهور في الأوضاع الاقتصادية والسياسية، ولكن بالرغم من ذلك كانت مدينة الخليل في القرن العاشر مقصدا لزيارة الحجاج لمسجد إبراهيم، لذا فقد تم إنشاء المقامات والقباب على قبور الأنبياء وتم بناء غرف اللزوار والضيوف على سطح المسجد بالإضافة إلى منازل للضيافة من حوله.

العصر الصليبي (١٠٩٩م- ١١٨٧م)

في سنة ١٠٩٩م احتل الصليبيون فلسطين ومن ضمنها مدينة الخليل، حيث حكمها عام ١١٠٠م "غودفري دي بوايون" الوصي على مملكة بيت المقدس، وبعد ذلك أطلقوا عليها اسم "قلعة القديس أبراهام" واهتموا بتحصينها حتى أصبحت تتحكم في كل المنطقة.

وفي عام ١١٦٨م أصبحت الخليل مركزا لأبرشية، وفي سنة ١١٧١م بُنيت كنيسة على موقع المسجد الإبراهيمي وبالغرب منه شيدت القلعة، وقد كانت المدينة تابعة لإمارة الكرك التابعة لإقطاعية القدس، وكانت الإقطاعيات (البارونيات) صورة مصغرة من المملكة تنتقل من يد إلى أخرى، وحدثت بها تغييرات كثيرة في القرن الثالث عشر؛ حيث تقلصت المملكة وفقدت الكثير من الأراضي وهجرها العديد من السكان بسبب الأوضاع الأمنية السيئة والحروب.

شكل ٢: من مظاهر ازدهار مدينة الخليل في العصر المملوكي، Remember Palestine ١٨٨٠، (الشويكي: ٢٠٢١)).

العصر الأيوبي (١١٨٧م- ١٢٩٢م)

في سنة ١١٨٧م استرد صلاح الدين مدينة الخليل وأعاد الكنيسة إلى جامع ونقل إليه منبر عسقلان الذي صُنع سنة ١٠٩١م، ولكن الحروب استمرت مع الصليبيين وظلت فلسطين ساحة حرب بين الطرفين.

العصر المملوكي (١٢٩٢م- ١٥١٧م)

تم تغيير التنظيم الإداري على عهد السلطان قُطز الذي ساد في العصر الأيوبي، فقد قُسّمت تقسيما عسكريا إلى عدة نيابات؛ وكانت القدس نيابة ثالثة في زمن السلطان الظاهر برقوق (١٣٩٣م) بحيث تتبعها ولاية الخليل ونابلس وأحيانا الرملة.

كما اهتم المسلمون بإقامة المنشآت الدينية -وجعلوا لها الأوقاف- والمنشآت المدنية والعسكرية، وبإقامة الأسبلة والاهتمام بالعيون والقنوات الخاصة لتوفير المياه، وأصبحت مدينة الخليل مزارا للحجاج، كما أقاموا السماط (التكية) واستحدثوا وظيفة ناظر الحرمين الشريفين، واهتموا بتزيين المساجد والقباب والأسواق والعمارة والبيمارستانات، وأنشأوا بركتان كبيرتان "بركة القزازين" في الجنوب الغربي من حارة الحرم وبركة أخرى في أسفل الوادي "بركة السلطان" نسبة إلى السلطان قلاوون (١٢٨٢م) والتي بُنيت بحجارة مصقولة مربعة الشكل.

وقد كانت المدينة مكّونة من حارات من ضمنها حارة الحرم وحارة الدارية، وفيها أسواق البلد ومنافعها، ووجد فيها مدارس ومستشفيات ورباطات ومشاهد، بالإضافة إلى المدرسة القيمرية والمدرسة الفخرية والبيمارستان المنصوري (١٢٨١م) والرباط المنصوري (١٢٨٠م) وأربعة رباطات أخرى، ومدرسة السلطان حسن في القلعة الواقعة بالقرب من الحرم.

وكانت أيضا الخليل في ذلك الوقت مركزا للبريد مع مصر وغزة كما كانت محطة للبريد الجوي (الحمام الزاجل)، وكذلك ازدهرت الزراعة والتجارة الداخلية والخارجية والصناعة ونشط التبادل التجاري بين الأقاليم ومع الخارج، ولذلك اهتموا بالأمن على الطرقات وفي الأسواق والموانئ وبنوا الجسور ووسعوا الطرق وأقاموا الخانات والفنادق والأسواق.

ومع استمرار العصر المملوكي ازدهرت المدينة وأصبح لها أهميتها الدينية والتجارية والاقتصادية وزاد عدد السكان والمنشآت العامة والخاصة. وكانت المباني تبنى من الحجارة المنحوتة، وتتألف عادة من طابقين وسقفها عبارة عن عقود حجرية. كما كانت المدينة عامرة من الناحية الزراعية فقد انتشرت فيها الأشجار والكروم والحدائق داخل المدينة وعلى الطرقات بينها وبين المدن الأخرى خصوصا مدينة القدس، شكل"٢".

في منتصف القرن الرابع عشر تراجعت الكثافة السكانية بسبب عودة الصراعات بين المماليك والتتار والمماليك أنفسهم والمماليك والعثمانيين بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية التي حدثت في البلاد، وبسبب القحط والوباء والطاعون، واجتياح الجراد للمنطقة في سنة ١٤٨٤م، بالإضافة إلى الزلازل التي حدثت في سنة ١٤٥٨م وسنة ١٤٩٧م، وبهذا أصبحت البلاد في حالة متردية وبها الكثير من الخراب والدمار.

الحكم العثماني- الفترة الأولى (١٥١٧م- ١٨٣١م)

في عام ١٥١٧م أصبحت فلسطين تحت الحكم العثماني وفي عهد السلطان سليمان القانوني قام بإعادة تقسيم بلاد الشام، حيث قسّمها إلى ثلاثة ألوية: دمشق وحلب وطرابلس، وقسّم الألوية إلى سناجق، وقد ضم لواء دمشق عشرة سناجق منها سنجق القدس، ومن ثم قسّم كل سنجق إلى وحدات إدارية أصغر وهي النواحي، وقد ضم سنجق القدس في القرن السادس عشر ناحيتين هما: ناحية قدس شريف وناحية خليل الرحمن وقد ضمت الناحيتين ١٨٤ قرية في ذلك الوقت.

ونتيجة الاستقرار وانتظام الإدارة وثبوت الأنظمة والأمن على الطرقات تحسن الإنتاج الزراعي والنباتي وتطورت بعض الصناعات الزراعية والحرفية وزادت الحركة التجارية؛ حيث كانت القوافل التجارية تسير بين الخليل والعقبة في رحلة تستغرق تسعة أيام.

وقد كان القرن الثامن عشر عصرا مرموقا للخليل؛ حيث اشتهرت صناعة الصابون وغزل القطن وصناعة الزجاج بالإضافة إلى منتجاتها الزراعية العديدة من عنب وزيتون وقطن وغيرها، وكان معمل الزجاج في مدينة الخليل هو الوحيد في منطقة سوريه، وقد جعلت تلك الصناعات مدينة الخليل (حبرون) أقوى بلدة في تلك الأرجاء.

وأقيمت في هذه الفترة منشآت عمرانية وخيرية وعسكرية بالإضافة لترميم الحرم الابراهيمي، كما أقيمت السراي (مقر الحكومة في الناحية الشرقية للحرم)، ووجدت أيضا إدارة للبريد والبرق وفرع لبنك أنجلو فلسطين ومستشفى للإرسالية الإسكوتلندية، شكل "٣".

الفترة المصرية (١٨٣١م-١٨٤٠م)

في سنة ١٨٣١م؛ أصبحت فلسطين تحت حكم محمد علي باشا سنة ١٨٣١م، فقد احتل بعض المدن فيها وأعاد تنظيم البلاد فقسّمها إلى مديريات، ولكن ساءت أحوال البلاد الاقتصادية.

وفي سنة ١٨٣٤م اضطربت البلاد وثار السكان ضد إبراهيم باشا في القدس ونابلس والخليل حيث قتل أهلها أفراد الحامية المصرية، فأحرق القرى ودمّر المباني، واستولى على مدينة الخليل وقصف قلعة الحرم الابراهيمي بالمدفعية ودمرها. وانتهى حكمه سنة ١٨٤٠م، وقد كان للحكم المصري آثارا سلبيا على البلاد؛ حيث قلّ عدد السكان فيها ومنها مدينة الخليل.

الحكم العثماني-الفترة الثانية(١٨٤٠م-١٩١٧م)

بعد أن استعاد العثمانيين بلاد الشام، أصبحت فلسطين تابعة لولاية الشام (شام شريف)، وقد قسّم العثمانيون بلاد الشام إلى ثلاث ولايات: الشام وحلب وطرابلس، وجعلوا فلسطين أربعة ألوية (سناجق): صفد ونابلس والقدس وغزة، وفي كل لواء عدد من الأقضية (نواحي)؛ حيث ضم لواء القدس - القدس والخليل.

وفي سنة ١٨٥٤م جعلوا القدس ولاية مستقلة تابعة لإسطنبول مباشرة للسيطرة على وضعها الأمني ومراقبة القنصليات فيها وألحق بالولاية سنجقا نابلس وغزة، وفي سنة ١٨٥٩م عينت الدولة العثمانية قائم مقام تركي على مدينة الخليل وقضاها.

وفي سنة ١٨٦٤م، صدر قانون تشكيل الولايات الذي وضع إطارا موحدا للإدارة في الولايات كلها، وبموجبه قسّمت بلاد الشام إلى ولايتين: سوريا وحلب، وكل ولاية قسّمت إلى متصرفيات (سناجق) والمتصرفيات إلى قائممقاميات (أقضية) والأقضية إلى مديريات (نواح).

وبموجب التنظيم الجديد اتبعت متصرفية فلسطين ولاية سوريه وظل يحكمها متصرف مقره القدس، وكان يتبعها تسعة أقضية منها: القدس والخليل، ثم فصلت متصرفية القدس عن ولاية سوريا في سنة ١٨٧٣م واتبعت مباشرة لإسطنبول، وفي سنة ١٨٧٤م كانت القدس متصرفية مستقلة عن ولاية سوريه وتضم سناجق الخليل ويافا وغزة.

وقد كان يتبع مدينة الخليل أكثر من ٥٠ قرية وناحية ومزرعة، مما يدل على كبر مساحة المدينة ككل ومدى التطور الحيوي فيها في ذلك الوقت. في سنة ١٨٤٨م شيّد مبنى ال"تحفظخانة" وهو قلعة للحِجر الصحي والتي كانت تتكون من ١٨ غرفة. وفي سنة ١٨٧١م كانت المدينة تحوي المدارس والمصانع والمكاتب الحكومية بالموظفين الأتراك والمساجد والجوامع والكنائس والأفران والحمامات.

وفي سنة ١٩٠٣م كان في المدينة ٤ مدارس (٢ حكومية و٢ اجنبيتان)، أما في سنة ١٩١٢م فقد كان في الخليل إدارة للبريد وإدارة للبرق وفرع لبنك، ومستشفى ومحطة للبريد الجوي "الحمام الزاجل". بالإضافة إلى التكيات والخانات التي تدل على أن المدينة كانت تستقبل الزوار والحجاج للحرم الإبراهيمي كما كانت في العصور السابقة للعصر العثماني، شكل "٣".

الانتداب البريطاني (١٩١٧م-١٩٤٨م)

في سنة ١٩١٨م أصبحت فلسطين تحت إدارة بريطانيا مباشرة؛ حيث أصدرت بريطانيا وعد بلفور في سنة ١٩١٧م، وقامت في فلسطين إدارة عسكرية بريطانية بقيادة "الجنرال كلايتون"، وفي سنة ١٩٢٠م بدأ اليهود بالسكن في مدينة الخليل.

وفي سنة ١٩٢١م نقلت بريطانيا إدارة فلسطين من إدارة الخارجية إلى وزارة المستعمرات الذي تولاها "تشرتشل"، وفُصلت فلسطين عن شرقي الأردن وأقام "ساموبل" إدارة حكومية فيها وأصدر القانون الأساسي الذي استبدل بدستور فلسطين سنة ١٩٢٢م، واستبدلت الإدارة العسكرية بأخرى مدنية، وأصبحت الخليل عاصمة منطقة الجنوب لفلسطين ومركزا سياحيا هاما.

وفي سنة ١٩٢٣م كانت المدينة ملحقة بلواء غزة وفيها مكتب بريد وتلفون ومستشفى ومدرسة ذكور للمعارف ومدرسة إناث ومستشفى إنجليزي، وفي سنة ١٩٣١م كانت تحوي مدرستين حكوميتين، وفي سنة ١٩٤٣م كانت تحوي ٥ مدارس.

وما بين سنة ١٩٣١-١٩٣٥م زادت الهجرات اليهودية إلى فلسطين، وقد خرج اليهود من الخليل في سنة ١٩٢٩م ولم يعودوا إليها إلا في ١٩٦٧م. كما قامت ثورة لمقاومة الاستعمار في المدينة في سنة ١٩٣٦م. وفي سنة ١٩٤٥م تقلصت مساحة المدينة من ٢٠٧٦١٨٥ دونما إلى ١١٠٠ دونما في سنة ١٩٤٨م.

الفترة الأردنية (١٩٤٨م- ١٩٦٧م)

في سنة ١٩٤٧م قسّمت فلسطين إلى دولتين: الأولى عربية والثانية يهودية، وقد كانت مدينة الخليل في الدولة العربية، وبعد حرب ١٩٤٨م انسحبت بريطانيا من الخليل فنزلت كتيبة أردنية وأخرى عراقية المدينة وأصبح قطاع الخليل وبيت لحم تحت سيطرة الأردن، ومن ثم اتفقت مصر والأردن على أن يكون الحكم في الخليل مشتركا فيما بينهما، ولكن خرجت مصر من المدينة وأصبحت تحت حكم الأردن حيث استمرت حتى سنة ١٩٦٧م عندما استولى عليها اليهود وتم تهويد المدينة وتحويل حرمها إلى معبد يهودي.

الاحتلال الإسرائيلي (١٩٦٧م ----)

بدأ الاحتلال الإسرائيلي للمدينة في سنة ١٩٦٧م، حيث بدأت المستوطنات الإسرائيلية تُبنى في المدينة وبدأت الاعتداءات على السكان لإجبارهم على ترك منازلهم داخل البلدة القديمة. وبعد النكبة ١٩٦٧م حملت الخليل اسم لواء الخليل، ومن ثم محافظة الخليل. وبعد سنة ١٩٦٤م كان في المدينة مستشفى حكومي ومستشفى خاص، وفي سنة ١٩٦٦م كانت تحوي ١٣ مدرسة.

وقد شهدت مدينة الخليل منذ عام ١٩٦٧م، انشاء عدد من المستوطنات داخل وحول البلدة القديمة في المدينة، وفي عام ١٩٦٨م، فتحت قوات الاحتلال مدخلاً وطريقاً جديداً إلى الحرم الإبراهيمي، وأقامت نقاط مراقبة عسكرية حول المنطقة، وتزامنت هذه العمليات مع هدم عدد من البيوت، وتغيير شكل المنطقة حول الحرم.

وفي سنة ١٩٧٠م أقيمت مستوطنة "كريات أربع"، ومن ثم تم الاستيلاء على بعض الأبنية داخل المدينة، وتحويلها إلى أحياء سكنية لليهود، وتم الربط الجغرافي بين هذه الأحياء والمستوطنة من خلال حفر الأنفاق وانشاء الطرق.

ومن ثم أقيمت مستوطنة "جفعات خارصينا" في عام ١٩٨٢م على جوانب ومداخل المدينة وعلى الحدود الشرقية الشمالية لها، كما اقيمت مستوطنة "بيت حاجاي" على الحدود الجنوبية عام ١٩٨٤م، كذلك أقيمت بؤرة استيطانية، كانت عبارة عن نقطة عسكرية، في المنطقة بين مستوطنتي بيت حاجاي، وكريات أربع.

أما مستوطنة "تل الرميدة"، فهي نقطة استيطانية تقع داخل البلدة القديمة والتي اقيمت في عام ١٩٨٧م، وتعتبر من النقاط المعزولة والمحاطة من جميع الجهات بالأحياء الفلسطينية. وفي سنة ١٩٨٠م، أقيمت مستوطنة "هداسا (الدبويا)" في وسط المدينة وتم تحويل هذه المنطقة إلى منطقة سياسية ومركز ديني، بعد هدم العديد من المنازل الفلسطينية أو استيلاء المستوطنين عليها.

أما مستوطنة "بيت رومانو" (مدرسة أسامة بن المنقذ)، فهي عبارة عن نقطة استيطانية وسط مدينة الخليل، اقيمت في عام ١٩٨٧م وقد صادرت سلطات الاحتلال وأغلقت محطة الحافلات الواصلة بين الحي اليهودي و(بيت رومانو)، لتشكل حياً يهودياً كبيراً متصلاً في وسط مدينة الخليل مع مستوطنة الحي اليهودي التي في مركز البلدة القديمة والتي اقيمت في عام ١٩٦٧م بعد الاستيلاء على البيوت الفلسطينية لتشكل حياً يهودياً كبيراً في قلب مدينة الخليل، وتتوسع بشكل تدريجي لتتصل مع "كريات أربع" و"تل الرميدة"، شكل "٤".

في ٢٥-٢-١٩٩٤م فتح الإسرائيلي "الدكتور باروخ جولدشتاين" النار على المصلين المسلمين أثناء الصلاة وقتل ٢٩ شخصا وجرح ١٣٥ آخرين. وفي نفس اليوم فتح الجنود الإسرائيليين النار خارج الحرم الإبراهيمي على المصلين وقتلوا على الأقل ١٠ من المدنيين. وتم فورا اغلاق الحرم الإبراهيمي من قِبل الإسرائيليين بعد هذه المجزرة، ومنع التجول لمدة ٣٠ يوما في المدينة، ومن ثم اغلقت الحرم لمدة ١٠ شهور، بينما كانت النتيجة الاسوأ للمجزرة هي تقسيم الحرم الإبراهيمي إلى قسمين: قسم للمسلمين وقسم آخر لليهود، مع مدخلين منفصلين بينما المدخل الثالث تم اغلاقه لغاية الآن، شكل "٥".

وفي ٨-٣-١٩٩٤م قررت الولايات المتحدة في قرار ٩٠٤ ايجاد قوات مراقبة دولية في الخليل وأعيد فتح الحرم الإبراهيمي في شهر تشرين ثاني ١٩٩٤م مع ترتيبات جديدة للمصلين المسلمين والمستوطنين اليهود، ومن هذه الترتيبات: أن تكون بعض قاعات الصلاة في الحرم للمسلمين بينما تحول القاعات الأخرى إلى كنيس لليهود. أصبح أيضا هناك مدخلين مختلفين في أوقات مختلفة للمصلين لكل مجموعة. كما أن هناك ١٠ أيام في السنة لكل مجموعة لاستخدام كامل الموقع، كما تنص هذه الترتيبات على أن الحرم يغلق لليهود خلال

السراي، (LOC ، ١٨٨٠s)

المستشفى، (LOC ، ١٨٨٠s)

مصنع الزجاج، (LOC ، ١٩٠٠s)

التحفظخانة، (IRCICA ، ١٨٨٠s)

البنك، (LOC ، ١٨٨٠s)

دباغة الجلود، (Remember Palestine ، ١٨٠٠s)

شكل٣: بعض المنشآت في العصر العثماني، (الشويكي: ٢٠٢١).

صلاة المسلمين ويغلق في أيام الجمع لليهود خلال غروب الشمس ليصلوا فيه حسب القانون، كما يمكنهم أن يصلوا فيه كل يوم وفي أي وقت كان- (نفس الترتيبات كانت في ٨-١٩٧٥م).

وبعد مجزرة الحرم الإبراهيمي سنة ١٩٩٤م؛ تم إغلاق السوق التجاري في المدينة "شارع الشهداء" وطرد العديد من السكان من منازلهم، كما تم إغلاق الطرق ووضع الحواجز العسكرية في البلدة القديمة وفي الطرق المؤدية إلى الحرم الإبراهيمي والموجودة لغاية الآن.

تأسيس السلطة الفلسطينية (١٩٩٥م ----)

عُقدت اتفاقية أوسلو في ١٣ أيلول من سنة ١٩٩٣م، وتنص موادها الأساسية على انسحاب القوات الإسرائيلية من غزة وأريحا أولا، وبعد اتفاق السلام في القاهرة في ٢٨ أيلول ١٩٩٥م، تمت اتفاقية "أوسلو II" حيث يتم توسيع سلطة السلطة الفلسطينية لتشمل المدن الرئيسية في الضفة الغربية. ومن الأحكام الرئيسية من "أوسلو II" لمحافظة الخليل كالتالي: تقسيم المحافظة إلى ٣ أجزاء؛ منطقة A: تحت إدارة السلطة الفلسطينية، منطقة B: تحت الادارة الفلسطينية والإسرائيلية، منطقة C: تحت الإدارة الإسرائيلية.

وفي ١٧-١٢-١٩٩٧م، تم عقد بروتوكول الخليل؛ حيث تم تقسيم المدينة إلى قسمين، قسم للعرب وقسم لليهود، ومن أهم بنود هذا البروتوكول: أن الشرطة الفلسطينية مسؤولة عن المنطقة H1، بينما تحتفظ إسرائيل بجميع الصلاحيات والمسؤوليات المتعلقة بالأمن الداخلي والنظام العام في المنطقة H2. وذلك إضافة إلى استمرار إسرائيل في تولي مسؤوليات أمن الإسرائيليين العام. وهذا القسم مغلق بالكامل (نقاط تفتيش وحواجز عسكرية ومكعبات اسمنتية) ومن ثم تمت سيطرة اليهود على القسم العربي أيضا، شكل "٦".

في سنة ٢٠١٧ م، تم إدراج البلدة القديمة لمدينة الخليل في قائمة التراث العالمي، وبالرغم من التضييق المستمر على سكانها لإجبارهم على هجرها وبالرغم من وجود العديد من الحواجز التي تمنع السكان من التنقل بحرية والوصول إلى منازلهم وأماكن عملهم، وبالرغم من إغلاق السوق التجاري "شارع الشهداء" إلى أن ترميم وإعادة تأهيل المنطقة ما زال مستمرا من قبل لجنة اعمار الخليل.

في الوقت الحاضر؛ تُعد مدينة الخليل مدينة متطورة ومزدهرة ذات كيان اقتصادي وتجاري وصناعي أساسي في فلسطين، تضم العديد من المصانع، كالمصنوعات الجلدية والبلاستيكية والألبان والحجر والرخام، بالإضافة إلى الصناعات التقليدية التي ما زالت موجودة للآن كصناعة الزجاج والفخار والخزف والجلود. كما تضم المدينة أيضا أربع جامعات مرموقة والعديد من المستشفيات الخاصة والحكومية بالإضافة إلى المنشآت الاقتصادية والأسواق التجارية والعديد من مظاهر الحياة الحديثة.

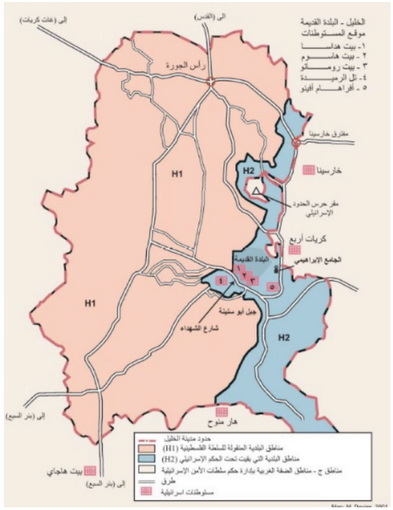

شكل ٤: بعض المستوطنات في مدينة الخليل، (PASSIA، ٢٠٠١).

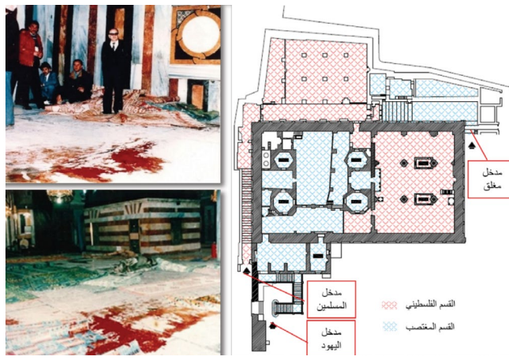

شكل ٥: تقسيم الحرم الإبراهيمي بعد المجزرة سنة ١٩٩٤، من آثار المجزرة، (الشويكي، عن لجنة الاعمار، ٢٠٢١: Alghad.)

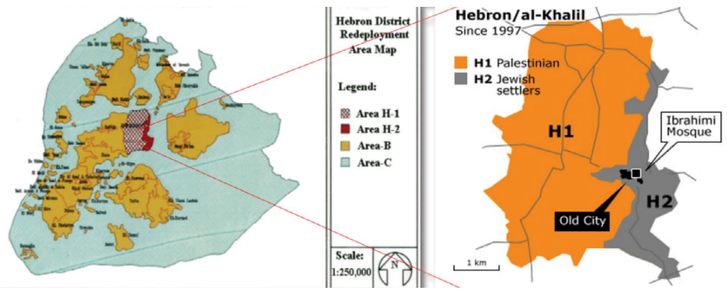

شكل ٦: تقسيم مدينة الخليل حسب اتفاقية "أوسلو A,B,C " II، وتقسيم البلدة القديمة إلى H٢,H١ حسب بروتوكول الخليل، (Unbiased Inf. & Hebron-City)، (الشويكي: ٢٠٢١).

مدينة الخليل من أقدم مدن العالم التي كانت ومازالت مأهولة منذ عصور ما قبل التاريخ، وقد كان لها أهميتها التجارية بسبب موقعها الاستراتيجي وأهميتها الدينية بسبب وجود قبور الأنبياء فيها. سكنها الكنعانيون في منطقة تل الرميدة وأقاموا فيها البنايات والأسوار وزرعوا فيها الزيتون. هاجر إليها سيدنا إبراهيم وسكن في منطقة الرامة واشترى مغارة المكيفلة ودفن فيها زوجته سارة ومن ثم دُفن هو وأبناءه فيها أيضا، وفيما بعد تم إغلاق المغارة ولم تعمّر المنطقة في ذلك الوقت.

في العصر الروماني كان مركز المدينة في منطقة ممرا \ رامة الخليل؛ حيث كانت مدينة زاهرة تحوي معبدا مبني بحجارة ضخمة وتحوي آبار المياه والأشجار، كما كانت سوقا عامرة تستقطب الناس من فلسطين وسوريا ومصر. أما موقع المغارة فقد أصبح عبارة عن بلدة صغيرة، وقد بنى هيرودس عليها سورا من الحجارة الضخمة يحيط بها ليحميها.

وبقي السور على حاله حتى العصر البيزنطي؛ حيث قامت والدة "قسطنطين" ببناء كنيسة في موقع المغارة، وبذلك تكوّنت نواة المدينة الحالية، ولكنها بقيت بلدة متواضعة تحوي بيت إبراهيم- أما مركز المدينة المزدهر في ذلك الوقت فقد كان في منطقة رامة الخليل، ولكن في العصر الفارسي تم تهجير المدينة وتدمير الكنيسة.

في بداية العصور الإسلامية، كانت الخليل عبارة عن بلدة صغيرة تابعة لبيت جبرين، وفيما بعد أصبح للمدينة أهمية بتحويل السور إلى مسجد وأصبح مزارا للحجاج، وبالتالي زادت المساكن حول المسجد وزاد عدد السكان وازدهرت التجارة والصناعة والزراعة.

في العصر الصليبي، تم تحويل المسجد إلى أبرشية وتم بناء القلعة فيها لتصبح حصنا مهما في المنطقة وبالتالي أصبحت مدينة الخليل تتحكم في كل المنطقة، فقد كانت عبارة عن ثكنة عسكرية ومركزا تجاريا دوليا ولكن مع الدمار والحروب هجر السكان المدينة.

عادت الخليل للحكم الإسلامي في العصر الأيوبي مع استمرار الحروب، وفي العصر المملوكي أصبحت الخليل ولاية تتبع نيابة القدس، ورمم المسجد وأضيف له العديد من الإضافات وبنيت المنازل من حوله من الجهات الأربع وأصبحت المدينة عبارة عن حارات ملتفة حول الحرم، وازدهرت المدينة وأصبح لها أهميتها الدينية والتجارية والاقتصادية وزاد عدد السكان والمنشآت مرة أخرى.

وخلال الحكم العثماني ازدهرت المدينة بشكل أكبر وزاد عدد السكان والمباني- ولكن تخلل هذه الفترة حكم إبراهيم باشا حيث تم تدمير المدينة بسبب الثورة التي قامت ضده، ومن ثم عادت للازدهار في الفترة العثمانية الثانية، إلى أن أصبحت تحت الحكم البريطاني وأصبحت عاصمة منطقة الجنوب لفلسطين ومركزا سياحيا هاما، وبهذه الفترة زادت الهجرات اليهودية إلى فلسطين.

وفي الفترة الاردنية أصبحت الخليل ضمن المنطقة العربية لفلسطين ومن ثم أصبحت تحت سيطرة الأردن لغاية الاحتلال الإسرائيلي. بعد الاحتلال الإسرائيلي أصبحت المدينة لواءً ومن ثم محافظة وانتشرت المستوطنات بالمدينة وأغلقت العديد من الطرقات بالحواجز وهجّر العديد من سكان البلدة القديمة وتم الاستيلاء على منازلهم.

وبعد اتفاقية "أوسلو II"، أصبحت الضفة الغربية تحت حكم السلطة الفلسطينية فقسّمت الخليل كمحافظة إلى ثلاث مناطق، ومن ثم قسّمت المدينة إلى قسمين بعد بروتوكول الخليل، كما قسّم الحرم الإبراهيمي إلى قسمين بعد المجزرة في عام ١٩٩٤.

في الوقت الحاضر، تعتبر مدينة الخليل من أكبر المدن الفلسطينية حيث تتصدر الاقتصاد والتجارة والصناعة رغم كل العوائق التي تحد من تطورها وازدهارها من قِبل الاحتلال والاستيطان.

1. ابو حرب، شريف، مدينة الخليل، جامعة دمشق، 1964.
2. الأوقاف والشؤون الاسلامية. المسجد الابراهيمي. مطبعة بيت المقدس.
3. احشيش، باسم. ناحية خليل الرحمن في القرن 16. رسالة ماجستير، جامعة النجاح، فلسطين، 2000.
4. إسكندر، ميخائيل. القدس عبر التاريخ. القاهرة، 1972.
5. البرغوثي، عمر، وطوطح، خليل. تاريخ فلسطين. مطبعة بيت المقدس، القدس، 1923.
6. جبارة، تيسير، واخرون. مدينة خليل الرحمن. رابطة الجامعيين مركز الأبحاث، 1987.
7. الجعبة، نظمي، تحرير. سحر مدينة الخليل. لجنة اعمار الخليل، فلسطين، 2009.
8. الحنبلي، مجير الدين. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج1 وج2. مكتبة دنديس، فلسطين، 1999.
9. الدباغ، مصطفى. بلادنا فلسطين، ج1، ج5. دار الهدى، كفر قرع- فلسطين. 1991.
10. سوسه، احمد. العرب واليهود في التاريخ، ط2. العربي للإعلان والنشر، 1990.
11. السيد، علي. الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية، ط 1. دار الفكر العربي، القاهرة. 1998.
12. شراب، محمد. الخليل مدينة عربية فلسطينية، ط 1. دار الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 2006.
13. شوفاني، الياس. الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ط1. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1996.
14. صالحية، محمد. مدينة القدس 1948-1858م. مركز الزيتونة، لبنان، 2009.
15. العارف، عارف. المفصل في تاريخ القدس، ج2. مطبعة المعارف، القدس، 1999.
16. العامري، اديب. القدس العربية. دار الطباعة والنشر، عمان، 1971.
17. عمره، يونس. خليل الرحمن العربية. دار القلم، رام الله، 1985.
18. كتن، هنري، تر. ابراهيم الراهبن. القدس، ط1. دار كنعان، 1997.
19. فرح، ابو اليسر. تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان، ط1. عين للدراسات والبحوث، 2002.
20. حلمي مرقة. "الكارنتينا". جريدة النهار، العدد 6997، 2015.5.8.
21. مشورزبورغ، يوحنا. تر. سعيد البيشاوي. وصف الاراضي المقدسة في فلسطين، ط1، دار الشروق، الأردن، 1997.
22. سالنامة دولت علية عثمانية – در سعادت، سالنامه نظارت معارف عمومية سنة 1899م.
23. Alshweiky, Rabab & Zeynep Gül Ünal,. "An approach to risk management and preservation of cultural heritage in multi-identity and multi managed sites: Al-Haram Al-Ibrahimi/Abraham's Tombs of the Patriarchs in Al-Khalil/Hebron", Journal of Cultural Heritage, Volume 20, 2016, Pages 709-714.
24. Diwan Studies in The History and Culture of The Ancient Near East the Eastern Mediterranean. Duisburg, Duisburg Wellem, 2016.
25. Israel pocket library, Archaeology. Keter Publishing House, Jerusalem, 1st Ed, 1974.
26. Itzhaq, Magen. The New Encyclopedia of Archaeological Excavations in The Holy Land. Jerusalem, 1993.
27. Muaz, M. Studies on Palestine During the Ottoman Period. The Magnes Press, Jerusalem, 1975.
28. Nazzal, N. & Nazzal, L,. Historical Dictionary of Palestine. The Scarecrow Press, London, 1997.
29. The Tabernade, The Rev.W.Show Caldecott. The Union Press, Philadelphia, 1904.
30. A Blog on the Lands of Bible, https://againstjebelallawz.wordpress.com/category/biblical-geography/page/27/, 2016.
31. Alghad TV, https://www.alghad.tv , 2015.
32. ARCOR (IHR Inter Net Portal), http://home.arcor.de/filistin/barissureci/birinciintifada/osloiveosloii/osloiveosloii.html, 2017.
33. Geo-political Overview, Hebron Governorate, http://www.poica.org/editor/case_studies/view.php?recordID=2153, 2017.
34. Hebron Rehabilitation Committee, https://www.hebronrc.ps/index.php/ar/, 2014-2018.
35. Hebron Protocol, https://www.hebronrc.ps/index.php/ar/hebron-protocol, 2016.
36. Hebron-City, http://www.hebron-city.ps/page.aspx?id=qVsGgWa822314592aqVsGgW , 2016.
37. IRCICA, http://www.e-library.ircica.org, 2016.
38. LOC: Library of Congress, http://www.loc.gov , 2017.
39. Michael Edward Edgerton, https://michaeledwardedgerton.wordpress.com/79-the-oak-of-mambre/ , 2021.
40. Oslo Agreement, https://www.hebronrc.ps/index.php/en/oslo-agreement , 2016.
41. PASSIA: Palestinian Academic Society, http://www.passia.org/maps/view/110 , 2021.
42. Palestinian News & Info Agency, https://info.wafa.ps/ar_page.aspx?id=4096 , 2016.
43. Remember Palestine, http://www.rememberpalestine.com , 2016.
44. Unbiased Information on The Middle-East and North-Africa region, http://fanack.com, 2016.

الهوية العمرانية لمدينة حلب القديمة ودراسة واقعها الحالي

د. م. محمود زين العابدين
عضو هيئة تدريسية بجامعة يلدز التقنية، كلية الهندسة المعمارية، إسطنبول، تركيا

تقع مدينة حلب في أقصى الشمال الغربي من الهضبة الواقعة في سورية الشمالية، وهي ذات موقع إستراتيجي مهم من الناحيتين العسكرية والاقتصادية، لقد تحكمت في طريق التجارة العالمي الذي كان يعرف باسم (الممر السوري العظيم) منذ فجر التاريخ، فهي إذن حلقة اتصال بين سورية وبلاد مابين النهرين وفارس من جهة، والأناضول وموانئ البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى .[١]

المشروعات الترميمية قبل الحرب

شهدت مدينة حلب مشروعات توثيقية وترميمية مهمة، وذلك من خلال التعاون بين الجهات الحكومية والجهات الدولية، فقد تم تأسيس مشروع إحياء حلب القديمة في عام ١٩٩٢ بالتعاون مع الحكومة الألمانية وبمشاركة الصندوق العربي، حيث قامت الوكالة الألمانية للتعاون الفني مع مجلس مدينة حلب على اعادة احياء مدينة حلب القديمة واستمرت الأعمال حتى نهاية عام ٢٠١٠ تم خلالها إنجاز مجموعة من الأعمال الترميمية للمدينة.

كما كان لمنظمة الأغاخان عدد من المشروعات الترميمية المهمة والناجحة داخل قلعة حلب وعلى أطرافها وغيره من المواقع الأخرى. جميع هذا الأعمال السابقة ساهمت بتوثيق الكثير من المباني الأثرية بمدينة حلب، وهو أمر إيجابي للغاية فمعظم المباني الأثرية تم رفعها مساحياً وإعداد مخططاتها الهندسية، وبهذا صار هناك قاعدة بيانات مهمة يمكن الإستفادة منها في أعمال الترميم اللاحقة.

النسيج العمراني بعد الحرب

شهد النسيج العمراني لمدينة حلب أضرار متفاوتة الحجم والنوع، فهناك أضرار كبيرة أو جزئية للكثير من المباني الأثرية الواقعة ضمن النسيج العمراني لمدينة حلب القديمة. والبعض من تلك الحالات دمرت بالكامل وتحتاج لإعادة بناء من جديد، كما هو الحال عليه في مبنى التكية الخسروية، والبعض منها كان حجم الدمار فيه جزئي وقابل للترميم وإعادة التأهيل.

وبعد إنتهاء الحرب وعودة مدينة حلب بالكامل لسيطرة الدولة بدأت الجهات الحكومية وبشكل تدريجي القيام بالزيارات الميدانية للأحياء القديمة وتوثيق حجم الدمار، وتقديم تقارير دورية، مع التنويه للمباني التي هي بحاجة لحلول إسعافية، والقيام بتدعيمها فوراً خشية سقوطها على ساكنيها أو على المارة، كما جرى ترحيل الكثير من الأنقاض وفتح الشوارع والطرقات. وبدأت الورشات الفنية في محافظة حلب بالبدء بأعمال تأهيل البنية التحتية لأحياء مدينة حلب القديمة المتضررة، والقيام بتأهيل شبكات المياه والصرف االصحي والكهرباء وتوفير المستلزمات الضرورية للمواطنين العائدين.

ووفق تقارير نشرت في وكالة الأنباء السورية الرسمية (سانا) بتاريخ ٤ آب (أغسطس) ٢٠١٨م، أشارت إلى أنه قد تمّ تنفيذ خطة تدخل اسعافي في الأحياء التي طالها الإرهاب تتضمن شقين، الأول يتعلق بترحيل الأنقاض وإعادة فتح المحاور الرئيسة وترميم الأرصفة والأردفة والمنصفات والمنظومة المرورية وتأهيل الحدائق، أما الثاني فيهدف إلى تأهيل المناطق الصناعية. وأنه منذ تحرير الاحياء الشرقية من مدينة حلب عام ٢٠١٦ وحتى الآن (أغسطس ٢٠١٨م) تم تنفيذ /٣٨٢/ مشروعاً ضمن خطة التدخل الإسعافي. وفي عام ٢٠١٧ تم التخطيط لتنفيذ ١٤٧ مشروعاً، وفي عام ٢٠١٨ تم البدء بـ ١٩١ مشروعاً، تم الانتهاء من تنفيذ ٤٦ مشروعا منها، بالتعاون مع كل شركات ومؤسسات القطاع العام.[٢]

كما قام مجلس مدينة حلب في كثير من أحياء مدينة حلب بأعمال إزالة الأجزاء الخطرة من الأبنية المتضررة والمصنفة بدرجة خطورة عالية وتهدد السلامة العامة.

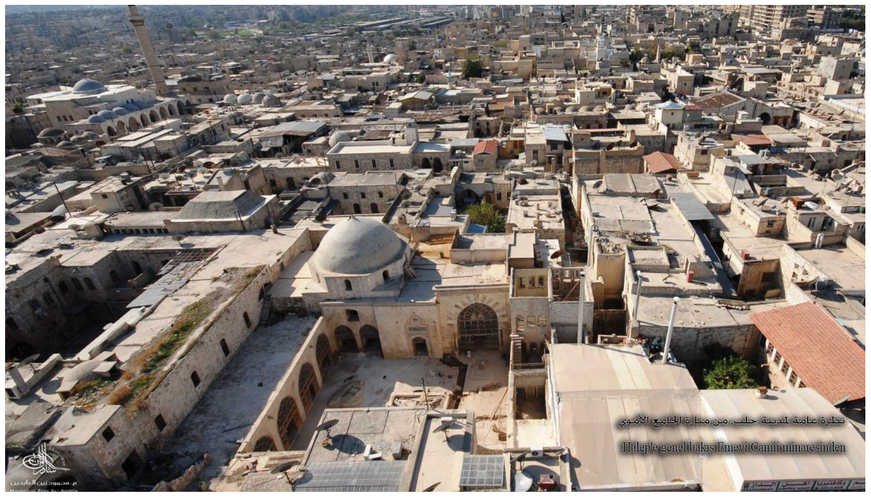

توثيق المباني الأثرية

تعدّ مرحلة توثيق المبنى قبل القيام بأعمال الترميم، أحد أهم المراحل المرتبطة إرتباطاً وثيقاً بمراحل الترميم وبعده. ولا بد من إعداد بطاقة تعريفية تحتوي على معلومات مرتبطة بالمبنى من النواحي التاريخية والمعمارية والإنشائية. مع إعداد رسومات المساقط الأفقية والواجهات والقطاعات وتفاصيل الأرضيات والأسقف ونماذج الأبواب والشبابيك والدواليب والأحجبة والأبواب والمنابر والعناصر الخشبية والمعدنية والجصية، وتحديد أماكن الأضرار والشروخ بالأثر على المساقط الأفقية والقطاعات والواجهات، كذلك رفع أعمال التوثيق للزخارف والحليات والتفاصيل بكافة أنواعها. والقيام بجمع الصور القديمة للمبنى، والتقاط صور حديثة من الداخل والخارج، قبل الترميم وبعد أعمال الترميم.

يقوم بهذه الأعمال التوثيقية مجموعة عمل متعددة الاختصاصات، تقوم بالرفع الأولي للمنشأة المدروسة وتحضّر برنامج دقيق لعمليات الرفع والتوثيق ضمن منهجية علمية دقيقة وجداول وبيانات احصائية متكاملة تشمل كل ما يتعلق بالمبنى. ثم تتم دراسات تحليلية لنتائج الرفع والقيام بدراسة معمقة لسلوكية المبنى الانشائية والتقنيات المستخدمة في الانشاء وكذلك المواد ومواصفاتها إضافة لدراسة كل التبدلات التي طرأت عليها وأسبابها. ويجب أن ترافق كل عمليات التوثيق تقارير تحليلية ورسومات وصور توضيحية ودراسات تفصيلية مرحلية متتابعة لاعمال الصيانة والحماية الأولية ولأعمال الترميم والاحياء التي يمكن أن تتم لاحقاً بعد استكمال أعمال الترميم.

نماذج مختارة لمشاريع توثيقية

بعد تحرير مدينة حلب تم البدء بعدد من المشروعات التوثيقية بهدف معرفة حجم الأضرار التي لحقت بمدينة حلب وبنسيجها العمراني، وقد ساهمت الكثير من الجامعات العربية والدولية بإعداد من البحوث والدراسات ورسائل الماجستير والدكتوراة وورشات العمل حول أهمية مدينة حلب وتوثيق حجم الدمار وإعادة إعمارها. ومن بين المشروعات التوثيقية مشروع: "حلب بين الأمس واليوم نحو المستقبل"[٣] . تم البدء بهذا المشروع التوثيقي عام ٢٠١٤، في كلية الهندسة المعمارية بجامعة يلدز التقنية بمدينة استانبول، حيث جرى جمع المخططات الهندسية المتوفرة للمباني الأثرية في مدينة حلب، وتم إعادة رسمها من جديد بالتعاون مع فريق من المتطوعين. بلغ عددهم ٣٠ مهندس وطالب متطوع من كلية الهندسة المعمارية بجامعة يلدز التقنية ومن سورية أيضاً.

يهدف المشروع إلى التعريف بعمارة مدينة حلب القديمة وبنسيجها العمراني الثري. والقيام بتوثيق حجم الدمار والأضرار للمباني التي تأثرت بها مدينة حلب. إضافة إلى إعداد قاعدة بيانات للمباني، لتكون هذه القاعدة نواة في مرحلة إعادة الإعمار. وتحفيز الوعي العام بأهمية التراث الثقافي؛ والدعوة للمساهمة في حمايته وتوثيقه.

تكمن أهمية هذا المشروع بأنه سيساهم في تحديد حجم الأضرار التي شهدتها مدينة حلب، وقد جرى توثيق ٥٠ مبنى أثري يعود لفترات زمنية متباينة. وجرى إعداد بطاقة تعريفية تحتوي على معلومات مرتبطة بالمبنى من النواحي التاريخية والمعمارية والإنشائية. مع إعداد رسومات المساقط الأفقية، وتحديد أماكن الدمار والأضرار والشروخ، وتحديدها على المساقط الأفقية والقطاعات والواجهات. كما جرى الاعتماد على الصور الفوتوغرافية قبل الأحداث التي شهدتها مدينة حلب، وصور توثق حجم الدمار، بالإضافة إلى الصور الحديثة تم إلتقاطها بين عامي ٢٠١٨ – ٢٠٢١.

تم اختيار هذا المشروع التوثيقي ضمن القائمة القصيرة لنيل جائزة إيكروم الشارقة للممارسات الجيدة في حفظ وحماية التراث الثقافي في المنطقة العربية، حيث تهدف هذه الجائزة إلى تكريم ومكافأة الممارسات التي تسهم في حماية التراث الثقافي المادي وإحيائه في العالم العربي. كما حصل على جائزة "فوندازوني سانتغاتا" الايطالية،"Fondazione Santagata" في عام ٢٠٢١ وذلك من قبل اللجنة العلمية التي قامت بتقييم المشروع بشكل إيجابي وأكدت أنه قد ركّز وبشكل قوي على أهداف التنمية المستدامة. علماً أن هذه الجائزة يتم تنظيمها سنوياً، بالتعاون مع متحف الفن الكلاسيكي في روما وجامعة سابينزا بإيطاليا.

المشروعات الترميمية

بدأ بمدينة حلب عدد من المشروعات الترميمية، وبعدد محدود وإمكانيات متواضعة، وذلك بسبب أنخفاض أعداد اليد العاملة وأصحاب الخبرة المحلية من جهة، وبسبب ضعف التمويل من جهة أخرى. فكما هو معروف أن مشروعات الترميم تحتاج للتمويل الكافي، وللعمالة وتوفر مواد البناء التي سيتم الاعتماد عليها في أعمال الترميم. ومن أهم المشروعات الترميمية التي تجري حالياً بمدينة حلب الجامع الأموي، ويقع في قلب المدينة القديمة، والجامع من حيث المخطط العام يشبه الجامع الأموي في دمشق، وتقول بعض المصادر التاريخية: إن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بناه ليضاهي به جامع دمشق الذي بناه أخوه الوليد بن عبد الملك في دمشق عام ٧٠٦م.[٤]

تأثر الجامع الأموي بمدينة حلب وكما هو الحال عليه في كثير من المباني الأثرية الواقعة ضمن أسوار المدينة بكثير من الأضرار، ففي تاريخ ٢٤ نيسان عام ٢٠١٣ انهارت مئذنته نتيجة تفجيرها بعبوة ناسفة من قبل عناصر "جبهة النصرة"، وذلك وفق تقارير وكالة الأنباء السورية (سانا). علماً أن هذه المئذنة قد بنيت في عام ١٠٩٠م في عهد ملكشاه السلجوقي ،[٥] إضافة إلى دمار واسع طال القبلية والجدران الداخلية والخارجية وجميع الأبواب والنوافذ، كما تضرر القسم الشرقي من الجامع وبشكل كبير.

مع نهاية الأزمة بمدينة حلب أواخر عام ٢٠١٦م تم تشكيل لجنة لإعادة ترميم الجامع، وكانت أول الأعمال هي توثيق وترقيم الحجارة المتهاوية جراء التدمير للمئذنة، وتوثيق الواجهات المتضررة بثقوب الرصاص، وبدأت أعمال الترميم وفق المعايير الدولية، وأشار مدير المشروع الدكتور صخر علبي أن نسب التنفيذ قد بلغت ٩٠٪ في الواجهة القبلية للجامع والأعمال الكهربائية والخشبية، وأضاف أن نسبة تنفيذ للمئذنة قد بلغت أكثر من ٣٠٪ باستخدام الأحجار القديمة قدر الإمكان، وذلك بعد أن تم توثيقها، وبلغت نسبة تنفيذ الواجهات الرئيسية التي تشرف على الصحن من الداخل حوالي ٧٥٪.[٦]

ومن المشروعات الترميمية التي تم استكمالها بمدينة حلب سوق السقطية، ويقع جنوب المسجد الأموي الكبير، وعلى مقربة من خان البنادقة وخان الحرير، وكان من الأسواق المتضررة جزئياً، إذ بلغت الأضرار فيه إلى ٣٨ - ٤٠ ٪. وقد بدأ تنفيذ المشروع في ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٨ مع الاعتماد على الخبرات الوطنية والمحلية وبإشراف من مجلس مدينة حلب ومديرية الآثار والمتاحف.

ويعدّ مشروع ترميم سوق السقطية نموذجاً سورياً رائداً لإعادة الإعمار، لوجود خبرات علمية وتشاركية بين مؤسسة الآغا خان للخدمات الثقافية في سورية وجهات رسمية وخدمية منها مجلس مدينة حلب القديمة والمديرية العامة للآثار والمتاحف وأهلية تمثلت بالأمانة السورية للتنمية.[٧]

جاء اختيار سوق السقطية وفق معايير وضعها فريق العمل ليكون فاتحة لمشروعات إعادة الحياة إلى أسواق حلب القديمة لكونه أحد مراكزها الأساسية وسوقاً شعبياً يضم نسيجاً اقتصادياً متنوعاً وفعاليات تجارية مهمة. وقد نال جائزة "ايكروم" الشارقة للممارسات الجيدة في حفظ وحماية التراث الثقافي في المنطقة العربية استغرق نحو ٨ أشهر وتم الانتهاء منه في تموز عام ٢٠١٩.

كانت مشروعات الترميم التي تم البدء بها بتمويل خارجي، ومعظم تلك المباني كانت مبان دينية أو تجارية، في حين ظلت الدور السكنية المتأثرة بالدمار بحالة إنتظار، لعدم توفر الميزانية المطلوبة من قبل ساكنيها.

النتائج

اختلفت معايير اختيار المباني التي جرى ترميمها بمدينة حلب، ولم ترتبط بالأهمية المعمارية فحسب، بل هناك معايير اجتماعية أو دينية، ففي حالة الجامع الأموي، وبالإضافة لقيمته التاريخية لكونه أول جامع كبير يبنى بمدينة حلب وخلال الفترة الأموية، ففيه قيمة رمزية ودينية أيضاً. بينما كان سبب اختيار سوق السقطية لأهميته في إحياء الذاكرة المجتمعية عند سكان مدينة حلب. وقد اختلف الفلاسفة والمفكرين حول طبيعة الذاكرة فمنهم من يرى أنها ذات طبيعة اجتماعية، وبنقيض ذلك هناك من يعتقد أنها ذات طبيعة فردية. كما كان لعلماء الاجتماع الكثير من البحوث والدراسات حول موضوع الذاكرة في مجال العلوم الثقافية والذاكرة، ومن بينهم عالم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي موريس هالبواكس (Mauric Halbwachs) ، ففي كتابه: الأطر الاجتماعية للذاكرة Les cadres sociaux de la mémoire الصادر عام ١٩٢٥م،[٨] حيث أشار إلى موضوع الذاكرة الجمعية، وأنها ذات طبيعة اجتماعية تبدأ وتنتج وتخزن عندما يبدأ الارتباط بالمجتمع.

تعدّ عملية إحياء ذاكرة المكان بما فيها من تفصيلات وحكايات وشخوص من الأمور الهامة والضرورية التي يمكنها أن تساهم في إنشاء رابط قوي بين الإنسان ووطنه والمكان الذي ينتمي إليه، إضافة إلى تعميق حسه بالانتماء، إذ يشتغل المخزون المخيالي للذاكرة الجمعية على استعادة المكان عند الضرورة، سواء في حالة الحنين أو الفقدان أو الألم أو الشعور بالغربة أو غيرها من المشاعر.

ولهذا يمكن القول بأنه لم تكن هناك معايير ثابتة وواضحة لإختيار الحالات. في حين ظلت المشروعات الترميمة الخاصة محدودة.

وبخصوص المعايير الدولية نلاحظ أن هناك جهود مشتركة بين جميع الجهات المعنية الرسمية بمدينة حلب من مديرية الآثار والمتاحف والبلدية والأوقاف في متابعة جميع الأعمال الترميمية، للحفاظ عليها ورعايتها. ولا يتم تنفيذ أي مشروع ترميمي بمدينة حلب القديمة دون الحصول على الموافقة من مديرية الآثار والمتاحف، ومراجعة المخططات الهندسية للمشروع وتصديقها قبل البدء بأعمال التنفيذ. ولكن من الضروري أيضاً الإطلاع على المشاريع العالمية التي جرى ترميمها، للاستفادة منها في المشروعات المحلية.

ومن أهم المعوقات والعقبات التي وقفت في وجه المشروعات الترميمية بمدينة حلب، نقص الكوادر الهندسية والفنية والخبرات اللازمة لعملية إعادة الإعمار، إضافة إلى نقص أعداد الخبراء والمهندسين وعمال البناء والحرف التقليدية المهرة. ووجدنا أن أهم المشروعات الكبيرة جرى دعمها خارجياً مثل حالة الجامع الأموي أو سوق السقطية، بينما جرى ترميم المشروعات الصغيرة وخاصة الجوامع والمساجد بدعم المتبرعين، في حين ظلت المباني السكنية وبعض المحلات التجارية بدون أعمال ترميم لعدم وجود القدرة المالية لدى سكانها وأصحابها بقيام أعمال الترميم لتلك المباني.

وقد تأثرت الهوية العمرانية لمدينة حلب سلباً نتيجة الدمار والضرر الذي شهدته المدينة، ولم يقتصر الخراب والدمار على الأبنية أو البنى التحتية لها فحسب، بل كان هناك أثر سلبي على المجتمع المحلي، ونتج عن ذلك هجرة الكثير من أبناء حلب، وبدأ ينمو ويكبر جيل جديد بعيد عن مدينة حلب لا يملك أي ذكريات أو روابط أو مشاعر تجاه مدينته. وهنا تكمن مسؤولية جديدة في ربط كل من غادر وهاجر مدينة حلب بربطه بمدينته وحثه للعودة إليها.

التوصيات والمقترحات

- إحداث أرشيف مركزي واحد لمدينة حلب ولمبانيها الأثرية على شكل بنك رقمي للمعلومات المتعلقة بالتراث العمراني والمعماري لمدينة حلب. وأن يحتوي على معلومات تفصيلية عن النسيج العمراني لمدينة حلب وأحياء المدينة ومبانيها التراثية. وأن يكون لكل مبنى بطاقة تحتوي على معلومات تاريخية ومخططات هندسية وصور فوتوغرافية قديمة وحديثة. وأن تكون تلك القاعدة باللغتين العربية والإنكليزية. وأن تكون دائمة التحديث، لتكو ن مرجع لجميع الباحثين والمهتمين بتاريخ مدينة حلب وبعمائرها.
- ضمان المنهجية العلمية في أعمال التوثيق والترميم والقيام بالتنسيق بين جميع الجهات المعنية في هذا المجال من النواحي الأكاديمية والعلمية والعملية، مثل كلية الهندسة المعمارية بجامعة حلب، ونقابة المهندسين، إضافة إلى الجهات الرسمية المعنية في مجالات الترميم مثل: مديرية حماية حلب القديمة التابعة لمجلس المدينة، ومديرية الآثار والمتاحف، ومديرية الأوقاف، ومديرية السياحة. والتعرف إلى الأنظمة والقوانين الدولية المتعلة بموضوعات التوثيق والترميم.
- وضع خطة أولية وشاملة لإعادة إحياء مدينة حلب القديمة ومبانيها الأثرية، وبشكل متكامل، وأن لا تقتصر عملية الترميم على مبنى دون آخر، مع تحديد أولويات عملية إعادة الإعمار، ووضع معايير واضحة المعالم في اختيار المباني التي سيتم ترميمها، وتحديد مصادر التمويل وايجاد سبل التعاون والتنسيق مع المنظمات الدولية، والتعرف إلى التجارب الدولية التي مرت بحالات مماثلة للإستفادة من المنهجية التي تم الاعتماد عليها في عملية إعادة الإعمار.
- إقامة مراكز للتدريب على الحرف التقليدية المرتبطة بالتراث المعماري وحول ترميم الأبنية الأثرية، والقيام بتأهيل الكوادر البشرية العاملة في مجال الترميم والإعمار. وتأمين المناخات المناسبة لإستعادة الخبرات. والدعوة لإحياء الكثير من الحرف المتعلقة بالبناء بعد أن تركها الكثير بسبب الهجرة أو اللجوء لمدن أخرى. والبحث عن أصحاب الخبرات في الدول المجاورة لسورية للاستفادة من خبراتهم في تدريب الشباب المغتربين مما يمكن أن يسهل لهم فرص عمل بالخارج وحثهم على العودة إلى الوطن والمشاركة في عملية إعادة الإعمار.
- تقديم تسهيلات لعودة السكان إلى بيوتهم المتضررة، مع تأمين قروض يمكن أن تساعد السكان للبدء بترميم مبانيهم السكنية أو محلاتهم التجارية. والقيام بإجراء تعديلات في النظام العمراني أو الصفات العمرانية الحالية لمدينة حلب، والقيام بإعادة دراسة القرارات الحكومية والمراسيم، بما يتناسب مع الوضع الراهن للمدينة.

المراجع

١. الخضر عبد المعطي: تاريخ العمارة – العمارة في العصور الوسطى- العمارة الإسلامية والأوروبية الجزء الثالث، حلب، ١٩٩٠م.
٢. زين العابدين محمود: مشروع "حلب بين الأمس واليوم نحو المستقبل"، كلية الهندسة المعمارية، جامعة يلدز التقنية، إسطنبول، ٢٠١٩.
٣. شعث شوقي: قلعة حلب تاريخها ومعالمها الأثرية- دار القلم العربي بحلب.
٤. صحيفة الجماهير، شباط/فبراير ٢٠٢١، رقم العدد ١٦٣٠٤
٥. كلود دافيد جان، حريتاني محمود: "حلب مدينة التاريخ"، شعاع للنشر والعلوم، حلب، الجمهورية العربية السورية، ٢٠١١م
٦. موقع شبكة دمشق الاخبارية الالكتروني، ثلاث مراحل لإعمار حلب.. أعمال تأهيل البنى التحتية مستمر، ٤ آب ٢٠١٨.
٧. وكالة الأنباء السورية (سانا)، دمشق، ١٠ تشرين الثاني، ٢٠٢٠م.
8. LES CADRES SOCIAUX DE LA MÉMOIRE, Maurice HALBWACHS (1925), Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay, professeur de sociologie au Cégep de Chicoutimi. Site web: http://bibliotheque.uqac.uquebec.ca/index.htm

مدينة حلب التاريخية:
مشاريع إعادة التأهيل بعد الحرب

د. هلا أصلان | استشاري تأهيل التراث الثقافي المتضرر بعد الحرب
خبير المجلس الدولي للصروح والأوابد التاريخية (ICOMOS)- اليونيسكو
خبير اللجنة الدولية للمدن والقرى التاريخية (CIHHIV)

مع بدء الأزمة السورية عام ٢٠١١، والتراث السوري يعاني من دمارٍ كبيرٍ ونهبٍ وسرقةٍ وتعدياتٍ مختلفة الأشكال والأساليب، في كانون الأول عام ٢٠١٤، أكدت الأمم المتحدة أن ما يقرب من ٣٠٠ من المواقع الأثرية الرئيسية تم تدميرها أو أُتلفت أو نهبت. استنادا إلى صور الأقمار الصناعية، فإنّ أربعاً وعشرين موقعاً قد شهدت دماراً تاماً، ومئة وأربع مواقع تعرضت لأضرارٍ جسيمةٍ، وخمسٌ وثمانون موقعاً لأضرارٍ متوسطةٍ. كما تجدر الإشارة إلى أنّ المواقع السورية الستة المسجلة على لائحة التراث العالمي إما دمرت أو تضررت (من بينها مدينة حلب القديمة المسجلة سنة ١٩٨٦م).

منذ اندلاع النزاع في حلب عام ٢٠١٢ ، تعرضت المدينة القديمة لأضرار جسيمة على جميع المستويات، تم الإعلان عن العديد من مشاريع إعادة التأهيل والإعمار بعد التحرير. تمّ تنفيذ غالبية هذه المشاريع بأيدٍ كوادر وطنية سورية بمشاركة خبراء دوليين في بعض الأحيان. كان للدعم الدولي دور هام في دوران عجلة التأهيل وبخاصة في الأسواق القديمة، حيث كانت مؤسسة الآغا خان للثقافة الشريك الأساسي، تمّ العمل وفق استراتيجياتٍ محددة هدفت إلى تنشيط القوة الاجتماعية والاقتصادية للمدينة والحفاظ على قيّمها المادية وغير المادية. بالإضافة إلى التعامل مع التراث الثقافي كأداة للتعافي وبناء السلام الوطني في المجتمع السوري الذي مزقته الحرب.

سنستعرض سويةً واقع مدينة حلب القديمة كنموذج للمدن العربية المتضررة من الحرب والاستراتيجيات المتبعة في إعادة تأهيل والبناء مع مناقشة عددٍ من مشاريع المنفذة حتى تاريخ انعقاد المؤتمر، والتي تشمل الأسواق، المساجد والجوامع، الدور السكنية والقلعة رمز مدينة حلب.

مقدمة

خلال الحروب غالباً ما يكون التراث الثقافي ومحيطه العمراني هدفاً للدمار، لكنَّ حجم الدمار لهذا التراث خلال العقدين الأولين من القرن الواحد والعشرين، وبخاصة في سورية والعراق وليبيا كان مروعاً وغير مسبوقٍ عبر ما هو معروف في تاريخ البشرية.

إنّ قيمة التراث الثقافي بالنسبة لأي شعب، والتأثير السلبي لخسارته بالنسبة للذاكرة المجتمعية من أبرز الأسباب وراء استهدافِهِ، وهي في ذات الوقت الدافع الأساسي لإعادة بنائه.

مع اندلاع الأزمة في سورية في شهر آذار ٢٠١١، عانى التراث السوري من دمارٍ كبيرٍ ونهبٍ وسرقةٍ وتعدياتٍ مختلفة الأشكال والأساليب، لدرجة أنّ المواقع السورية الستة المسجلة على لائحة التراث العالمي لليونيسكو (مدينة دمشق القديمة، مدينة حلب القديمة، تدمر، قلعة الحصن وقلعة صلاح الدين وبصرى) قد تمَّ تسجيلها على لائحة التراث الثقافي العالمي المهدد بالخطر سنة ٢٠١٣م.

حلب التاريخية قبل العام ٢٠١١

مدينة حلب القديمة على لائحة التراث العالمي لليونيسكو منذ عام ١٩٨٦م، لِما تمتازُ بهِ من أوابد أثرية متعددة ومتنوعة الوظيفة ولنسيجها العمراني المتكامل الممتد على مساحة تُقارب ٣٦٤ هكتار. كما أنّها تشكل محطةً هامة على طريق الحرير التجاري الهام الذي ربط بين الصين وآسيا من جهة وأوروبا وإفريقيا من جهة أخرى. وقد اُختيرت عاصمةً للثقافةِ الإسلاميةِ عام ٢٠٠٦م، تأكيداً على هذه الأهمية.

الدمار في مدينة حلب القديمة بعد الأزمة

وصل النزاع إلى حلب في شهر تموز ٢٠١٢ واستمر حتى كانون الأول ٢٠١٦، تعرضت المدينة القديمة خلالها لأضرار بالغة طالت نسيجها العمراني والمعماري، وشُلّت فيها العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تدعم الحياة في أسواق حلب سابقاً.

تضررت العديد من المعالم التاريخية، بعد مسح شمل ٥١٨ مبنى تاريخي وبحسب تقارير الـ UNESCO UNITAR-٢٠١٨ تشير التقديرات إلى تضرر أكثر من ٦٠٪ من المدينة القديمة: ١٠٪ من مباني المدينة القديمة مدمرة بالكامل، ٥١٪ تعرضت لأضرار متوسطة، يمكن إعادة بنائها جُزئياً أو ترميمها.

كان هذا الدمار دافعًا لليونسكو، في عام ٢٠١٣ لتصنيف المدينة "موقع معرض للخطر" في قائمة التراث العالمي المعرض للخطر، وفقًا للمادة ١١، الفقرة ٤. ومعالجة وضعها في الاجتماعات السنوية كتعبير واضح عن قلق المجتمع الدولي للحفاظ على قيمتها العالمية الاستثنائية.

عادةً ونتيجةً للحرب لا تمتلك الحكومات الموارد الكافية لعملية إعادة الإعمار. الوضع في سورية لم يكن استثناءً، بالتالي، كانت هناك حاجة إلى نموذج تشاركي تعاوني حقيقي لصهر كافة الجهود في بوتقةٍ واحدة، يهدف لاستيعاب الاحتياجات والأولويات المختلفة من قبل المجموعات المختلفة والتأثير في النهاية على عملية صنع القرار.

ترميم وإعادة تأهيل مدينة حلب التاريخية لاستعادة قيمها التاريخية والثقافية والاقتصادية هو الهدف الأسمى لجميع الجهات المعنية، بدأت مشاريع على عدة محاور بآن واحد:

- مشاريع سكنية (فردية التمويل).
- مشاريع ترميم وتدعيم وإعادة بناء لأبنية ذات صبغة دينية كالكنائس والجوامع والمساجد والمدارس...إلخ.
- مشاريع على مستوى المدينة التاريخية ككل بالتعاون بين الجهات الرسمية وجهات دولية ممولة ومنظمات محلية والمجتمع الأهلي (الأسواق نموذجاً).

بالإضافة إلى مشروع تأهيل القلعة.

أولاً: المشاريع السكنية (فردية التمويل)

اعتمدت هذه المشاريع على الترميم بشكل إسعافي لأغراض سكنية، تهدف لعودة سكان المنازل الأصليين إليها لاستعادة حياتهم السابقة قبل الحرب.

هذه العودة غير المدروسة من الناحية التخطيطية والعمرانية والمعمارية غالباً ما تؤدي إلى ممارساتٍ خاطئة تُسيئ للأبنية القديمة والنسيج التاريخي للمدينة، على الرغم من أنّ هذا التأهيل أو الترميم يتم من خلال الحصول على رخص تدعيم وترميم نظامية من الجهات الرسمية المعنية كالآثار والبلدية ولجنة حماية المدينة القديمة..إلخ، ويكون التمويل من أصحاب العقار أنفسهم، في ظل غياب أي دعم مادي أو عدم منحهم قروض قصيرة أو متوسطة الأمد لتساعدهم على الإنجاز بالشكل الصحيح الذي يحفظ القيمة التراثية لهذه الدور السكنية. مثال عنها :

- **دار تراثية** قديمة خاصة مؤرخة للعام ١٨١١ للميلاد، تقع في منطقة الدودو التي تعود للحقبة المملوكية. يمتلك البناء العديد من العناصر المعمارية التراثية المميزة سواء في المسقط أو الواجهات لكن أبرزها أسقف الغمس والعقود المتصالبة والأدراج الحجرية والأسقف الخشبية بالإضافة إلى البلكونات المحمولة على بروفيلات حديدية والزخارف والفتحات التقليدية. كانت الدار متضررة بنسبة تُقارب الـ ٨٠٪، وابتدأت الإجراءات الرسمية باستصدار أصحاب العقار لرخصة إعادة بناء وترميم للأجزاء المتهدمة. ليبدأ عمل المهندسين الدارسين من توثيق للوضع الراهن وفرز الأحجار والأنقاض، وترقيمها ومن ثمّ فك الأجزاء المتداعية ليصار إلى تركيبها بالشكل الإنشائي المناسب. من أبرز الصعوبات التي واجهها العمل هو تأمين اليد الحرفية الفنية الخبيرة في ظل المشاريع العديدة في المدينة.

الصورة ١: دار تراثية خاصة مؤرخة للعام ١٨١١ للميلاد، تقع في منطقة الدودو.

ثانياً: تأهيل الأبنية الدينية

يظهر جلياً عدم اتباع استراتيجية محددة في إعادة تأهيل الأبنية الدينية في حلب القديمة، تتجلى في اعتباطية توزع الجوامع المرممة في أماكن متفرقة من المدينة وبدون ترابط، وذلك لعدة أسباب أهمها:

- عدم وجود أو عدم تخصيص ميزانية تفي بأعمال التأهيل للمباني الدينية المتهدمة، بعد سنوات الحرب الطويلة التي استنزفت موارد الدولة.
- الحصار الاقتصادي والعقوبات الدولية على سورية تمنع وصول التمويل الخارجي حتى من المؤسسات الدولية الهامة لتسهم في عملية إعادة الإعمار.
- غياب التمويل والتبرع القوي الذي يسمح باستعادة مجمعاتٍ دينية بأبنيتها الملحقة كالخسرفية (جامع- مكتبة- مطبخ...)

ما تمّ إجراؤه حتى الآن هي أعمال تدعيم أولية إسعافية لمنع انهيار العناصر الإنشائية الحمّالة، التي تؤثر بزوالها على هيكلية الجامع أو المدرسة الدينية.

غياب القدرة المادية لترميم الخانات (مثل خان الصلاحية، فنصة) والمحلات التجارية ذات الريع الوقفي والتي تدعم عملية التمويل الذاتي للوقفيات.

من أهم الخانات الوقفية في حلب

خان الجمرك، خان الكتان، خان عمر سالم: مُلّاك الخان، ومستخدميه من التجار أعادوا تأهيلها كجزء من مبادراتٍ مستقلة تهدف إعادة تشغيل الحرفيين واستعادة دوران عجلة العمل التجاري، على سبيل المثال: قامت الأمانة السورية للتنمية بتأهيل خان الحرير، في حين أنّ خان التتن مهجور وغالبية شاغليه مهاجرون خارج سورية.

تجدر الإشارة إلى أنّ ما تمّ بناؤه وتأهيله من مبانٍ دينية وقفية حتى الآن ناتج عن التبرعات الفردية للمجتمع المحلي

مشروع ترميم الجامع الأموي

يُعتبر ترميم الجامع الأموي في قلب حلب القديمة مشروعاً وطنياً مُرتبطاً بالكرامة الوطنية إذ يمثل الجامع الهوية المكانية لحلب كمدينةٍ إسلامية وإعادة تأهيله تُعطي بارقة أمل وتؤكد قدرة الدولة على النهوض بعد سنوات الحرب الطويلة.

هو أحد أكبر وأقدم المساجد في مدينة حلب السورية، حيث يقع المسجد في حي الجلوم في المدينة القديمة، وهو يقع بالقرب من سوق المدينة. كما يُعرف الجامع أيضاً بوجود ما بقي من جسد النبي زكريا.

يقوم الجامع اليوم على مساحة يبلغ طولها ١٠٥ أمتار من الشرق إلى الغرب، ويبلغ عرضه نحو ٧٧,٧٥ متر من الجنوب إلى الشمال وهو يشبه إلى حد كبير في مخططه وطرازه الجامع الأموي الكبير بدمشق.

بعد تحرير حلب مباشرة تمّ الدخول إلى الجامع، ولكن كان هناك عمليات إزالة الأنقاض التي استغرقت وقتاً طويلاً،

تمّ إنجاز قسم كبير من العمل. إذ أنّ معظم الأمور التقنيّة قد تم الانتهاء منها. ولايزال هناك أحجار كثيرة في صحن الجامع وبالتالي لم ينتهي العمل بما يخصّ الأرضية، وحالياً يتم وضع هذه الأحجار في مكانها المناسب.

مشروع ترميم الجامع هو واحد، ولكنه في حقيقة الأمر هو عدة مشاريع تبعاً لأقسام الجامع، وإن أردنا الحديث بتفصيل أكثر، فإن العمل في كل المساقات ولكن بنسب مختلفة، حسب ظروف العمل.

ما تم إنجازه اليوم عملٌ كبير وضخم، إذ أنّ معظم الأمور التقنيّة قد تم الانتهاء منها. ولايزال هناك أحجار كثيرة في صحن الجامع وبالتالي لم ينتهي العمل بما يخصّ الأرضية، وحالياً يتم وضع هذه الأحجار في مكانها المناسب.

ضمن مشروع الترميم، تمت إعادة بناء المئذنة بنسبة ٣٠٪، فالمئذنة تستغرق وقتاً طويلاً إذ أن كل طبقة من طبقاتها تستغرق شهراً، مع العلم بأنّ المئذنة مؤلفة من ثمانين طبقة، وقد انتهى الفريق الوطني العامل على المشروع بإدارة الدكتور صخر علبي، من ثلاثين طبقة ويتبقى العمل على خمسين طبقةٍ أخرى، فإذا كانت كل طبقة تستغرق مدة شهر فهذا يعني أن المئذنة تستغرق حوالي السنتين، أما بقية الأقسام والأجزاء فتنتهي قبل هذه المدة.

في حين أنّ الإنجاز الأكبر كان في القبليّة (المصلى الرئيس) إذ وصل إلى مرحلة تركيب التجهيزات (التكييف، التهوية) بعد أن استغرق العمل فيها الوقت الأكبر من مشروع تأهيل الجامع الأموي الكبير في حلب، تمّ إنجاز ما نسبته ٩٠٪، مع الانتهاء من أعمال الأبواب الخشبية تماماً، والتي تم تصنيعها ومعالجتها لتستطيع تحمل الظروف المناخية، وحالياً يتم تركيبها. مرحلة تصنيع السجاد قد شارفت على الانتهاء. إذ قام الفريق الدارس بتشكيل تصميم بالنسبة للسجاد لا يصلح لأي مكان آخر، مُستقى من الجملة الإنشائية للقبليّة.

الصورة ٢: إعادة بناء مئذنة الجامع الأموي الكبير في حلب التاريخية.

الكنائس:

سنورد نموذجاً عن إعادة تأهيل الكنائس في حلب "كاتدرائية مار الياس المارونية"، والتي تم العمل عليها بعد جمع التبرعات من أبناء الكنيسة وسواها.

كاتدرائية القديس الياس هي كنسية شرقية تقع في حي الجديدة. بُنيت الكنيسة في العام ١٨٧٣م في مكان كنيسة مارونية قديمة. تمّ تجديدها في العام ١٩١٤م.

أثناء الاعتداءات الإرهابية على حلب، طالها الدمار الكبير ليتمّ الانتهاء من ترميمها في العام ٢٠٢٠م. كان للإسراع بإعادة تأهيلها وإحياء الاحتفالات الدينية المسيحية في المدينة عدة رسائل على كافة المستويات، من أبرزها التأكيد على التنوع الديني لمدينة حلب، التأكيد وتعزيز التعايش بين مختلف الأديان والطوائف والمذاهب في المدينة والتي كانت منصهرة في بوتقة المجتمع السوري قبل الحرب.

ثالثاً: مشاريع عامة على مستوى مدينة حلب القديمة

وقعت الأضرار الجسيمة الأولى داخل المنطقة التجارية في سبتمبر ٢٠١٢ ، عندما اندلع حريق هائل في الأسواق المغطاة الواقعة في الجانب الشرقي من المسجد الكبير ، مما أدى إلى احتراق حوالي ١٥٠٠ متجر. انهارت أسطح عدة أسواق بينما دمرت أسواق أخرى بالكامل. لم تمثل الأضرار التي لحقت بالمنطقة التجارية اختفاء قطع فريدة من التراث الثقافي فحسب، بل مثلت أيضًا تدمير شعار حلب كمدينة تجارية.

كما هو معلوم ونتيجة الحرب لا تمتلك الحكومات الموارد الكافية لعملية إعادة الإعمار. الوضع في سورية لم يكن استثناءً، بالتالي، كانت هناك حاجة إلى نموذج تشاركي تعاوني حقيقي لصهر كافة الجهود في بوتقة واحدة، يهدف لاستيعاب الاحتياجات والأولويات المختلفة من قبل المجموعات المختلفة والتأثير في النهاية على عملية صنع القرار.

أنشأت الحكومة السورية "اللجنة التوجيهية الوطنية العليا لترميم مدينة حلب القديمة" برئاسة وزارة الثقافة وممثلة في المديرية العامة للآثار والمتاحف (DGAM)، وزارة الأشغال العامة، وزارة الإسكان، وزارة السياحة، وخبراء في مجال الآثار والترميم، ومؤسسة الآغا خان للثقافة(AKTC)، الأمانة السورية للتنمية (STD) غير الحكومية وممثلي المجتمع المحلي للتدخل من أجل تمهيد الطريق لاستعادة المدينة القديمة. في عام ٢٠١٧، بدعم من اليونسكو، تعاونت الجهات السابقة مع القطاع الخاص والمجتمع المحلي (صناع القرار، مالكي ومستأجري المحلات التجارية، العملاء، سكان المدينة) بهدف تحديد الأولوية لسلسلة التدخلات، والتوصل إلى إجماع في اتخاذ القرار وفقًا للرأي المحلي، بالإضافة إلى اختيار الخبرات المحلية لتكون قادرة على المشاركة في عملية الاستعادة وفقاً للقوانين والأنظمة السارية في الجمهورية العربية السورية.

عملت اللجنة التوجيهية على إعداد استراتيجية لعملية استعادة حلب، أقرت من خلالها بأنّ عملية التعافي ستتطلب سنوات عديدة من العمل. لذلك ، حددت جدولًا زمنيًا يتكون من ثلاث مراحل لجميع الأنشطة التي سيتم تنفيذها على :

- المدى القصير (٢٠١٨ - ٢٠٢٠)
- المدى المتوسط (٢٠٢٠ - ٢٠٢٤)
- المدى الطويل (٢٠٢٥ - ٢٠٣٤ +).

شهدت الخطط التي تم تحديدها في المرحلتين القصيرة والمتوسطة المدى بالفعل بعض التدخلات العاجلة والتقييمات الأولية. تم اختيارها لدورها الرمزي والهام في حياة المجتمع المحلي. وبالتالي، فإن إعادة بنائها يمكن أن تقوي الروح المحلية وتسرّع انتعاش وإعادة تأهيل المدينة. من أجل استعادة الشعور بالأمن والأمل لسكان المدينة بعد الحرب، صندوق الآغا خان بالتعاون مع المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية(DGAM) ، من خلال Old city of Aleppo، Building Information and Preliminary: Damage Assessment in Three Pilot Conservation Areas.

اتبع منهجية معينة قابلة للتكرار، تمّ من خلالها اعتماد عيناتٍ ثلاث تحتوي على مختلف الوظائف الدينية، التجارية، الاجتماعية والسكنية ... لتشكيل نموذج يُمكن تكراره وتطبيقه على المدينة القديمة برمتها. من خلال توثيق الوضع الراهن لثلاث عيّنات دراسية وتحليلها وتقييمها وهي –كما يظهر في المخطط-:

- •منطقة ١: الأسواق/ منطقة الجامع/مدرسة الشيبانية
- منطقة ٢: القلعة ومحيطها.
- منطقة ٣: باب الأحمر ومنطقة البيّاضة.

يذكر أنه تمّ اختيار" الأسواق "أو المراكز التجارية التاريخية، في المرحلة التالية، لما لها من تأثير على المدينة:

- أولاً ترتبط الأبعاد الاقتصادية بحقيقة أنّ الأسواق القديمة تحظى بشعبية بين مختلف فئات الدخل وخاصة ذوي الدخل المنخفض. غالبًا ما ترتبط أنشطة التجارة والترويج ببيع المنتجات والسلع اليومية.
- ثانياً: ترتبط الأبعاد الاجتماعية والثقافية بحقيقة أن السوق هو دائمًا مكان للتفاعل الاجتماعي والثقافي والتبادل والمناقشات والحوار وكذلك التجارة.
- ثالثاً: إنشاء الصلة (المرحلة الانتقالية) بين التأهيل وإعادة الإعمار ومرحلة التنمية بعد النزاع ضرورة مُلحة . وبالتالي، كان من المهم اختيار مشروع له تأثير فوري ومباشر لتحسين المزاج العام للناس، وفي نفس الوقت يكون له تأثير تدريجي على حيوية "السوق" ومُرتاديه وأصحاب المتاجر المحلية.
- رابعاً: تمّ إعطاءُ الأولوية للأسواق لأنها الشرايين التي تربط الأقسام المختلفة من المنطقة، والمحور الحضري الرئيسي للسكان المحليين وترميمها وإعادة تأهيلها من شأنه تسريع تعافي الأنشطة الاقتصادية داخل المنطقة.

وقد قُدرت تكلفة إعادة الإعمار وإعادة التأهيل للمنطقة التجارية المركزية ما بين ٥٠ و ٧٢ مليون دولار أمريكي تقريبًا بحسب دراسات مؤسسة الآغا خان (AKTC ٢٠١٨).

الصورة ٣: الأضرار في مدينة حلب القديمة ما بين عامي ٢٠١٣-٢٠١٦

إعادة إعمار وتأهيل الأسواق في المنطقة التجارية المركزية

استجابةً للخطة الخاصة لإعادة إعمار وتأهيل الأسواق المركزية، تبرع صندوق الآغا خان للثقافة لإعداد الدراسات المطلوبة لاستعادة قسم من الأسواق وتوفير الإشراف الفني بالتعاون مع موظفي المديرية العامة للآثار والمتاحف. في ضوء جميع المعوقات المذكورة سابقاً، كان من الضروري تقسيم العمل إلى عدة مراحل من التنفيذ والبدء بمشروع تجريبي يمكن من خلاله فحص مستوى التنسيق والإدارة. وقد تم اختيار سوق السقطية لهذا الغرض آخذين بعين الاعتبار عدة نقاط:

- موقع السوق المركزي ضمن النسيج العمراني للمنطقة التجارية التي تتيح امتدادًا متوازنًا لأعمال الترميم وإعادة الإعمار المستقبلية في الأسواق المحيطة،
- وظيفة السوق ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالاحتياجات المحلية اليومية لسكان حلب،
- أسلوب البناء المتطابق والمتكرر الذي يُقلل من الوقت اللازم للترميم دراسة مقارنة ببعض الأسواق الأخرى التي تتضمن طبقات تاريخية وتقنيات بناء مختلفة،
- وأخيراً معدل الضرر المعتدل الذي يقلل من الوقت اللازم للتنفيذ.

مع جميع البيانات التي تم جمعها واتخاذ القرارات، قام المكتب الدارس المتعاقد وبإشراف صندوق الآغا خان للثقافة ببناء نمذجة معلومات البناء التاريخية (HBIM) وأعدوا مشروع ترميم السوق بجميع الأعمال المقترحة والمواصفات الفنية. تم إسناد العمل إلى مقاول محلي متخصص سبق له العمل في عدة مشاريع مع صندوق الآغا خان للثقافة من أجل ضمان جودة التنفيذ. كان حجم الأعمال اللازمة قابلاً للإدارة وبالتالي يمكن حل مشكلة نقص العمالة ومواد البناء، والتي لا تزال واحدة من التحديات الرئيسية التي تواجه مشاريع الترميم في المدينة القديمة. إذ بلغ عدد العمال حوالي ٦٠ شخصًا، جميعهم من السكان المحليين.

أتاح التنسيق المستمر والفعال إنهاء المشروع ضمن الإطار الزمني المخطط له والذي تم تحديده بـ ١١ شهرًا. بعد الانتهاء، تم إعداد دليل الصيانة وتسليمه إلى DGAM وأصحاب المتاجر لضمان جودة أي إصلاحات أو تدخلات مستقبلية.

بعد الانتهاء من المشروع التجريبي لسوق السقطية، بدأ فريق عمل مؤسسة الآغا خان للثقافة بتأهيل الأسواق المجاورة باتجاه الغرب للمشروع لإعادة الربط التقليدي من السوق باتجاه الشمال. تجري الأعمال حالياً في سوق خان الحرير وسوق أبراك سوق المجيدية، سوق الأحمدية (البهرمية)، ساحة الفستق. على نطاق أوسع، تعمل اللجنة الوطنية على إنعاش تطوير خطة لإعادة التأهيل الاجتماعي والاقتصادي للأسواق التاريخية بناءً على نتائج تقييمات الاحتياجات.

في الختام، أثبت مشروع سوق السقطية أنه على الرغم من جميع العوائق، من الممكن تنفيذ مشاريع متوسطة الحجم ومنخفضة الميزانية بنجاح في المرحلة القصيرة الأجل بمجرد أن يكون التنسيق بين جميع أصحاب المصلحة المعنيين فعالاً بشكل كامل. لضمان نتائج مستدامة ، يجب اعتماد المبادرات التي تم اتباعها في هذا المشروع والتي أثبتت فعاليتها، وصياغتها في أدوات وآليات يمكن أن تساعد في تسهيل أنشطة التعافي في المرحلتين المتوسطة والطويلة الأجل. حالما يتحقق ذلك يمكننا القول أن مشروع سوق السقطية نجح في تحقيق هدفه الرئيسي كمشروع تجريبي.

نتيجةً لكل ما سبق عرضه فقد فاز المشروع بالجائزة الكبرى لـ"ايكروم الشارقة عن الفئة الأولى "المباني والمواقع التراثية"، مشروع "إعادة تأهيل سوق السّقطيّة بحلب / الجمهورية العربية السّورية"، المقدم من شبكة الآغا خان للتنمية، لاعتماده مقاربة تشاركية أفضت إلى إنجاز نموذجي أعاد الأمل لمركز تاريخي طحنته حرب مدّمرة.

الصورة ٤: الدمار الحاصل في سوق السقطية، ٢٠١٧.

الصورة ٥ : سوق السقطية التاريخي في حلب القديمة بعد التأهيل، ٢٠٢٠.
(AKTC, Aga Khan Cultural Services- Syria FB page©).

التوصيات

تجدر الإشارة إلى أنّ العمل على إعادة تأهيل موقع للتراث العالمي وبخاصة مدينة مأهولة بالسكان منذ آلاف السنين بدون انقطاع كمدينة حلب القديمة، يُعتبر عملاً مُعقداً على عدة محاور، لكن لا بُدّ من تضافر الجهود بين جميع الجهات المعنية للحفاظ على القيمة التاريخية الاستثنائية البارزة لحلب التاريخية، لذلك فإننا نضع بعض التوصيات التي يُمكن أن تسهم في تحقيق المطلوب، من أبرز التوصيات:

- السعي لتدريب حرفيين من الشباب اليافعين ليسهموا لاحقاً في عملية إعادة الإعمار، مع السعي بشكل موازٍ لاستعادة الحرفيين المهرة الذين أجبرتهم ظروف الحرب على السفر.
- وضع خطة عمل و منظومة صيانة دورية سنوية إلزامية للأبنية التراثية في حلب القديمة (سكنية، خدمات، تجارية صحية...). على أن تتحمل الجهات المانحة وبلدية حلب عبأها الاقتصادي ليتم لاحقاً استيفاءها وتحصيلها مع رسوم الملكية أو من صندوق خاص بالتبرعات.
- وضع دراسة دقيقة عن وضع البناء العشوائي داخل المدينة القديمة، ومحاولة إزالة العناصر المخالفة من قبل الأزمة مع اعتماد آليات جديدة صارمة تمنع ارتكاب مخالفات جديدة.
- رصد كامل ودقيق لجميع المخالفات السابقة ودراسة إمكانية إزالة ما يمكن إزالته لتخفيف التشوهات.
- حصر دراسات وتدقيق الأضابير الهندسية بالمتخصصين الاستشاريين الذين يحصلون على المرتبة الهندسية من نقابة المهندسين السوريين أصولاً.
- توجيه الدوائر المختصة بعدم تغيير الصفة التنظيمية والوظيفية للأبنية القديمة بشكل اعتباطي ودون دراسة متأنية.
- رصد كامل ودقيق لجميع تحويلات الصفات العمرانية والوظيفية لإمكانية الرجوع عن ما يمكن الرجوع عنه أو وضع ضوابط تتفق مع المعايير العلمية لهذه الوظائف مع التأكيد لمنع أي تراخيص جديدة تخالف الصفة الوظيفية للمباني مستقبلا.
- نتيجة الوضع الاقتصادي المُتردي في البلاد، من الضروري السعي لتأمين قروض مالية (قصيرة-متوسطة- طويلة الأمد) لترميم وتأهيل الأبنية التاريخية المُتصدعة.
- تفعيل دور المجتمع الأهلي والجمعيات الخاصة، لتشكل رأي عام قوي ذو صوتٍ فعّال في وجه الممارسات الخاطئة وأعمال التأهيل الاعتباطية، بحيث يكون قادر على حماية التراث الثقافي السوري. من خلال التصدي لبعض الأخطاء أو الملاحظات الفنية أو مخالفات في بعض ترميمات الأبنية العامة والخاصة المتضررة من الحرب والتي تنفذ حاليا
- تفعيل دور لجنة التراث في نقابة المهندسين بالتدقيق على تنفيذ المعايير العلمية في هذه الترميمات تقييداً بالقرارات السابقة والنافذة أصولاً.

خاتمة

عانت حلب كما الكثير من المدن العربية من تأثيرات الانتداب الاستعماري في القرن العشرين. لكن حافظت المدينة التاريخية في حلب على قوامها ونسيجها وأبنيتها بنسبة كبيرة (على الرغم من التعديات التي حصلت في الربع الثالث من القرن العشرين والتي تجسدت بشق الطرق العريضة وهدم الكثير من الأبنية العامة وظهور أبنية حديثة وقتئذٍ برجية ضخمة مكانها في المشهد العمراني للمدينة.

تنبه أبناء المدينة لنتائج الإجراءات البلدية فقاموا بالسعي لإيقاف هذا الإساءات وضياع تراثهم الثقافي فقاموا بحمايتها وتسجيلها على لائحة التراث العالمي لليونيسكو في عام ١٩٨٦م.

ساهم هذا الإجراء فعلياً في حماية المدينة والنهوض بواقعها الخدمي، تتوجت هذه الجهود بمشروع الوكالة التقنية الألمانية (GTZ) في حي الجلوم- محور باب قنسرين والمنطقة المحيطة. كل ما سبق ساهم في عدم تقسيم حلب القديمة أو تحويلها إلى مدينة عشوائيات، أو مدينة تاريخية متداعية ومدمرة بل على العكس تماماً : إذ لم تتحول إلى متحف بل استمرت كمدينةٍ حيّة وحافظت على مكانتها التجارية والاقتصادية التي اكتسبتها عبر الزمن، ووقوعها على طريق الحرير الذي ربط الشرق بالغرب. هذه المكانة التي تعززت خلال العصر العثماني لأسباب وعوامل عديدة، وازدهرت خاصةً نتيجةً للامتيازات الممنوحة للأوروبيين وقناصلتهم.

حافظت حلب على هويتها التقليدية التجارية وسمتها كعاصمة اقتصادية وتجارية للشمال السوري حتى اندلاع الحرب في سورية سنة ٢٠١١، ووصولها حلب سنة ٢٠١٢ م كما ذكرنا.

الهدف الأساسي من مشاريع إعادة التأهيل والترميم والحفاظ في حلب القديمة والتي ناقشناها خلال البحث التأكيد على قدرة المدينة على التعافي واستعادة دورها التجاري والاقتصادي الهام. بالإضافة إلى تعزيز الأمل في أن القيمة العالمية البارزة لمدينة حلب القديمة كمدينة متنوعة ومفتوحة وغنية ثقافيًا يمكن استردادها إلى حد كبير في السنوات القادمة.

شكر وتقدير

أود أن أشكر فريق صندوق آغا خان للثقافة على تعاونهم الكامل من خلال توفير جميع المعلومات والمواد المتعلقة بالمشروع. كما أود أن أعرب عن امتناني للعديد من المهنيين العاملين في المدينة القديمة لعملهم المتفاني والدؤوب.

1. ANALYSIS OF CASE STUDIES IN RECOVERY AND RECONSTRUCTION, CASE STUDIES, ICCROM (Re-gional Office, Sharjah) and ICOMOS (International Coun-cil of Monuments and Sites).
© ICCROM and ICOMOS, 2021, vol. 2, ISBN 978-92-9077-305-4, 2020, pp.90-115.
2. DGAM, 2018a. "State Party Report: On the State of Conservation of the Syrian Cultural Her-itage Sites," is," its. Their[online]. Available at: https://whc.unesco.org/document/165430
3. AKTC, 2018. Old City of Aleppo: Building Information and Preliminary Damage Assessment in Three Pilot Conservation Areas, [unpublished report]. Available in DGAM archive.
4. DGAM, 2019. "State Party Report: On the State of Conservation of the Syrian Cultural Herit-age Sites", [online]. Available at https://whc.unesco.org/document/165430
5. مقابلات مع إدارة مشروع أهيل الجامع الأموي في حلب، مدير المشروع د. صخر علبي، 2021

الأنوية التنموية سبيل الإستثمار والحفاظ للمناطق التراثية

دراسة لمنطقة القصير، البحر الأحمر، مصر

م. إ. حمدي السطوحي
مهندس إستشاري متخصص في تصميم المتاحف
خبير التراث المعماري | محاضر بالأكاديمية
مؤسس برنامج التراث المعماري – الهوية الثقافية
المندوب الدولي لـ Habitat World في العالم العربي

أهمية البحث
ترجع أهمية البحث إلى وجود انفصال ما بين تطبيق خطط التنمية وخطط الحفاظ على التراث، مع وجود فجوة كبيرة بين الإمكانات التراثية والموارد الناتجة عن إدارتنا لها، بالإضافة إلى خطر يخص منطقة الدراسة ويخص سلبيات التنمية السياحية على الهوية والمجتمع كما حدث في مناطق قريبة مثل الغردقة.

هدف البحث
يهدف البحث إلى تقديم طرح فكري ومنهجي لكيفية تنمية المناطق التراثية وإستثمارها من خلال الأنوية التنموية، مع التأكيد على شمولية عملية الحفاظ على التراث العمراني وإعادة إكتشاف إمكانات الوطن بأسلوب يعظم من الموارد.

منهجية البحث
يعتمد البحث في البداية على المنهج النظري التحليلي لدراسة النظريات، الأدبيات والدراسات السابقة الخاصة بملف التراث وتنمية المناطق التراثية، ثم يعتمد على المنهج الإستقرائي الإستنباطي في تحليل منطقة القصير، وفي النهاية إستخدام المنهج التطبيقي من خلال دراسة قام بها الباحث على مدينة القصير "عينة البحث".

بعد الجزء الخاص بالتجربة الدراسية التي قام بها الباحث على مدينة القصير، يتم عرض فكرة عن المانيفستو الذي قدمه الباحث لهيئة المعماريين العرب والذي يقدم مقترحات وضوابط للتعامل مع المدن والمناطق العربية ذات القيمة التراثية، ومن ثم يخلُص الباحث لمجموعة من النتائج والتوصيات ترتبط بكيفية التعامل مع معوقات الإستثمار في مواقع التراث العمراني من خلال مجموعة من أنماط الإستثمار المناسبة.

تملك منطقتنا العربية من خلال جدران مبانيها وشوارعها المفهوم الحقيقي لإشكالية مواقع التراث العمراني، فبتجولنا فيها سنكتشف قيمتها وفرص إستثمارها، وفي المقابل سنصطدم بالمعوقات التي تواجه إستثمارها. بين هذا وذاك سنظل نبحث عن جودة الحياة التي نبتعد عنها أحياناً بتصرفاتنا وقراراتنا السلبية التي تتأثر بالعديد من العوامل الخارجية والمحلية. من هنا سنتلمس الإشكالية التي يسعى الباحث لطرح رؤية لحلها من خلال دراسة أحد المناطق التراثية الهامة وهي منطقة القصير بالبحر الأحمر، ومن ثم طرح مقترح منهجي لكيفية استثمارها بالشكل السليم من خلال الأنوية التنموية التراثية والتي تتبنى فكرة التنمية بأيدي السكان المحليين، فتُعظم من قيمة المنطقة وتضيف لها قيم جديدة. ما يميز القصير انها مثال قوي لمدن البحر المتوسط بسبب ارتباطها تجارياً مع كثير من دول العالم، مما أدى إلى تفاعل وتراكم ثقافي كبير وخصوصاً مع أيطاليا.

ترجع أهمية البحث إلى وجود انفصال بين تطبيق خطط التنمية وخطط الحفاظ على التراث، مع وجود فجوة كبيرة بين الإمكانات التراثية والموارد الناتجة عن إدارتنا لها، بالإضافة إلى خطر يخص منطقة الدراسة والسلبيات الناتجة من التنمية السياحية على الهوية والمجتمع كما حدث في مدن كثيرة.

يعتمد الباحث في البداية على المنهج النظري التحليلي لدراسة النظريات، الأدبيات والدراسات السابقة الخاصة بملف التراث وتنمية المناطق التراثية. ثم المنهج الإستقرائي الإستنباطي في تحليل منطقة القصير، وفي النهاية المنهج التطبيقي من خلال دراسة قام بها الباحث على مدينة القصير. مع تقديم فكرة المانيفستو الذي قدمه لهيئة المعماريين العرب الذي يضم مقترحات وضوابط للتعامل مع المناطق ذات القيمة التراثية، ومن ثم يخلُص الباحث لمجموعة من النتائج والتوصيات ترتبط بإحياء التراث التغلب على معوقات استثماره.

مقدمة
تملك منطقتنا العربية من خلال جدران مبانيها وشوارعها المفهوم الحقيقي لإشكالية مواقع التراث العمراني، فبتجولنا في هذه المناطق العمرانية سنكتشف قيمتها وفرص إستثمارها، وفي المقابل سنصطدم بالمعوقات التي تواجه الإستثمار فيها، وبين هذا وذاك سنظل نبحث عن جودة الحياة بين مفردات هذه المناطق العمرانية، التي نبتعد عنها بتصرفاتنا وقراراتنا السلبية التي تتأثر بالعديد من العوامل الخارجية والمحلية. بين المعوقات التي تقابل الإستثمار في المواقع التراثية وبين الأنماط التي من الممكن الإستثمار من خلالها، سنتلمس الإشكالية التي يسعى الباحث لطرح رؤية لحلها من خلال دراسة أحد المناطق التراثية الهامة بمصر وهي منطقة القصير بالبحر الأحمر، ومن ثم طرح مقترح منهجي لكيفية إستثمارها بالشكل السليم من خلال الأنوية التنموية التراثية والتي تتبنى فكرة التنمية بأيدي السكان المحليين، فتُعظم من قيمة المنطقة وتضيف لها قيم جديدة عن طريق إختيار نقاط تصلح لأن تكون أنوية او تنشأ عليها أنوية، بجانب تكاملها مع الخطط التنفيذية من قبل الجهات المعنية.

التراث الحضاري بين المفهوم والتطبيق

مفهوم التراث
تنوعت التعريفات حول مفهوم التراث ولكنها في النهاية كلها تتفق على أنه يتميز بالتراكم (هيئة اليونيسكو، ٢٠١٨)، فالجديد يبنى على ما هو قديم ولا يهدمه، فالتراث هو كل ما وصل إلى أمّة من الأمم وشعباً من الشعوب ممن سبقوهم من الأجداد القدامى، متضمناً الكتب، الأفكار، المعتقدات، الملابس، الأدوات المستعملة، الفنون والآداب، والقيم والعادات، الأقوال المأثورة والأمثال الشعبية، الحرف، المناسبات العامة والاحتفالات، وغيرها. فبكل بساطة التراث هو كل ما تتنقله الأجيال عن الأجيال التي تسبقها، وكل ما ستورّثه الأجيال الحالية إلى الأجيال التي ستأتي من بعدها، فالإنسانية جمعاء لها تراث عريق منذ أن خلق الله تعالى البشر إلى يومنا هذا الذي نحن فيه، وهو تراث ممتد إلى ما شاء الله له أن يكون.

من تعريف التراث والذي يتسم بالتراكم، تتضح المسئولية، مسئولية الأجيال تجاه الأجيال التي سبقتها والتي تليها، فمسؤولية الأجيال الحالية هي أن تكون أمينة في الحفاظ على الموروث، أما تنميته والإضافة إليه بشكل جيد هو مسؤوليتنا تجاه الأجيال القادمة، فالتراث كالمعرفة يعتمد الإثنان على التراكم كضمانه للإستدامة.

التراث العمراني
التراث العمراني مفهوماً حديثاً نسبياً بالمقارنة مع أنواع أخرى من التراث، بالإضافة إلى أنه يقوم على نهج مُعقد يدمج كلاً من المفاهيم المالوفة من التراث بمفاهيم أخرى أكثر تعقيداً مثل الحفاظ والترميم والتجديد والصيانة وغيرها، كما أنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبعد الإقتصادي والإجتماعي داخل المجتمع. التراث العمراني هو كل ما شيده الإنسان في عصور سابقة ومازال موجوداً حتى الآن، مثل المباني والحدائق والمعالم اياً كانت استخداماتها، ويُعَرِف اليونسكو التراث بأنه "مبان أو آثار أو معالم تاريخية أو مدن قديمة مأهولة أو غير مأهولة" أي أنه لا يشترط أن يكون مستخدماً أو مأهولاً بالسكان ليكتسب صفة التراث العمراني. يصنف مباني تراثية المباني ذات الأهمية التاريخية والفنية والعلمية، وإلى مناطق تراث عمراني التي تتضمن مجموعات من المباني تُكَوّن المدن والقرى والأحياء ذات الأهمية، وتتضمن باقي عناصر النسيج العمراني من طرق وساحات عامة وخدمات...إلخ، وإلى مواقع التراث العمراني التي تشتمل على مباني ترتبط ببيئة طبيعية متميزة طبيعياً أو من صنع الانسان.

التعامل مع التراث بوجهاً عام ومع التراث العمراني على وجه الخصوص، له العديد من الإجراءات التي تبدأ بالحفاظ وتنتهي بالإستخدام الأمثل، فالحفاظ يشتمل على الصيانة والعناية بجانب الإدارة الجيدة من أجل الإستثمار الأمثل للتراث، والترميم والذي عرفته منظمة الإيكوموس (ICOMOS) بأنه "عملية متخصصة بدرجة عالية جدًا، هدفها حماية وكشف القيمة الجمالية والتاريخية للمبنى"، وفق مباديء أساسية أهمها إحترام المادة الأصلية والوثائق الحقيقية، وأن يكون العمل الإضافي- الذي يلزم القيام به- واضحاً ومتميزًا عن العناصر الأصلية للمبنى. ثم يأتي إعادة الإستخدام وهو من أنسب الحلول اقتصادياً، حيث أنه غير مكلف كبناء مبنى جديد، كما أنه يضمن إيجاد قاعدة إقتصادية يعتمد عليها للإبقاء على المبنى، ويجب أن لا يتعارض الإستخدام الجديد للمبنى مع القيم التاريخية والتراثية والفنية للمبنى محققاً الملائمة لكل من الطابع البصري للمبنى، والوظيفية والإنشائية، وأحياناً يكون التوظيف في نشاط أخر غير المُنشأ من أجله ويسمى في هذه الحالة إعادة التوظيف. يتم هذا بعد إتمام عمليات الحفاظ وبما يتناسب مع طبيعة المبنى وحسب الحاجة، وقد يستلزم إحداث تغييرات غير جوهرية في المكونات الحقيقية للمبنى بهدف الحفاظ عليه والإستفادة من إعادة إستخدامه دون التغيير في هويته التاريخية، وقد نضطر لإعادة البناء حيث يتم إعادة أجزاء من المبنى أو كله إذا اقتضى الأمر، وذلك بعد الرجوع الى الدلائل التاريخية والوثائق كالصور الفوتوغرافية أو المخططات البيانية أو الخرائط أو وصف سكان المنطقة للمبنى. يأتي في النهاية الإستخدام الأمثل: هو الإستخدام الذي لا يشمل تغيير جوهر القيمة الثقافية والنسيج المعماري للمبنى إلا في أضيق الحدود.

أهمية التراث
التراث والهوية عنصران متلازمان مترابطان ومتفاعلان، فلكل أمه هوية تتميز بها بين الأمم الأخرى وأحد نتائج هذه الهوية هو التراث، فكما لأمم هوية عارفة بها أو تجهلها فلها أيضاً تراث معلوم تُعرف به، أو مجهول في حاجة إلى الكشف عنه، ومن هنا يتضح جزء من أهمية التراث ودوره في تشكيل الشخصية الوطنية أو القومية المتميزة، فالتراث مُحَدِد رئيسي لثقافة الشعوب ويسهم في تشكيل العقل الجمعي لها. وهذا لا يقل أهمية عن التراث في المعرفة خاصة ما وُرِّث من العلوم،

فهذا الإرث هو إرث عظيم ليس لشعب من الشعوب فقط بل للإنسانية جمعاء.

أنواع التراث
إذا كان التراث الثقافي هو ميراث المقتنيات المادية وغير المادية التي تخص مجموعة ما أو مجتمع لديه موروثات من الأجيال السابقة، وظلت باقية حتى الوقت الحاضر ووهبت للأجيال المقبلة، فقد إتسع نطاق مفهوم التراث الثقافي بشكل كبير خلال القرن الماضي، وقد ساهم اليونسكو بشكل كبير في تحقيق هذا التوسع، والذي يشمل حالياً المناظر الطبيعية، الآثار الصناعية، وأشكال أخرى مختلفة لها صلة بمفهوم التراث العالمي أو التراث المشترك بين البشر. فإن هذا الميراث ينقسم إلى فئتين (تراث مادي – تراث غير مادي):

- **التراث المادي** يشمل المباني، الأماكن التاريخية، الآثار، والتحف وغيرها، التي تعتبر جديرة بحمايتها والحفاظ عليها بشكل أمثل لأجيال المستقبل. هذا النوع مهم جداً لدراسة تاريخ البشرية لأنها تمثل الركيزة الأساسية المعبرة عن ثقافته وحضارته ويمكن التحقق من صحتها. أن الحفاظ عليها يدل على إعتراف ضمني بأهمية الماضي، والدلالات التي تسرد قصتها.
- **تراث غير مادي** يشمل الحرف اليدوية، الفنون الشعبية، المعارف التقليدية، العادات والتقاليد، الفنون البصرية والآدائية، الأدب واللغة واللهجات، وغيرها مما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتراث العمراني، ويعتبر الحفاظ على التراث غير المادي هو حماية الهويات الثقافية، وبالتالي التنوع الثقافي للبشرية.

التراث سواء مادي أو غير مادي هو منتج ثقافي لمجتمعاً ما في زمناً ما، معبراً عن الهوية والتي هي غير ملموسة ولكننا نُدركها من خلال هذا المنتج الثقافي، والإثنان هما تعبير عن الحضارة التي ينتمون إليها، وهذه هي الأهمية الحقيقية وهي أن هذا التراث كان شاهداً على الحضارة والتي علينا إدراكها بشكل سليم حتى تكون دافع لنا لبناء حضارة تراكمية جديدة مُضيفة إلى الإنسانية.

الإستثمار

لماذا الإستثمار؟ وما هي أهداف الإستثمار؟

إقتصادياً لا يُمكن إغفال أهمية وقيمة التراث العمراني وإنعكاسها على الإقتصاد بشكل مباشر، فالتراث العمراني أحد الموارد الرئيسية المستدامة، فبجانب إتاحته لفرص الإستثمار المتنوع فإن المباني التراثية القائمة تمثل أحد الإمكانات والموارد التي من الممكن إستثمارها بدلاً من إنشاء ما هو جديد من مباني، مما يعود بالفائدة على المستثمر بتوفير تكاليف الإنشاء، وبالتالي فإن المباني والمواقع التراثية هي أوعية إقتصادية وثروة قومية وموارد سهل إستثمارها بشرط عدم الإساءة لقيمتها الحضارية. ويتوقف ذلك على مدى إستثمار إمكانات المباني والمواقع التراثية بإعلاء قيمته التاريخية مع إجراء الصيانة اللازمة مما يضمن الحفاظ على قيمته، لأنه دون هذا سنكون قد حكمنا على هذه القيمة بالدمار وفشل المشاريع الإستثمارية لها.

والإستثمار ليس له عائد إقتصادي فقط بل قيم مضافة إجتماعياً وثقافياً وفنياً فهو وسيلة أساسية لإحياء المهن والحرف التقليدية من الإندثار وإستقرار أهل هذه المناطق. ومما سبق فإنه من غير الممكن الحفاظ على التراث العمراني دون إدراك العلاقة الديناميكية المتبادلة بينه وبين البيئه المحيطة، كما لا يمكن التعامل مع حماية المباني وصيانة الأماكن الأثرية بشكل منفصل عن خطط التطوير العامة للمنطقة أو المدينة وفق إطار من التنمية المستدامة.

الإستثمار في البشر وبالبشر

الحفاظ على المناطق التراثية لن يتحقق إلا بالإستثمار الفعال والصحيح فيها، ونجاح هذا الإستثمار مرهون على دور البشر (السكان المحليين) في هذا، فالإستثمار يجب أن يكون بالبشر وفي البشر أنفسهم، لأنهم رأس مال التنمية الحقيقي لذا يجب تخصيص جزء من موازنات الإستثمار في التراث العمراني من أجل التدريب والتوعية الخاصة بالسكان المحليين حتى نضمن تنمية ذاتية مستدامة.

الإستثمار بين المعوقات والفرص

بعد تناول تعريف ومفهوم التراث العمراني وأهمية إستثماره، والتأكيد على أن البشر هم الركن الرئيسي في المعادلة، بعد كل هذا يمكن إستنباط أن التراث العمراني بالمنطقة العربية والذي يعتبر كنز كبير يقف حائراً بين كلمتين، الأولى هي الفرص والثانية هي المعوقات. فإننا أمام مناطق تحمل الكثير من فرص التنمية والإستثمار ولكنها تواجه معوقات تُعرقل هذا بشكل واضح. وكما تتنوع الفرص فالمعوقات تتنوع، فما هي القيود المعرقلة التي يواجهها الإستثمار في التراث الحضاري ؟ مقارنة بالمجالات الأخرى؟، وإلى أي مدى من الممكن دمج الإستثمار والتنمية في عمليات الحفاظ على التراث العمراني ؟، ومتى يكون الإستثمار في التراث العمراني جاذباً لرأس المال ؟ وما هي المخاطر من هذا ؟ واسئلة كثيرة تدور حول الإطار الذي من الممكن أن يحقق التكامل بين الحكومات والقطاع الخاص والمجتمع المدني من أجل تحقيق إستدامة لمشروعات تنمية التراث العمراني وفق مجموعة من الوسائل والأدوات والإجراءات.

الفرص

مناطق التراث العمراني تحمل الكثير من الفرص، مباني قائمة لها بعد تاريخي جاذب، وأغلبها تقع في قلب المدن الحالية، حولها مجتمع قائم بالفعل ويرتبط بحرف وفنون تراثية. هذه الفرص توفر المجال لأنماط إستثمارية كثيرة تقع في هذه المناطق ولكننا سنجد أن ما يتم هو أقل بكثير من الممكن. والتجارب كثيرة فعلى سبيل المثال القاهرة التاريخية إقتصرت على تهيئة بعض المباني التراثية لممارسة الأنشطة الثقافية التي تديرها وزارة الثقافة، وسط إحجام تام من القطاع الخاص في المشاركة المباشرة حيث إقتصرت مشاركته على تأجير هذه الأماكن لإقامة بعض الأنشطة الخاصة به، وأحياناً أخرى تتشارك مؤسسات المجتمع المدني مع الوزارة في إقامة بعض الأنشطة الثقافية. لكن تبقى المشكلة الرئيسية هي أن العائد المادي من وراء هذه الأنشطة لا يكفي لصيانتها أو إقامة تنمية حقيقية للمنطقة المحيطة. وسيظل التراث العمراني يتيح الفرص للعديد من أنماط الإستثمار بجانب المشاريع الثقافية، مثل الخدمات السياحية أو إحياء الفنون والحرف التقليدية.

المعوقات

من التناقضات التي تستحق الدراسة، أنه مع كثرة فرص التنمية في التراث العمراني وتنوعها، نجد أن هناك الكثير والكثير من المعوقات التي تُهدِر هذه الفرص وتعوق تحولها إلى حقيقة ملموسة، ويعتبر هذا من التحديات الكبيرة التي يجب أن نعمل عليها باحثين أن الأسباب الحقيقية لعزوف المجتمعات المحلية والقطاعات الإستثمارية عن الإستثمار في مواقع التراث العمراني، وما هي المحفزات التي من الممكن أن توفرها الهيئات المعنية من أجل تشجيع الإستثمار. في هذا الصدد تمت العديد من الدراسات على الكثير من المناطق التراثية لتحديد المعوقات وكيفية التغلب عليها، وخرجت الكثير من التوصيات ولكنها للأسف لم تحقق المرجو لأنها إتصدمت بواقع مليء بالعراقيل سواء كانت تشريعات أو آليات أو تعارض بين مهام المسؤوليات مع عدم وجود صلاحيات تنفيذية للجهات التي تملك القرارات الفنية.

المباني التراثية في مصر يتم تصنيفها تبعاً لجهتين، الأولى وزارة الآثار التي تسجل المباني الأثرية وفق معايير تخصها ("بوابة وزارة الآثار المصري"، ٢٠١٩)، وفي المقابل جهاز التنسيق الحضاري التابع لوزارة الثقافة الذي يسجل المباني ذات القيمة وفق أسس ومعايير أخرى ويعطي لها فئات (أ – ب – ج) ("جهاز التنسيق الحضاري"، ٢٠١٩)، وبينهما سنجد وزارة الإسكان والمحليات بمسؤوليتهما عن المرافق والخدمات لتتفرق دماء التاريخ بينهم هم الثلاث. وفي جانب آخر نجد أن الولاية على هذه المباني تنقسم ما بين مالك للعقارات من الممكن أن يكون كيان إعتباري كوزارة الآثار أو مواطن فردي، أو الإثنين معاً في نفس العقار، أو مالك للعقار ومستأجر يعيش فيه. ومع ضعف التشريعات وعدم مواكبتها للآليات المقترحة نجد أنفسنا أمام مالك يملك وغير قادر على صيانة المبنى، ومستأجر يدفع إيجار متواضع ومسيطر على المبنى، وهيئات معنية توصف وتسجل المباني دون أن يكون لها سيطرة على هذا الإرث ...!! وفي المقابل نتسائل لماذا لا يتم إستثمار التراث العمراني بالشكل المناسب !!

خلاصة الأمر، إننا امام قضية إستراتيجية وليست فقط قضية معمارية أو تاريخية، فنحن نتكلم عن معادلة ديناميكية فيها أطراف ومشاكل كثيرة ولها أطراف متعددة منها البيت والمالك الذى قد يكون فرداً أو الدولة وهو لا يملكه ولكن له الرعاية عليه ثم الطرف الثالث والذى قد يكون مؤسسة حكومية أو غير حكومية. ونحتاج أن ندرس كل طرفين بشكل منفصل، نأخذ مثلا المالك مع البيت لماذا يريد المالك أن يهدم البيت لابد أن نسأل أنفسنا هل الحل الوحيد كما يقول البعض هو شراء البيوت مثلا من قبل أفراد أو مجموعات مهتمة بالتراث لإنقاذها. ثم إن مقولة إن الخائن هو المالك لأنه يرغب

فى هدم التراث أمر لا يبدو منطقياً لأن صاحب البيت ينظر للأمر من زاوية مختلفة هو يرى نفسه يُعاقَب لأنه يملك بيتاً أو مكاناً ذو قيمة، ولابد أن نضع حلولا لأن الجهات الرسمية نفسها لا تستطيع التنسيق والتكامل فيما بينها. **وهنا لابد وأن نبحث عن إجابة واقعية للسؤال المهم، هل أصحاب البيوت يهدمونها لأنهم لا يعرفون قيمة التراث أم لأن المجتمع كله لا يعرف قيمة التراث؟** وبين عناصر التراث العمراني توجد مساحات بينية بجوار الأثر أو المباني ذات القيمة، هذه المساحات من الممكن أن تكون مفتاح الحل تخطيطياً.

الأنوية التنموية

الفكرة

تكمن الفكرة في إختيار بعض من النقاط التراثية التي لها مميزات نسبية أهمها وجود فرص لتنمية من حولها بجانب إرتباطها بالمجتمع المحلي تاريخياً، وستتحول كل نقطة من هذه النقاط إلى أنوية تنموية لها خطة تخصها بشكل منفرد وتتكامل مع خطط الأنوية الأخرى.

لماذا الأنوية

تعددت المدارس التخطيطية والتي أتخذت اتجاهات كثيرة مرتبطة بالنمو والتنمية، فمنها من إعتمد على النمو الخطي المرتبط بمحاور تنموية سواء طرق أو مسارات للمياه ... إلخ، ومنها من تناول التنمية للمنطقة المستهدفة ككل بشكل كامل وفق مراحل. لكن الأنوية التنموية تعتمد منهجياً على فكر مختلف مبني على مجموعة من المبادىء التصميمية مثل إعطاء الحرية لكل نواة لتنمو بالقدر والشكل الذي يتناسب مع تفاعل المجتمع معها فهو العصب الرئيسي للتنمية. الأنوية أيضاً تعطي الفرصة لأن يكون التنفيذ منفصل ومتكامل بشكل موازي أو متوالي تبعاً للظرف، وتمّكِن المخَطّط لأن يضع أولويات لبعض الأنوية لمعالجة قضايا عاجلة يكون لها المردود الإيجابي لبدء التنيمة في أنوية أخرى.

حدود الأنوية

حدود الأنوية يتم تحديدها وفق علاقة عناصر التراث العمراني بهذه النواة مع المجتمع الموجود بها وفي المجال المحيط لها، واضعين في الإعتبار المساحات البينية التي من الممكن أن تتكامل مع العناصر وتحدث تنمية متكاملة مستدامة.

النمو المرحلي المتجانس مع المجتمع

من الضروري أن تكون التنمية متجانسة مع المجتمع وأن يشعر المجتمع بإنتمائه لها، وكما يؤكد المعماري القدير حسن فتحي أنه على المستوى الإجتماعي فإن العلاقة بين سرعة تنفيذ المشروع والإرتياح والإنتماء له، غالباً علاقة عكسية، وبالتجربة فإن مدرسة فارس بقرية القرنة، في البداية رفض السكان البناء بالطين بديلاً عن الخرسانة ومع مرور الوقت تغيرت وجهة نظرهم.

من التجارب التي قام الباحث بدراستها، تجربة منطقة الغراوية والتي تكتسب أهمية كبرى لكونها مجاورة لمنطقة قصر الحكم و منطقة مركز الملك عبدالعزيز التاريخي وكونها جزءاً من مدينة الرياض القديمة، بجانب دورها المستقبلي. تتكون المنطقة من عدد كبير من المبانى التراثية والحيازات الفردية، بجانب تميز المناطق المحيط بها. تم إعداد وتنفيذ مشروعان للتطوير.

وطبقاً لدراسة بحثية تحت عنوان " إعتبارات حماية و تطوير المناطق التر اثية المتدهورة" (عابد محمود، ٢٠١٦). خلُصت ان إيجابيات تطوير منطقة قصر الحكم وعلاقتها بمنطقة الغراوية بعد تطويرها تقدم قراءة حديثة لمتطلبات العمارة المحلية وفق مفهوم عصري يجمع بين متطلبات المدينة الحديثة ويقدم بيئة مثالية لنمو السلوكيات الإجتماعية الإيجابية ويبرز مقومات الثقافة المحلية وبناء عليه كان لابد الإستفاده من هذه الإيجابيات ودعم فاعليتها بمشروع تطوير منطقة الغراوية وايجاد الوسائل المناسبة لتحقيق الترابط بن كل من منطقة قصر الحكم ومنطقة الغراوية وتحقيق الوحدة العمرانية لأجزاء المركز الحضاري لمدينة الرياض لدعم دوره الريادي في بلورة الهوية العمرانية لمدينة الرياض. بينما يساهم مركز الملك عبدالعزيز بعد تطويره في إبراز الأصالة المعمارية في تراث مدينة الرياض وتكون بيئة إيجابية لفكر المجتمع ومعالجة الجوانب السلوكية الموجهة لحياته وتحقيق مبدأ الأستدامة الذي يعني بمتطلبات البيئة وترشيد الموارد ومصادر الطاقة.

عينة الدراسة:
القصير، البحر الأحمر، مصر

نبذة تاريخية

محافظة البحر الأحمر هي ثالث أكبر المحافظات المصرية من حيث المساحة بعد محافظتي الوادى الجديد ومرسى مطروح، تبلغ مساحتها نحو١٣٠ ألف كم٢ أى ما يوازى ١٢,٤٪ من مساحة الجمهورية، ويبلغ طولها بمواجهة الساحل نحو١١٠٠ كم وتضم نحو ٥٠٪ من شواطيء مصر البحرية، ومن المقارنات الصادمة أن عدد سكانها يمثل فقط ٠,١٩٪ من إجمالي سكان الجمهورية في حين أن مساحتها تصل إلى ثمن إجمالي المساحة.

تقع مدينة القصير جنوب مدينة الغردقة (عاصمة المحافظة)، وهي أحد أهم الموانى في التاريخ القديم، أطلق على المدينة العديد من المسميات على مر العصور، ففي الحضارة المصرية القديمة سُميت "ثاغو"، ثم "بورتس آلبوس" في العصر الروماني، حتى أطلق عليها في العصر الإسلامي إسم القصير وهي تصغير لكلمة قصر بمعنى الحصن نسبة للحصن المُنشأ في ميناءها. من ميناءها أرسلت الملكة حتشبسوت رحلاتها إلى بلاد "بونت"، وفي العصر الإسلامي أصبح هذا الميناء هو نقطة الإتصال الأساسية مع موانيء الحجاز من أجل الحج والذي كان يعبر منه حجاج مصر وشمال أفريقيا. ونظراً لحركة التجارة العالمية الواسعة عن طريق القصير فكان يوجد بها أربع قنصليات لكل من فرنسا، النمسا، إنجلترا وإيران.

ومن أهم الشخصيات الشهيرة بالقصير هو المؤرخ كمال الدين حسين عبد الرحيم الشهير بالأستاذ همام والذي كان نائب في البرلمان بجانب تأريخه لتاريخ القصير، ويعتبره أهل القصير الأب الروحي للمدينة.

المباني التراثية بالمنطقة تتعرض للأهمال ومن ثم الهدم، ويحل محلها تدريجياً مبني في شدة القبح يتم بناءها من الخرسانة المسلحة. قام الباحث بإختيار مجموعة من المباني والمناطق لتكون أنوية تنموية، وهي عينة البحث، والتي تم إختيارها بعناية حيث كل واحدة منها ن الممكن ان تكون نواة تنموية للمنطقة المحيطة وان تتميز بالقدرة على التكامل مع باقي الأنوية لعمل تنمية متكاملة للقصير. بجانب ان هذه النقاط ومراحل التنية التي ستتم بها ستكون كالجدار الذي يحمي باقي المباني التراثية من الهدم.

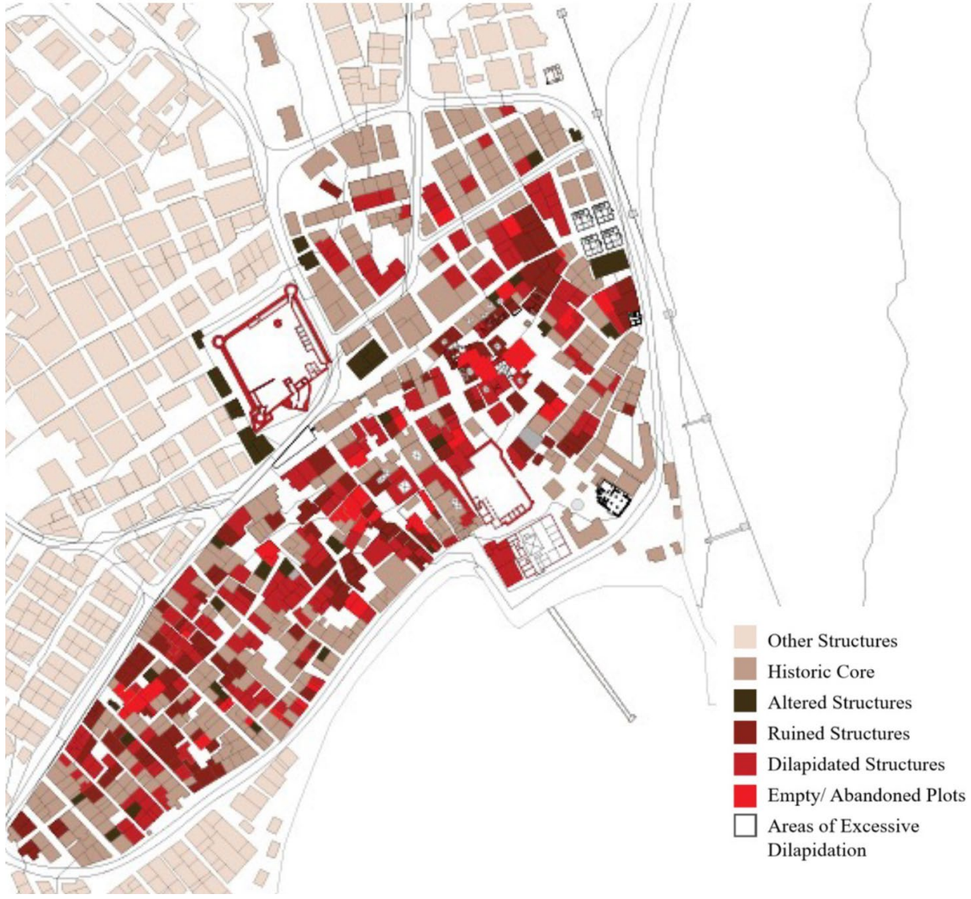

خريطة المنطق التراثية بالقصير | المصدر: Anandit Sachdev , ٢٠١٧

العناصر التراثية بمدينة القصير

تحتوي القصير على عدد من العناصر التراثية التي تنتمي إلى عصور تاريخية مختلفة، وتكتسب هذه العناصر قيم مضافة بسبب إرتباطها بأحداث تاريخية هامة ومنها:

حصن القصير

تم بناءه في العصر المملوكي – العثماني، ويقع على الخليج وتعود أهميته للحملة الفرنسية حيث كان شاهداً على وصول جنود نابليون إلى القصير والإحتلال الفرنسي للقصير ومهاجمة الأسطول الإنجليزي. يتميز بناء الحصن بإستخدام الطوب مع الأحجار، وكان يحتوي على برجين تَهَدّم أحدهما وبه ساحة كبيرة يتصل بها أنفاق لمخازن تحت الأرض. وحديثاً تم تحويل الحصن إلى مركز للزوار يستهدف تقديم فكرة للزائر عن تاريخ البحر الأحمر والقصي، من التاريخ القديم وحتى الحديث.

قسم الشرطة | ديوان المحافظة "البلدية"

ينتمي إلى العصر المملوكي وتم بناءه ما بين القرنين الـ ١٥ و ١٧م، إستُخدِم كمبني للبلدية ومن ثم قسم للمدينة وهناك دلائل على أنه كان منزل سكني قبل أن يتم تعديل إستخدامه. وقد شهد هذا المبنى وبالأخص الشرفة الرئيسية المطلة على البحر خطبة شعبية للرئيس جمال عبد الناصر وأيضاً الملك فؤاد الذي زار القصير لأكثر من مرة. وهذا المبنى هو أحد النقاط الرئيسية في المشروع المقترح للتطوير من الباحث.

مخزن الشونة | الحجر الصحي

أنشأ في الفترة ما بين ١٧٧٥-١٨٠٠م وإستخدم في الأساس كحجر صحي مرتبط بكون القصير الميناء الرئيسي للحج، وإستخدم أيضاً كمخزن للغلال للمدينة، وفي أحد جوانبه يوجد مسجد متداخل مع أسوار المبنى. وهو قريب من مبنى البلدية ومن الممكن أن يتكامل معه وفق المشروع المقترح.

المباني والمنازل العربية القديمة

تميزت مدينة القصير بوجود مجموعة من المباني ذات الطابع العربي والذي تتراوح إرتفاعتها ما بين دور إلى ثلاثة أدوار، ومن الملاحظ أن المفردات المعمارية تختلف في نمطها عن عمارة نهر النيل وتتشابه إلى حد ما مع عمارة الحجاز والمدن الواقعة على ساحل البحر الأحمر. وهذه المباني تتميز بقيمتها المعمارية ولكنها للأسف تتعرض للإهمال والذي يتبعه الهدم والإزالة.

العمارة الأوروبية بالمدينة

توجد مجموعة من المباني التي تعود إلى القرن التاسع عشر ميلادياً وتتخذ بشكل كبير الطراز الإيطالي وأهم هذه المباني مصنع الفوسفات وكنسية السيدة العذراء وسكن العاملين، وتعود هذه المباني لفترة إزدهار ميناء القصير وتصدير الفوسفات.

الوضع الحالي

تتميز القصير بتاريخ وإمكانات عظيمة ولكن حالها كحال الكثير من المدن العربية تتعرض حالياً للإهمال والتدهور، فإننا أمام مدينة مساحتها تقارب ثُمن مساحة مصر وفي المقابل تعداد سكانها لم يصل إلى ١٪ من سكان مصر ..! وقد كان للإهتمام بمدينة الغردقة الأثر السلبي على المدن المجاورة وأهمها القصير، فنجد المباني القديمة ذات الطراز العربي مهجورة ويتعمد أصحابها إهمالها لهدمها وبناء مكانها مباني خرسانية قبيحة، ومصنع الفوسفات تحول إلى فراغات خاوية تتنازع عليها بعض الهيئات أما المباني السكنية والخدمية التي تنتمي إلى العمارة الأوروبية بدأت تندثر، حتى منزل الأستاذ همام لم يسلم من الإهمال. وبين هذا وذاك نجد المواطنين الأصلين للقصير وقد وقفوا حائرين بين القيمة التي تختفي بين أيديهم وبين خطط الحكومة التي لا تضع مدينتهم على خريطة الإهتمام.

وبين الحالة الراهنة لمدينة القصير يوجد الكثير من المحاولات والإجتهادات التي تمت في العشرين سنة الماضية، كان أهما تحويل بعض المباني القديمة وذات القيمة إلى مشاريع سياحية وأيضاً تطوير المركز الصحي وتحويله إلى مركز خدمي، بجانب تطوير شارع القصيفة. ولكن هذه الإجتهادات لم تستطع أن توقف التدهور الحادث بالمدينة وليست كافية لإحداث تنمية حقيقية بها، مما يضعنا في حاجة إلى إيجاد آلية للتنمية تتبع منهج مختلف يكون له القدرة على صناعة الفارق وفق الظرف الحالي. من أهم مبادىء اليونسكو : "إن التراث الثقافي والطبيعي هو من بين الأصول التي لا تُقَدّر بثمن والتي لا يمكن الإستغناء عنها، ليس فقط لكل أمة، بل أيضا للبشرية جمعاء. إن خسارة أي من هذه الأصول الثمينة، من خلال تدهور أو إختفاء، تشكل إفقاراً لتراث جميع شعوب العالم " وهذا الأمر يضعنا جميعاً امام مسئولية كبيرة.

المشروع المقترح

إنقاذ القصير | من خلال تنمية أنوية تراثية

تم إختيار منطقة القصير لسببين، الأول للأهمية التاريخية والتي لها قيمة يجب الحفاظ عليها وإستثمارها على كل الأصعدة، والثاني هو التدهور المتسارع الذي يحدث للمنطقة وزاد من ذلك بعدها عن بؤرة الإهتمام مما يهدد القصير القديمة ويجعل التعامل معها أمر حتمي وملح لوقف التدهور الحادث لها.

قبل البدء في المشروع تم دراسة مشاريع مشابهة تمت في مدينة القصير مثل إعادة توظيف منزل الشيخ توفيق وتحويله إلى فندق، حيث تم إستئجاره من الورثة بعد ان كان مغلقاً لمدة تزيد عن ٢٠ عام، تم تمويل المشروع من قبل جمعية إحياء وإعادة بناء مدينة القصير (RECQ)، وكان الهدف طبقاً لدراسة (شادي عكاشة، ٢٠١٦) تحت عنوان "إعادة تأهيل المباني التراثية وتأثيراتها على إستدامة عمليات الحفاظ"، ان الهدف من المشروع الإنتهاء من نموذج ترميم وإعادة تأهيل لأحد المنازل بالمدينة مما يمكن ان يساهم في وضع رؤية مستقبلية متوازنة من خلال المعايير البيئية والثقافية للتنمية العمرانية والسياحية بالمدينة. قام بتنفيذ المشروع كلا من د. أحمد راشد ود. محمد عصمت. قد اعتمدت الفكرة في تنفيذها على الشراكة بين فئات المجتمع المختلفة فالممول الرئيسي كان الجمعية، والأهالي الذين شاركوا في عملية الترميم والبناء بعد تدريبهم.

دراسة المشروع (عينة البحث) قمنا بها من خلال فريق عمل يضم مجموعة من الخبراء من أجل إعداد مشروع رائد في هذا المجال يتبع منهجية وفكر نأمل أن يطبقا في مناطق أخرى في مصر، فأعددنا الدراسة وكلنا أمل أن نحول رؤيتنا وحلمنا إلى حقيقة نستطيع بها أن نغيير الواقع الحالي المتدهور لمنطقة تُعد من أهم المناطق الهامة تاريخياً في مصر والتي تمثل بشكل كبير بداية تاريخ منطقة البحر الأحمر، ولقد بدء تعاملنا المباشر والبدء في دراسة مشروع القصير منذ أكثر من ٥ أعوام سواء في إعداد بعض الدراسات عن المنطقة أو إعداد أفكار تصميمية لبعض المباني التراثية لتحويلها إلى مراكز ثقافية وتنموية.

مدخلنا في إنقاذ المدينة القديمة للقصير هو تنمية مجموعة من الأنوية التراثية والتي ستحدث حركة توعوية وتنموية من خلال تفاعل السكان المحليين مع المشاريع والتي سيكون على أثرها حماية بل وإنقاذ المدينة بأيدي سكانها المحلين، وفي هذا الصدد تم دراسة المدينة لإختيار نقاط تصلح لأن تكون أنوية أو تنشأ عليها أنوية لتقوم بهذا الدور وأيضاً تتكامل مع الخطط المخطط إلى تنفيذها من قِبل الجهات المعنية.

تم إختيار عدد (٥) نقاط لتكون هي الأنوية التنموية بحيث يكون العمل بها بشكل متكامل وفق خطة زمنية تضمن تحقيق التفاعل الإيجابي مع المجتمع، والنقاط هي:

(١) تطوير الشارع التراثي.
(٢) تحويل بيت الأستاذ همام إلى متحف ومركز ثقافي.
(٣) تحويل مبنى البلدية إلى مركز ثقافي ومتحف.
(٤) ترميم المركز (السنتر) وزيادة فاعليته.
(٥) تحويل مصنع الفوسفات إلى متحف للصناعات المصرية.

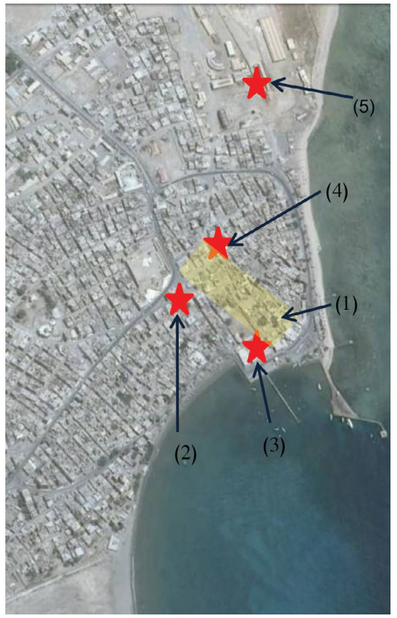

النواة الأولى | الشارع التراثي

الشارع التراثي هو مسار يحتوي على أهم المباني التراثية القديمة يعتبره ضيوف المدينة أحد الزيارات الهامة، به مجموعة من قطع الأراضي الفضاء ويربط بين مبنى البلدية والسنتر، وهما من أهم العناصر التراثية في المدينة. هذه النواة (المشروع) سيتم التعامل معه كمجموعة من الأنوية المتصلة والتي من الممكن تنميتها بشكل تراكمي.خطة العمل خصصت ٦٠٪ من الدراسات تقام في الموقع في شكل أنشطة تنموية. ستمارس الأنشطة من خلال ورش عمل ستقام في الشارع نفسه والأراضي الفضاء التي ستتحول ضمن المشروع إلى خدمات وبعض الأنشطة ستمارس في مبنى (السنتر)، وذلك بهدف مشاركة السكان المحليين وبالأخص الشباب في المشروع مما يكون له الأثر الإيجابي في وقف التدهور الحادث في المنطقة ومن ثم البدء في الخطوات التنفذية للإرتقاء.

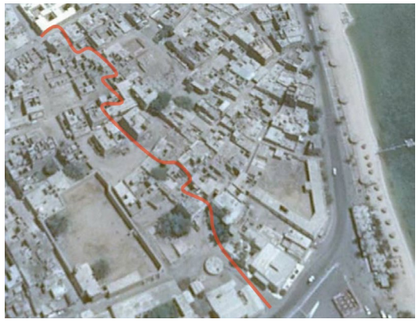

النواة الثانية | بيت همام: متحف ومركز ثقافي

المرحوم الأستاذ كمال الدين حسين الشهير "الأستاذ همام" توفي في ١٩٩٨, والذي كان يمثل ذاكرة القصير وكان أول مدير إداري مصري لشركة الفوسفات، وقد قام بتأليف العديد من الكتب عن القصير والبحر الأحمر. وكذلك الاشراف ومناقشة عددا من الدرجات العلمية للدكتوراه والماجستير بالجامعات المصرية والأجنبية. وقد كان ممثلا لمدينة القصير في عدد من الدورات البرلمانية.

البيت يتعرض حالياً للإهمال، بعد أن كان في حياته مقصداً لكل من يبحث عن المعرفة، فكرة المشروع هي تحويل بيته إلى متحف ومركز ثقافي، والذي سيكون في صورة مقعد لأهل البلد يقام به صالونات ثقافية وجلسات للحوار والنقاش، أما المتحف فسيحتوي على أهم مقتنيات الأستاذ همام والتي تحكي جزء كبير من تاريخ القصير.

بيت الأستاذ همام والتلوث والمسخ الذي يهدده

المشروع مضمون له الاستدامة نظراً لإحتياج السكان المحليين إلى الأنشطة المقترح تنفيذها بجانب قيمة الأستاذ همام وقيمة مقتنياته والتي سيتم عرضها في المتحف، بجانب أن هناك إلحاح لإنقاذ البيت سريعاً قبل أن يهدم أو يتم مسخه بإستعمالات لا تتناسب مع قيمته والقيم المضافة له.

النواة الثالثة | مبنى البلدية: متحف القصير

مبنى البلدية كان شاهداً على تاريخ كبير للقصير مهماً، وهو الآن في حالة متدهورة للغاية ومهمل تماماً، ويستهدف المشروع أن تتحول هذه النواة إلى مركز ثقافي ومتحف يمارس به الكثير من الأنشطة التوعوية والثقافية المتنوعة.

النواة الرابعة | السنتر: مركز الأطفال

مبنى السنتر كان في الأساس وحدة صحية وظلت لفترة طويلة مهملة حتى تم تجديدها في عام ١٩٩٥ وتحويلها إلى مركز تدريب للأطفال، وقد إرتبط به الأطفال والشباب حيث أصبح بؤرة تنويرية بالقصير. والمشروع المقترح هو زيادة فاعلية هذا المشروع ليتحول إلى نواة تنموية مع باقي الأنوية.

النواة الخامسة | مصنع الفوسفات: متحف للصناعة المصرية

يمثل مصنع الفوسفات تاريخ مهم لمدينة القصير حيث كانت تتميز بإستخراج وتصنيع الفوسفات ومن ثم نقله عبر ميناءها القديم والشهير في تلك المرحلة، هذا المصنع مهجور ولكنه يمثل في بواطن ذاكرة السكان المحلين الكثير من الذكريات ونقترح تحويله إلى متحف يحكي تاريخ الصناعة المصرية ويستثمر وجود مجموعة من الحيوانات المحنطه والموجوده بالمصنع والتي قام بتحنيطها أحد المهتمين بتاريخ القصير.

مانيفستو المدن العربية التراثية

لماذا "مانيفستو" ...؟

في ديسمبر من عام ٢٠١٦ وفي مؤتمر هيئة المعماريين العرب حول المدن العربية والذي أقيم بلبنان، تقدم الباحث بمقترح لإعداد مانيفستو للمدن العربية التراثية، مؤكداً على أهمية إيجاد مجموعة من الضوابط الحاكمة لكيفية التعامل مع المدن العربية التراثية ليس فقط من أجل الحفاظ عليها، بل من أجل مجموعة من الأهداف التي تتبلور حول كلمة (جودة الحياة). تشير أغلب الدراسات أن المدن القديمة كانت أكثر راحه وتفاعلاً مع النواحي الإجتماعية والإقتصادية والمناخية..إلخ، وتتميز من حيث جودة الحياة بشكل نسبي مقارن لما نحن نعيش فيه الآن، لكن في نفس الوقت سنجد أن هذه المدن لم تعد تتناسب مع إحتياجتنا الحالية؟ وهنا تظهر المشكلة والتي تتباين حولها الآراء وتختلف بشكل كبير. فهل من الممكن أن تكون المدينة القديمة هي الأمل في أن نستحضر المنهج المناسب لكي نحصل على جودة حياة نرتضي بها في هذا الزمن الذي نعيش فيه...؟

ولقد أعد الباحث ورقة عمل مقترحة لكيفية إعداد "مانيفستو" ستشتمل على خطة عمل ترتبط بأنشطة هيئة المعماريين العرب وتسعى لتحقيق أهدافها، من خلال أربع محاور: تشريعية، مهنية، تعليمية، ومجتمعية. حتى نحصل على مجموعة من المباديء الحاكمة والوثائق الإرشادية لعملية العمران تَعلي من قيمة هويتنا. فكما كان التخطيط للمدن القديمة عملاً مجتمعياً في الأساس فإن الباحث يستهدف أن يكون العمل على إعداد المانيفستو عملاً مجتمعياً على النطاق الفني والعام حتى يكون المنتج نتيجة حقيقية لتفاعل أركان المعدلة.

والفكرة الأساسية للمانيفستو هي التعاون والتشارك والتكامل بين معماريو البلدان العربية من أجل إعداد "مانيفستو" المدن العربية التراثية، يقدم منهجية لكيفية التعامل والتناول، ويحتوي على مجموعة من الضوابط، والقواعد العامة، وتوجيهات فنية، وتجارب فعلية.

المستهدف أن يتم إنجاز هذا العمل من خلال المؤسسات المعمارية والهندسية المحلية والإقليمية، وفق خطة زمنية محددة تحقق مجموعة من الأهداف الأساسية والتي تسير في مجال تحقيق رؤية هيئة المعماريين العرب، ولتحقيق مجموعة من الأهداف وهي:

- التعاون والتكامل والتشارك بين المعماريين العرب، وبين المؤسسات في المجال المهني والتعليمي والقانوني والمجتمعي.
- تبادل الخبرات المختلفة.
- تحديد مجموعة من القواعد العامة مع الحفاظ على الخصوصية النسبية لكل بلد.
- إشراك المجتمع بشكل عام وفني.

الخلاصة

إننا نعيش عصر يتسم بالعولمة والانفتاح والحداثة، تفقد فيه الدول تدريجياً خصوصيتها، وسيظل التراث العمراني الأداة الرئيسية لنقل القيم والقواعد المشتركة والتواصل بين الماضي والحاضر، من أجل تعزيز الهوية الوطنية للشعوب. وبالتالي فإن للتراث في هذا الظرف أهمية تتخطى حدود المجال الثقافي والاجتماعي لتصل إلى المجال السياسي، فنرى أن الاهتمام بالتراث قد اكتسب الآن أولوية في سياسات المجتمع الدولي والحكومات، فالسياحة والتنمية المستدامة الطويلة المدى يحتما زيادة فرص الاعتماد على الهوية المحلية في مواجهة العولمة المتسارعة في الاقتصاد والثقافة. ان المشروع المُقترح لتنمية القصير من خلال الأنوية التنموية، يصلح لتطبيقة في كثير من بلدان البحر المتوسط نظراً للتشابه بينها.

النتائج

خلُص الباحث إلى مجموعة من النتائج والتي كان لها مردود مباشر على التوصيات وبالأخص منهجياً، جزء من النتائج هو نتيجة للتحليل الإستنباطي لمنطقة الدراسة والآخر هو نتائج التجربة المقترحة:

١. تخطيط المدن العربية هو عمل إجتماعي في الأساس يستهدف تنظيم إحتياجات المجتمع وتوفير الخدمات له، والمدن ككائن الحي يتفاعل مع المجتمع فتؤثر فيه وتتأثر به.
٢. الصراع الدائر بين الهوية العربية والعولمة المعمارية أثّر بشكل واضح على حال التراث العمراني بنسب متفاوته ترتبط بالظروف الإقتصادية والسياسية الخاصة بكل بلد.
٣. تتسم المنطقة العربية بوجود تراث عمراني متميز جداً وهو جزء من التراث الإنساني المُعبر عن ثقافة وحضارة المنطقة.
٤. عدم تناسب التشريعات مع خطط تنمية المناطق التراثية، وضعف الآليات من الجهات الإدارية، ومع عدم التنسيق بين الجهات المختلفة من الأسباب الرئيسية لوجود معوقات أمام الإستثمار في مناطق التراث العمراني.
٥. نحن في أشد الحاجة لوجود نظام مرن محفز للإستثمار داخل مناطق التراث العمراني دون أن يسيء له.

التوصيات

- **وقف كافة أعمال الهدم للمباني في البلدة القديمة بالقصير.**
- **تسجيل المنطقة كمنطقة ذات قيمة من قبل جهاز التنسيق الحضاري المنوط بهذا، والسعي لتسجيلها كموقع تراث عالمي.**
- **دراسة وضع خطة متكاملة لتنمية المنطقة، سواء المباني السكنية أو المباني العامة.**
- **اقتراح بتأسيس لكل منطقة من مناطق التراث العمراني، مفوضية تتكون من أعضاء مفوضون من الجهات المعنية لإدارته، يكون من مهامها إدارة الإستثمار داخل المنطقة وفق الخطط المعتمدة.**
- **ضرورة تطوير التشريعات بالشكل الذي يحقق المرونة والفاعلية في التعامل مع التراث العمراني ويزيل المعوقات، مثل إعطاء إستثناءات في إستعمالات بعض المباني وفق الخطط المقترحة.**
- **توحيد أسس ومعايير تسجيل المباني والمناطق ذات القيمة، مع إعطاء هذه الجهات الصلاحيات اللازمة للمراجعة والمتابعة.**
- **الإعتماد بشكل رئيسي على المجتمع في الإستثمار وتنمية التراث العمراني .**
- **التشارك بين السكان والمستثمر في إستثمار التراث العمراني وفق إطار يحقق العدالة بين الجميع.**
- **الإعتماد على منهجية الأنوية التنموية تبعاً لظروف كل منطقة.**
- **عقد حلقات نقاشية وورش عمل على نطاق دول البحر المتوسط لتبادل الخبرات لكيفية التعامل مع المدن التراثية لم يوجد بينها من تشابه.**

١. أحمد راشد – محمد عصمت، ٢٠١١، الحفاظ والإستدامة: رؤية مستقبلية للتوازن بين التنمية السياحية وهوية المجتمع، دراسة حالة مدينة القصير بالبحر الأحمر.
٣. أحمد راشد – محمد فكري – محمد البلقاسي، ٢٠١٣، الإستثمار كركيزة لعمليات الحفاظ بالمناطق التراثية – شارع المعز، ملتقى التراث العمراني الوطني الثالث.
٣. أشرف صالح، ٢٠٠٩، التراث الحضاري في الوطن العربي – أسباب الدمار والتلف وطرق الحفاظ، مؤسسة ابنور للثقافة والاعلام.
٤. اليونسكو. (٢٠١٩). استرجع من https://en.unesco.org/
٥. بوابة وزارة الآثار المصري. (٢٠١٩). استرجع من http://www.antiquities.gov.eg/DefaultAr/Pages/default.aspx
٦. جهاز التنسيق الحضاري. (٢٠١٩). استرجع من http://urbanharmony.org/ar_home.asp
٧. حمدي السطوحي، ٢٠١٦، مدن قديمة أملاً لحياة جديدة، مؤتمر المعماريين العرب بلبنان
٨. شادي عكاشة محمد عامر، ٢٠١٦، إعادة تأهيل المباني التراثية وتأثيراتها على استدامة عمليات الحفاظ "دراسة حالة لمدينتي فوة والقصير، المجلة العلمية لكلية الهندسة بجامعة الأزهر.
٩. شريف كناعنة، ٢٠١١، الثقافة والتراث والهوية، مواطن – فلسطين.
١٠. محمد سلطان، ٢٠١٣، قضايا تمويل التراث العمراني: الإطار الإستراتيجي لتعزيز حفظ وحماية التراث، ملتقى التراث العمراني الوطني الثالث.
١١. عابد محمود أحمد جاد - أيمن عبد الفتاح محمد حسن، ٢٠٠٦، إعتبارات حماية و تطوير المناطق التر اثية المتدهورة، المؤتمر الدولى للمدن التراثية "مساهمة التراث فى التنمية الحضرية المستدامة".
١٢. Anandit Sachdev , 2017 , Introducing Sustainable tourism to the historic residential area of el-Quseir, Egypt, a thesis Submitted to the faculty of engineering at Cairo university in Partial Fulfillment of the requirements for the degree of master of Science, Brandenburg university of technology, Cottbus, Germany faculty of engineering, Cairo university, Giza, Egypt.

عمان المدينة البيضاء واثر الحجر على هويتها

د. محمود أحمد إسماعيل
أستاذ مشارك التصميم الداخلي والعمارة الداخلية

يرى البعض أن المقصود بالهوية المعمارية لمدينة ما ينطبق على ما في هذه المدينة من مبان تاريخية أو أثرية، والحقيقة أن الهوية هي حصيلة العلاقات المركبة بين ما ورثته المدينة من مبان تاريخية أو أثرية وما تتميز به من طابع ومدى امتداد هذا الطابع على البيئة المبنية فيها، وأن هوية المدينة وطابعها البصري يمكن تحديده عن طريق توافق العديد من مبانيها في طابعها، وسماتها المعمارية، وليس من خلال مبنى فردي أو عدد محدود من المباني فيها.

وهناك مجموعة من العوامل تؤثر بشكل كبير على التصميم والطابع المعماري لمدينة من المدن، منها ما يتعلق بالمواد الخام المستخدمة في عمارتها، والتقنيات المستخدمة في البناء، وتشريعات البناء، وآليات السوق، والمؤثرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، التي تؤدي إلى مجموعة من الأنشطة والسلوكيات يتفرد بها مجتمع المدينة، وتنعكس على عمارتها.

ويتناول البحث تحديد مفهوم الهوية، وخاصة الهوية المعمارية، والجدل حول هذا المفهوم، والدور الذي تلعبه في تحقيق خصوصية مدينة عمان وهويتها البصرية، وذلك من خلال دراسة بدايات عمان المعمارية امتداداً إلى العمارة المعاصرة ومحاولة استقراء الملامح الرئيسية للعمارة في مدينة عمان. وعرض العوامل المؤثرة على الهوية المعمارية للمدينة، وأهمها خامة الحجر الطبيعي، الذي ظلّ الرابط بين جميع الأنماط والاتجاهات المعمارية للمدينة. كما تناول الإشكالية الجدلية بين صراع الموروث المعماري الحضاري وأثر اتجاهات الحداثة والعولمة وآليات السوق التي طغت على النظام الاقتصادي العالمي، وعرض بعض الأنماط التصميمية المعمارية للمدينة بالنقد والتحليل برؤية تشكيلية.

وخلص البحث إلى أن مدينة عمان تمتلك هوية معمارية وتتمتع بصفات جمالية وخصوصية بين المدن والعواصم العربية فطبيعتها الجبلية وبيئتها المبنية ذات طابع عمراني تكعيبي رائع التكوين، كما عرض التجربة المعمارية منذ البديات حتى الان، وأن هناك عوامل عديدة لها أثر على الهوية المعمارية ومن أهمها خامة الحجر الطبيعي الذي يعد الرابط بين التراث المعماري الذي استمد أصوله من الشخصية المعمارية للإقليم وبلاد الجوار والعمارة المعاصرة ويظل من أقوى الخيارات للمحافظة على الهوية المعمارية والبصرية لمدينة عمان .

مقدمة

تتأثر الهوية المعمارية بالعوامل المحيطة سواءٌ أكانت عوامل سياسية، أو اقتصادية، أو بيئية، أو اجتماعية أو ثقافية. وهي تعدُّ انعكاساً أصيلاً وترجمة حقيقية لطبيعة المجتمع. والدارس للهوية المعمارية العربية يجد أنها تمر بأزمة ازدادت وتيرتها في الدول ذات النمو السريع مثل الأردن.

ومدينة عمان عاصمة الأردن، والتي يطلق البعض عليها المدينة البيضاء بسبب غلبة اللون الأبيض على البيئة المبنية للمدينة، والدراس لعمارتها يجد أن معظم مبانيها العامة والخاصة يكسوها الحجر الأبيض مما جعل لها تفرداً خاصاً، وأكسبها هوية تميزها كأحد المدن العربية. ويعود الموروث التاريخي لمدينة عمان لآلاف السنيين، ولكن تاريخها الإداري والحضري يعود لبدايات القرن الماضي، فقد تحولت من تجمعات سكنية لمستوطنات صغيرة إلى مدينة حضارية كبيرة على رقعة جغرافية متسارعة النمو. وشهدت مدينة عمان تغيراً مستمراً في شخصيتها المعمارية، فخلال العقود القليلة الماضية ظلت الحركة المعمارية مستمرة وظلّ التوسع الأفقي من أهم سماتها الأساسية؛ مما أظهر تطورات متلاحقة في هويتها المعمارية.

ولقد عاشت عمارة عمان إشكالية جدلية تمثلت في الصراع بين اتجاه الحداثة والعولمة الذي طغى على النظام الاقتصادي العالمي، وبين الموروث الحضاري والمعماري للمدينة. ومع اختلاف العوامل المؤثرة على الهوية التي سيتناولها البحث ظلّ الحجر، باعتباره الخامة الأساسية بفضل التشريعات الخاصة بالبناء، هو العامل المشترك بين جدلية الماضي والحاضر، واستطاع الحفاظ على هوية المدينة بشكل واضح.

ومنذ منتصف القرن الماضي وحتى الآن، احتفظت عمان بطابعها الاجتماعي والعمراني المتميز، المتمثل في التنوع المعماري في عمارتها القديمة والحديثة، وهذا ما سيتناوله البحث باستعراض البدايات التي تمثل العمارة القديمة، وكذلك العمارة الحديثة، بالرصد والتحليل. وعما إذا كان الحجر، كخامة أساسية للبناء، قد استطاع المحافظة على الهوية مع مواكبة التطور المعماري ومجاراة اتجاه العولمة، وذلك من خلال رؤية تشكيلية لعمارة مدينة عمان.

مشكلة البحث

البحث يحاول الإجابة على بعض التساؤلات:

- دور الهوية المعمارية في تحقيق خصوصية هوية مدينة عمان ؟
- التجربة المعمارية لمدينة عمان منذ البدايات حتى الآن؟
- هل مدينة عمان ذات هوية معمارية واضحة تتجلى من خلال البيئة المبنية للمدينة؟
- ما هي أهم العوامل التي أثرت في هوية مدينة عمان؟ وما هو دور الحجر كخامة أساسية للبناء في ذلك؟

أهداف البحث

اعتمدت البيئة المبنية على الحجر في واجهات وتشكيلات مبانيها كمواد محلية إقليمية ليصبح هناك معنى للعمارة الإقليمية، ويهدف هذا البحث إلى:

- تحديد مفهوم الهوية، وخاصة الهوية المعمارية، وأثرها على تشكيل الهوية البصرية لمدينة عمان.
- استعراض لتطور الهوية المعمارية لمدينة عمان منذ البدايات حتى الآن، والأنماط التصميمية التي ساعدت على الحفاظ على هذه الهوية.
- دور العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي أثرت على هوية المدينة، وكذلك خامة الحجر كعامل أساسي، في الحفاظ على الهوية المعمارية لمدينة عمان.

طريقة ومنهجية البحث

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي والمنهج التاريخي، وذلك في استعراض وتحليل التطور المعماري للهوية البصرية لمدينة عمان، وتحليل الأنماط المعمارية، التي أثرت على هويتها ودراسة البدايات المعمارية، وكذلك العمارة المعاصرة، مع وصف لخامة الحجر وعلاقته بالبيئة المبنية، مع لمحة تاريخية عن تطور الهوية المعمارية. وفي نهاية البحث تم تحليل ورصد بعض الواجهات المعمارية برؤية تشكيلية، واختتم البحث بالنتائج التي تم توصل إليها من خلال هذه الدراسة.

مفهوم الهوية

ليس هناك تعريف محدد للهوية، ولا تقدم معاجم اللغة العربية القديمة معنى شاملاً عن "الهوية"، ولكننا يمكن أن نجد لها تعريفات محددة في المعاجم الحديثة نسبياً، ففي المعجم الوجيز تعني الهوية: "الذات"، وفي المعجم الوسيط تعني "حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره"؛ فهي جوهر الشيء وحقيقته، لذا نجد أن الجرجاني في كتابه "التعريفات" يقول عنها: " إنها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب" (الجرجاني، ١٩٨٧ : ٣١٤)؛ ويرى البعض أن الهوية هي ما يعرِّف الشيء في ذاته دون اللجوء إلى عناصر خارجية لتعريفه، ويستعمل أيضاً للدلالة على الجوهر والماهية؛ فهوية الإنسان أو الثقافة أو الحضارة هي جوهرها وحقيقتها (عمارة، ١٩٩٩ : ٦) ؛ والهوية دائماً جماع ثلاثة عناصر: العقيدة التي توفر رؤية للوجود، واللسان الذي يجري التعبير به، والتراث الثقافي الطويل المدى (المنير، ٢٠٠٠ : ١٤٦). ومما سبق نستطيع أن نقول: إن "الهوية" أو "الطابع" من حيث الدلالة اللغوية، أو الفلسفية، تعنى حقيقة الشيء أو جوهره الذى يمكن أن يميزه عن غيره، وهى تحمل خصوصيات ثقافية معينة أو الانتماء إلى فكر أو أيديولوجيا محددة. وللهوية رافدان أساسيان هما: التراث، الذي يمثل الجانب الثابت من الهوية، والمجتمع والبيئة بمعناها الشامل واللذان يمثلان المصدر المتغير من الهوية (الهوية والطابع المعماري، ٢٠١٧).

مدينة عمان عبر التاريخ

ساهمت وفرة المياه التي كانت تتدفق إلى عمان من سفوح التلال المحيطة بالأودية لتصبح أنهارا موسمية في جذب السكان إليها عبر التاريخ، واستمرت عمان في الفترة الاسلامية بالمحافظة على الأهمية الاستراتيجية، فكانت في الفترة الأموية ذات شأن كبير ثم أصبحت مزاراً تجارياً وزراعياً مهماً للأيوبيين (الموسى، ١٩٨٥: ٥). ولقد زار عمان الكثير من الرحالة ونذكر منهم "بركهارت" الذي وصفها عندما زارها عام ١٨١٢ قائلاً "تقع البلدة على طول ضفاف النهر المدعو ميةَ عمان، والذي ينبع من بركة من طرف المدينة الجنوبي الغربي، وعلى جانب النهر الجنوبي مدرج رائع يعتبر أكبر ما شاهدته في سوريا، وعلى قمة التلال الشمالية تقع قلعة عمان، وهي بناية واسعة جداً وأسوارها سميكة وتشير إلى آثار العصور العريقة في القدم"(عرفة، ١٩٦٩: ٥٦).

وفي أواخر القرن التاسع عشر قدم إليها الشراكسة وسكنوا فيها سنة ١٨٧٨ تقريباً، وبعد مدِّ الخط الحديدي الحجازي عام ١٩٠٣ تشجَّع كثير من قاطني المناطق القريبة كالسلط، ومادبا، ونابلس، والقدس ومن الأقاليم المجاورة، للإقامة في عمان لتبدأ المدينة بالتحول تدريجياً نحو المجتمع التجاري (الرفاعي، ١٩٨٩ : ٤٨).

وقد أثر القرن العشرين على نمو عمان وتوسعها باختيارها من قبل سمو الامير عبد الله بن الحسين عاصمة لإمارة الاردن ومركز الإدارة عام ١٩٢١، وبعد ذلك استقلال الأردن، وتأسيس حكومة المملكة الأردنية الهاشمية عام ١٩٤٦ ومروراً بنكبة ١٩٤٨ ثم توحيد الضفتين الشرقية والغربية عام ١٩٥٠ ثم نكسة ١٩٦٧ ومجيء الأهل من فلسطين ليستقر العديد منهم في عمان؛ لتحتاج المدينة الى المزيد من المساكن والمباني الخدمية من مدارس ومستشفيات ومباني إدارية وتجارية والشوارع المعبدة وذلك لتضاعف عدد السكان. ثم تأتي أحداث لبنان والازدهار الاقتصادي المؤقت نتيجة لطفرة البترول في منتصف السبعينيات في السعودية والخليج العربي، والطلب المتزايد على انشاء المباني الفخمة بشكل خاص، ومن ثم اندلاع أزمة حرب الخليج الثانية في أوائل التسعينيات وعودة الكثير من المقيمين في دول الخليج للإقامة بالمدينة، وما واكب ذلك من تبعات وظروف سبقت وتعايشت معها عمان من قبل (العابدي، ١٩٩٨: ٥).

البدايات المعمارية في عمان

يوجد العديد من المباني تم بناءها في بداية القرن العشرين على أيدي مجموعة من العاملين منهم من مارس المهنة بالخبرة، وقليل منهم حصل على دراسات جامعية عربية وأجنبية في الخمسينيات ومع عودتهم اختلف الوضع فبدأوا العمل ضمن مؤسسات حكومية وبأسس هندسية سليمة ، فهم من وضعوا الاسس لعمارة عمان ومفاهيم تناسب المجتمع المحلي الأردني ونوعية مواد البناء المتوفرة كالحجر، وباعتماد نمط انشائي هو نظام الحوائط الحاملة، ونمط البناء بالخرسانة بنوعيها العادي والمسلح، والتي تغطي الهيكل الانشائي، وقاموا بتطوير النظامين واستحداث نمط معماري انشائي جديد خاص بالأردن يعتمد على بناء الحوائط الحاملة والحجر في الواجهات الخارجية، ثم شاع استخدام هذان النظامان وهو استخدام الخرسانة العادية كتصفيح للحوائط الحجرية مما أدى الى خفة المبنى وامكانية تحسين الواجهات وزيادة عدد الطوابق وارتفاعها (أبو غنيمة، ٢٠٠٢: ١٣٤).

البيئة المبنية لمدينة عمان

ويمكن تصنيف البيئة المبنية في عمان إلى مجموعتين أساسيتين، المجموعة الأولى: هي عمارة عمان القديمة، والمجموعة الثانية: هي العمارة المعاصرة منذ بداية الثمانينات من القرن الماضي إلى الآن.

البدايات المعمارية لمدينة عمان :

- أحد المباني التراثية في جبل اللويدة
- أحد المباني التراثية في جبل اللويدة
- بناية تعود لبدايات تأسس المملكة ١٩٢١
- مبنى فندق " ديوان الدوق " معلم تراثي من قلب العاصمة

مبنى امانة عمان – من أعمال المعماري راسم بدران والمعماري جعفر طوقان ، من الاعمال التي تعبر عن اتجاة ما بعد الحداثة .

انعكاس العامل الاقتصادي على البنايات السكنية ما يطلق عليه (إسكانات)

العمارة في عمان القديمة

تتضمن العمارة السكنية القديمة في عمان المباني التراثية، التي يرجع تاريخها الى بدايات القرن الماضي بأحيائها المختلفة والمتفاوتة في المستوى الاجتماعي، فهذه المباني يعود تاريخها إلى بدايات تأسيس الدولة عام ١٩٢١ وتبدو عليها تأثيرات معمارية مختلفة، وقد عكست بذلك روح المكان ومفرداته الحضارية والإنسانية.

ونجد في فن العمارة في عمان القديمة، لاسيما تصميم البيوت والقصور، تمتزج فيه مزايا العمارة الرومانية واليونانية ثم العمارة العثمانية والعربية بمدارسها الزخرفية المختلفة، وتلتقي فيه التصاميم الكلاسيكية مع تلك الحداثية مما حوَّل مواقع مثل جبل اللويبدة وجبل عمان، والجزء القديم من جبل الحسين، وجبل القلعة، إلى متحف مفتوح يؤرخ لتطور الفن المعماري في المنطقة؛ فهي تشبه بدرجة كبيرة مدن: نابلس، والقدس، ويافا، وجبل لبنان، وطرابلس، ودمشق. إن حجر مدن معان، ونابلس، بألوانه المختلفة، وأسطح القرميد، والعناية بالتفاصيل الزخرفية، والحدائق، والشرفات، كل ذلك منح الجزء القديم من المدينة الممتد من «وسط البلد» صعودا باتجاه الجبال الغربية، أي جبل عمان، وجبل اللويبدة، حالة متفردة لشخصية المكان الذي يعبر عن هوية ذاتية خالصة (بيوت عمان القديمة، ٢٠١٧).

العمارة المعاصرة في عمان

نهضت العمارة المعاصرة في عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي وحتى الآن، ويمكن تقسيم هذه المجموعة الى قسمين، الأول: يحمل قيم جمالية ساهمت في تشكيل هوية خاصة لهذه المدينة، أما الثاني: انعكست فيه مظاهر العولمة من جهة، وتحرير الشكل من متطلبات الاتقان ومفهوم السوق الحر من جهة أخرى.

أوّلا: عمارة ساهمت في تشكيل الهوية

أسهم توافر أعداد كبيرة من المهندسين المعماريين، الذين تخرجوا في مدارس معمارية مختلفة، في تقديم مجموعة متنوعة من الحلول التصميمية للمباني السكنية، وشجعت على ذلك الطفرة الاقتصادية في البلد أواخر السبعينيات، وأصبحت تذخر بكّم هائل من التجارب المعمارية، بعضها مميز، وبعضها الآخر ردي، أما مدينة عمان فاحتفظت لذاتها بلغة معمارية خاصة وبارزة، أساسها توفر مادة الحجر كعنصر هام في العمارة العّمانية، والسكنّية منها على وجه التحديد (متروك، ٢٠٠٤: ٨٩).

وشهدت فترة الثمانينيات أعمالاً متميزة، فاتجه بعضهم إلى العمارة المستمدة من مفردات التراث الاسلامي، وبعضهم عشق الحجر وتفرد في تطويعه إلى لغة معمارية مميزة، وآخرون إتجهو إلى النمط المعماري العالمي (متروك ، أبو غنيمة ، ٢٠١٠ : ٣) . والأمثلة كثيرة في مدينة عمان على التميز في العمارة في هذه الفترة .

ثانيا : عمارة عكست مظاهر العولمة ومتطلبات السوق

بدأ الفكر المعماري الجديد يبتدع تصميمات معمارية في إطار المنافسة، فلم يحّدد ذاته بالمرجعيات الفكرية القائمة، بل ابتكر الجديد منها، وأضاف إليها مبتكرات متسارعة لأغراض المنافسة، فوقع المتلقي فريسة العجز عن التحاور مع المعماري جراء اختلاف مرجعيتهما، فنتجت الهوة العميقة بين المعماري والمتلقي.(النعيم، ٢٠٠٥: ٥٠).

وظهرت أنماط متعددة للمباني العامة والخاصة، هناك من يسعى لتحقيق أكبر مكسب مادي بسبب الخضوع لآليات السوق وأفرزت مباني سكنية متعددة الطوابق والتي يطلق عليه مصطلح (الإسكانات) في المجتمع المحلي التي تتميز بفقدان الهوية المعمارية. وهناك أيضا بعض الأنماط المعمارية التي تميزت بتصميمات حديثة تتواكب مع لغة العصر المعمارية واستخدام خامات حديثة، ينما ظلّ الحجر هو الرابط بين جميع هذه الأنماط والاتجاهات المتميزة وغيرها، وهو ما يلاحظه الناظر للبيئة المبنية لهذه المدينة من الوهلة الأولى حالة من الترابط الواضح بفضل استخدام خامة الحجر الأبيض في البناء.

العوامل المؤثرة على تشكيل الهوية

المعمارية لمدينة

استمدت مدينة عمان هويتها من طابعها المكاني والمحلي والاجتماعي، وموارد طبيعية، والتضاريس الجبلية، والبيئة المبنية، وشخصيتها المعمارية المكسوة بالحجر (Zalloom, ٢٠١٥ : ٣٥) وهناك مجموعة من العوامل كان لها أكبر الأثر على هوية المدينة المعمارية، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

التشريعات الخاصة بالبناء

تعتبر التشريعات من أهم المحددات التي لها دور أساسي في تشكيل هوية المدن، ولقد تطورت عمان في بداية نشأتها المعمارية بشكل عفوي، وكانت جميع مكونات المدينة تلقائية للمساكن المكسوة جميعها بالحجر، دون مراعاة لمعايير واشتراطات محددة (Ph.D Vlada Melnik, , ٢٠١٩ : ٧٠)، وبمرور الوقت أصبحت عمان العاصمة الإدارية. وهناك العديد من المعايير والاشتراطات لأنظمة البناء المختلفة والتي تختلف باختلاف المكان فيها ونذكر بعض منها فيما يلي:

- هناك مناطق تم تخصيصها لقطاع الأبنية العالية، وذلك لتلبية حاجات الاستثمار ضمن مواقع مناسبة تتوفر فيها شبكة الطرق والمواصلات والبنية التحتية، وتحافظ على التراث، وتوفر مساحات خضراء، وتحافظ على مظهر المدينة وطابعها من خلال تشجيع التصاميم الهندسية الحديثة والمميزة.
- أما المناطق السكنية فيجب التقيد بالحد الأعلى للارتفاع التنظيمي للبناء، ولا يجوز أن يزيد الارتفاع المطلوب عن أربعة طوابق، وكذلك نوع البناء السكني ومساحة الواجهة الأمامية، والارتداد الأمامي والجانبي والخلفي.
- اما الواجهات المعمارية فيجب المحافظة على نظافة الواجهات ونوع التكسية الخارجية ودهانها، واستخدام خامة الحجر الطبيعي. ويمكن استخدام نسبة ٢٠ ٪ بأي لون من الطلاء أو لون آخر للحجر شرط الحصول على الموافقة، كما يحذر استعمال مواد عاكسة للضوء التي تؤدي إلى إزعاج المجاورين والمشاة، وعدم القيام بتمديد أو تركيب أية أجهزة أو معدات ميكانيكية على الواجهات الأمامية للبناء، وألّا يقوم بتمديد خطوط شبكات المياه والصرف الصحي أو التمديدات الكهربائية أو الميكانيكية على واجهات البناء الخارجية بشكل ظاهر (نظام الأبنية لسنة ٢٠١١).

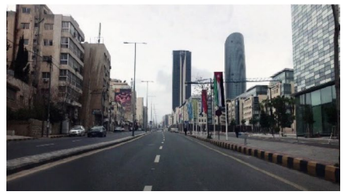

المباني الشاهقة ومراكز التسوق والمباني الأنيقة أثر العامل الاقتصادي وآليات السوق

المباني السكنية الحديثة أثر العامل الاقتصادي المتميزة تصميميا

آليات السوق والعامل الاقتصادي

تنعكس الظروف الاقتصادية على المشهد المعماري والعمراني للمدينة، فحدث نوع من التحول يرجع الى حالة النمو الاقتصادي في الأربع عقود الماضية والتي أثرت على تعزيز الاقتصاد وزيادة إمكانيات السوق المحلي، وتحول مشهد المدينة التقليدي إلى مشهد عالمي لا يشير إلى خلفيتها التاريخية، وذلك بسبب قوة الرأسمالية العالمية، التي أجبرت السلطات المحلية على الميل إلى هذا النهج لتخطيط المدن وتنميتها دون الاهتمام بالخصائص المحلية للمجتمع (Dr. B. Zalloom & Prof. M. Aboutorabi١, ٢٠١٩ : ١١٢) ، فاستجابت المدينة بسرعة لنمط الاستهلاك المتزايد الجديد من خلال توسيع المؤسسات التجارية القائمة لتلبية متطلبات السوق، وبالمثل، أدى الطلب المتزايد على العقارات السكنية والتجارية إلى ازدهار العقارات والاستثمار في تطوير الأجزاء الغربية من عمان (United Nation (UN), ٢٠٠٥) .

وشمل توسع المدينة منذ أواخر عام ١٩٧٠ العديد من التطورات الجديدة في شكل المباني الشاهقة ومراكز التسوق مع الخدمات الأنيقة، والبنية التحتية الممتازة للطبقة الاجتماعية الثرية،الذي يعد مثالًا واضحًا لإعادة الهيكلة الحضرية وتطوير شكل الترتيب المكاني (Al-Faouri, ٢٠١١ : ٦٥) ، ولمواجهة الازدحام المروري، أنشأت أمانة عمان الكبرى جسر عبدون في عام ٢٠٠٦، في الجزء الغربي من عمان، الذي يعتبر معلمًا معاصرًا في مشهد مدينة عمان (Potter, ٢٠٠٩ : ٨٨) ، ولم تؤثر هذه التطورات على المشهد المادي للمدينة فحسب، بل أثرت أيضًا على استقطابها الاجتماعي والمكاني منذ زيادة أسعار الأراضي والممتلكات التي استمدها السكان المحليون من ضواحي المدينة(Zalloom, ٢٠١٥ : ٤٨) . كما ساهمت هذه التطورات الاقتصادية في الطابع العام للمدينة، وغيرت من الشكل الحضري، فظهر عدد من المباني الشاهقة لتحل محل المباني التقليدية المكونة من

أربعة طوابق والمكسوة بالحجارة المحلية، وهو ما أدى إلى تغيير المقياس الموحد الذي ميَّز عمان (More than a master plan: Amman , ٢٠١٨) وبذلك يوضح تاريخ عمان المعاصر تأثير الرأسمالية العالمية في تشكيل المدينة وهويتها المعمارية، ويمكن القول أن عمان هي مزيج بين سيطرة الدولة والليبرالية الاقتصادية حيث يتم تحديد التنمية الحضرية من خلال رؤية التخطيط لجذب الاستثمار الأجنبي، وتقليل القيود على المشاريع الحرة (Dareen Qashmar٢,٢٠١٩ , Dr. Jawdat Goussous١ : ٣٠).

العوامل السياسية

ان التغيرات السياسية التي مرت بها المنطقة منذ منتصف القرن العشرين كان لها أثر فعال على الهوية المعمارية، فقد يرجع التوسع السريع للمدينة منذ أواخر السبعينيات إلى البيئة السياسية الإقليمية بما في ذلك حرب الخليج ووصول المهاجرين، مما أدى إلى شراء العقارات والاستثمار في الأعمال وتقديم أنماط استهلاك جديدة. (Prof. M. Aboutorabi١ & Dr. B. Zalloom, ٢٠١٩ : ١١٣) ، فلقد استوطن عدد كبير من العراقيين واستقروا في عمان منذ عام ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٠، وانتقل أكثر من مليون سوري إلى الأردن منذ بدء الحرب في سوريا منذ عام ٢٠١١، وبسبب الحرب في اليمن انتقل العديد من اليمنيين الى العيش في عمان على الرغم من اعتماد الدولة على المعونات من المجتمع الدولي لتوفير عيش كريم للاجئين (Ph.D , Vlada Melnik , ٢٠١٩ : ٧١) ، كل هذه العوامل أدت الى تنوع مواطني عمان، وأوجدت طبقات اجتماعية وعرقية وثقافية مختلفة سواء كانوا مهاجرين أو غير مهاجرين، وما يثير الدهشة أن المدينة تمكنت من استيعاب جميع الطبقات المتباينة بل اكتسبت تطوراً جديداً من خبرة المهاجرين (Dareen , Dr. Jawdat Goussous١ Qashmar٢,٢٠١٩ : ٣١).

التخطيط العمراني ومشهد المدينة (City scape)

من أهم ما يميز المدينة، من وجهة نظر الباحث المشهد العام للمدينة (City scape) المميز والمكتمل بالتخطيط الحضري للمدينة؛ ففي بداية نشأة مدينة عمان لم يكن هناك مخطط رئيسي واضح ولا خطة مستقبلية لتطوير تخطيطها وعدم وجود حدائق وارصفة مشاة، وفي بعض الأحيان تشعر انك تسكن في مستوطنة ريفية، ولم تسطيع الحكومة توحيد هيكل محدد للمدينة بسبب عدم إمكانية شراء أرض ذات ملكية خاصة، بل هناك مناطق غير متطورة لا ترتبط بالطرق السريعة. (Ph.D , Vlada Melnik , ٢٠١٩ : ٧١) ، فقد كان الناس يستقرون على جبل ويبنون منازل على منحدر مما أدى إلى وجود السلالم والأحياء المنحدرة، التي تنمو حول هذه الاتجاهات الرأسية للسكن فيها (Dr. Jawdat Goussous١ , Dareen Qashmar٢,٢٠١٩ : ٣٤) . وفي الجزء الشمالي الغربي من المدينة هناك ضواحي سكنية تخلق انطباعاً مختلفاً عن المباني متعددة الطوابق، التي تظهر عند غروب الشمس مقابل خلفية المباني الشاهقة، (Ph.D , Vlada Melnik , ٢٠١٩ : ٧٢).

الدراسات المناخية والطبوغرافيا

تتميز المدينة بطبوغرافيا ومناخ أكسباها حالة فريدة ساهمت بشكل كبير في تشكيل هوية ذات خصوصية، فلقد أدى التوسع التدريجي لوسط المدينة في الوادي على طول نهر عمان في المواقع الجبلية المحيطة إلى بناء سلالم عامة على طول طرق المشاة (Prof. Dr. B. Zalloom & M. Aboutorabi١, ٢٠١٩ : ١١٣) ، ونظراً لما تتميز الظروف الطبيعية والمناخية في البلاد من وجود الهضاب، والوديان، والصحاري، وشبه الصحاري، وموارد المياه المحدودة، والمناظر الطبيعية، والصيف الجاف والحار، والشتاء الدافئ نسبيًا، والبيئة الملائمة نسبياً في منطقة مرتفعات الأردن حيث تتركز السكان في العاصمة (Ph.D , Vlada Melnik , ٢٠١٩ : ٧٢) ، كل هذه العوامل الجغرافية والمناخية أكسبت عمان طبيعة خاصة في الهوية المعمارية، فاستخدام الحجر الأبيض، والأسقف الجمالونية بالقرميد في فصل الشتاء، مع الطبوغرافيا الرائعة، وتباين الكتل المكعبة على سفوح جبالها بظلال فصل الصيف كل هذا أدى الى تفرد رائع في تكوينات المدينة.

التخطيط العمراني ومشهد المدينة (City scape) من مناطق متعددة بالعاصمة ، وسط وشمال وغرب العاصمة

بعض الأنماط التي ظهرت متأثرة بالطراز الدولي الحداثي (الباو هاوس)

العوامل الاجتماعية

تشمل العوامل الاجتماعية التغير الذي حدث في العادات والتقاليد، والحراك الاجتماعي الذي ظهر في طبقات المجتمع، وتحت تأثير العولمة الاجتماعية غالباً ما يتم المساس بأبعاد البيئة الحضارية، التي تشمل انشاء الطرق السريعة والأبراج الزجاجية الشاهقة، ومراكز التسوق وأنماط من نسخ بعض الأساليب المعمارية العالمية، ونتيجة لذلك استبدلت الخصائص التاريخية للمدينة بهوية عالمية، وأصبحت المدينة عبارة عن تجانس (خليط هجين) من الطابع الحضري العصري وطابعها التقليدي، وأصبح هذا التجانس يشجع مجتمعات بأكملها على اقتلاع جذورها الاجتماعية والتاريخية والثقافية. كل هذه التغيرات أثرت على الوضع الاجتماعي للجزء القديم، حيث بدأت معظم الوحدات والمحلات التجارية في الانتقال من وسط المدينة القديم إلى المناطق الجديدة، وينطبق نفس النقل على معظم المباني الحكومية والمكاتب الرئيسية للشركات والمؤسسات التجارية الكبرى (Dr. B. & Prof. M. Aboutorabi Zalloom, ٢٠١٩ : ١١٢).

عامل الثقافة المعمارية

بدأ التحول المعماري لعمان بعد الحرب العالمية الثانية بسبب تطور مدرستين من الأفكار فقد حاول المعماريون الأردنيون الذين درسوا في أوروبا تطبيق معاصر للمبادئ المعمارية لتطوير نهج حديث قائم على النمط الدولي، وربط أولئك الذين درسوا في الجامعات الأردنية تاريخ الأردن بثقافة عربية اسلامية أوسع واستخدمت العمارة الإسلامية كمرجع لتطوير الأسلوب المحلي (Prof. M. Aboutorabi & Dr. B. Zalloom, ٢٠١٩ : ١١٤) ، أثّر نهج تصميم المدرستين على الأنماط المعمارية فكانت عبارة عن مزيج من الأساليب التي تروج لها التقاليد الإسلامية ولترسيخ الهوية في المدينة من خلال توفير درجة من التماسك الاجتماعي والأشكال المميزة التي يمكن أن تصبح مصدرًا فخر للمجتمع (Pider,٢٠١١ : ٦٨) ، وفي المقابل، كان النمط المعماري للتطورات الجديدة، وخاصة المباني التجارية يتبع الأساليب العالمية HiTech، والزجاج المكعب غير المنتظم وكان لهذا تأثير عميق على تحويل الهوية المعمارية المحلية لمحاولة التوافق مع التنمية العالمية الشاملة (Potter, ٢٠٠٩ : ٩١) .

خامة الحجر الطبيعي كأحد العوامل المؤثرة على الهوية المعمارية لعمان

يعتبر الحجر الطبيعي من أهم العوامل التي أكسبت مدينة عمان طابعاً خاصاً وتفرداً في هويتها المعمارية. وتشير الدراسات الأثرية ان الأردن شهد بدايات المساكن الحجرية وظهر ذلك في العصر الحجري القديم والحديث، وأظهرت الفترة الرومانية قدرة الانسان على الإبداع بشكل دقيق ورائع ليعبر عن تلك الحضارة ورقيها، ومن أجمل أمثلة المدن النبطية في البتراء ومدائن صالح. وامتد استخدام الحجر في العصر البيزنطي، وفي الفترة الإسلامية، ومنها قصر المشتى، وقصر الحلابات، واستمر استخدام الحجر في البناء منذ ذلك الحين إلى عصرنا هذا (أباظة: ١٩٩٥ : ٤).

وتهتم الأردن بالحجر كأحد الموارد الطبيعية الغنية؛ ولاقى اهتماماً كبيراً في القطاعين العام والخاص، وتوسعت التقنيات والآليات الحديثة في صناعته، كما تعددت الأنواع الحجر الطبيعي، مثل: الحجر الجيري، والجرانيت، والرخام، التي لاقت قبولاً في السوق المحلي والعالمي، كما استخدمت كل منطقة نوع الحجر المتوفر لديها، فنجد مناطق الشمال والوسط وفي الأجزاء الغربية من الأردن استخدموا الحجر الجيري، أما المناطق الشمال الشرقي استخدموا حجر البازلت، وتم استخدام الحجر الرملي في مناطق جنوب الأردن (Raed Al-Share, W. M, ٢٠١٢, ٨٤)

أشهر أنواع الأحجار الطبيعية المستخدمة في البناء في الأردن

هناك العديد من أسماء حجر البناء، ويسمى باسم البلدة التي استخرج منها، أو خاصية فيزيائية، وبانتهاء الحجر من ذلك الموقع يجري البحث عن موقع لأخر ويأخذ اسماً جديداً. ويتوزع الحجر الطبيعي في الأردن في معان على بعد ٢١٠ كيلو متر جنوب عمان، وفي الأزرق على بعد ٩٠ كيلو متر شرق عمان، وفي عجلون على بعد ٥٠ كيلو متر شمال عمان، بالإضافة إلى العقبة ومحيطها في أقصى جنوب الأردن (Sultan, Suhail, ٢٠٠٧ : ٣٩)وهي على النحو التالي:

- **حجر عجلون:** وهو حجر شديد الصلابة وتشمل ألوانه الأبيض (المائل للازرق-المائل للاصفر)، كما أنها تحتوي على عروق بنية، ويتم استخراجه من مناطق مختلفة مثل: حجر عنجرة واشتفينا وصخرة وغيرها، ويتميز بالصلابة، وقلة امتصاص الماء، واللون الواحد وعدم توفره بكميات كبيرة.
- **حجر حيان:** ويرتبط اسمه بقرية حيان بالمفرق، ونظراً لسعره المعتدل ومواصفاته المادية المقبولة، يعتبر الحجر الأكثر شيوعًا، وهو أقل صلابة وأكثر امتصاصًا للماء مقارنةً بالأنواع الأخرى (Naghoj, Nart, ٢٠١٠ : ٦٢)
- **حجر معان:** ويُعرف بهذا الاسم نسبة إلى منطقة معان، وهو من أفضل أنواع الأحجار في الأردن من حيث مواصفاتها المادية. وهناك أسماء مختلفة لهذا الحجر بخصوص المواقع التي تم استخراجها منها، مثل: حجر معان السطحي، وحجر الجزيرة والجردانة(عبد القادر، ٢٠١٧ : ٤٨) .
- **حجر الرويشد:** وهو حجر مستخرج من منطقة الرويشد شرقي الأردن، ومنه أصناف مختلفة من الجودة والصلابة، وأفضل ما يتم استخراجه من نفس مستوى حجر معان الذي له نفس الخصائص الفيزيائية، لكن حجر الرويشد أقل في اللون الأبيض والصلابة وزيادة نسبة الملح في تركيبته، ويعتبر الأكثر رواجاً وانتشاراً

- **حجر القطرانة:** نسبة إلى القطرانة جنوب عمان، ويتميز الحجر بالصلابة، واللون الموحد ومعدل الامتصاص العالي للماء.
- **حجر السامك:** وهو من الأنواع المقبولة في دول الخليج، ويمتاز بلونه الموحد، وكتله التي تسمح بقصه بمقاسات كبيرة، والاسم نسبة الى قرية سامك.
- **حجر الأزرق:** ويسمى حجر الصحراوي وله عدة ألوان منها الأحمر والأبيض ويمتاز بقساوته.
- **حجر الحلابات:** وهو يتبع مدينة الحلابات بالزرقاء ويمتاز الحجر بأنه يصلح أن يكون حجر بناء ورخام.
- **حجر ضبعة:** وهو حجر ذو ألوان متعددة منها الأخضر والبني وينتج من مدينة ضبعة.
- **حجر البایر(الجفر):** وهو من اسمه يدل على منطقة الجفر في جنوب المملكة ويشبه من ناحية المواصفات حجر رويشد باستثناء لونه فهو يميل الى اللون الأبيض البني.
- **حجر الأصفر:** وهو حجر يمتاز بلونه الأصفر الجذاب وينتج من مدينة جرش
- لكل نوع من الأنواع السابقة خصائص فيزيائية تميزه تجارياً عن غيره وترتبط هذه الاختلافات بالظروف الجيولوجية التي ساهمت
- في تكوينه (عبد القادر، ٢٠١٧ : ٤٥) .

أنواع نقشات الحجر الطبيعي بالأردن

أولا: النقشة النافرة

- **الطبزة:** وهي من أقدم نقشات الحجر ووجدت قبل استخدام مناشير الحجر وأصبح الآن حجر الطبزة تقليداً للأسلوب القديم وتناسب انواع الحجر الطري والقاسي.
- **البرميل:** وهو تشكيل وجه الحجر على شكل نصف أسطوانة، وهذا الحجر مكلف عموماً ولكنة يعطي شعوراً بالثقل و الضخامة، ويستخدم عامة في المداخل وبعض البروزات المعمارية.
- **المفجر:** وهو معروف قديماً ويناسب أنواع الحجر الطري ويخفي عيوب الحجر نسبياً، وتستخدم الشوكة الواحدة في نقش هذا الحجر وينقش الحجر المفجر بعدة أشكال، وهي المفجر بخطوط أفقيه، أو قطرية، أو رأسيه (مفجر محزز)، أو المفجر يشكل عشوائي (المفجر)، أو المفجر بنقاط رأسية منتظمة تظهر سطح الحجر على شكل طبق البيض (مفجر طبق بيض) .

ثانياً: النقشة السطحية

- **المسمسم:** ويعتبر من أجمل نقشات الحجر ويستخدم في نقشه أزميل أو ازميل بشوكتين أو ثلاث، وتناسب الحجر القاسي وهي تخفي نسبياً عيوب الحجر وهناك عدة ألوان لنقشة المسمسم، وهي المسمسم بلمعة، وينقش الحجر بشكل خفيف، والمسمسم الكثيف (مسمسم مبلغ) وينقش الحجر بشوكة ذات رأسين أو ثلاث رؤوس، والمسمسم الكثيف جدا (مسمسم عجمي) ويدق الحجر بشوكة برأس واحد، وجميع هذه الأنواع يمكن أن تنقش بخطوط أفقيه أو رأسيه أو قطرية (ممشط).
- **المطبة:** تستخدم أداة المطبة لإزالة السطح الأملس للحجر، وهي نوعان، مطبة ناعمه، ومطبة خشنة، وتستخدم هذه النقشة للتفاصيل المعمارية الدقيقة.
- **المسقول:** حيث يتم سقل الحجر وإزالة منشار الحجر من سطحه وتناسب هذه النقشة أنواع الحجر القاسي والخالي من العيوب (أباظة: ١٩٩٥ : ٦).

ولقد تطورت الآليات في تصنيع واستخراج الحجر الطبيعي حيث يتم نشر الحجر وتهذيبه ميكانيكيا، فضلاً عن استخدام التقنيات الحديثة في التصنيع والزخارف والحجر الصناعي.

الطبزة

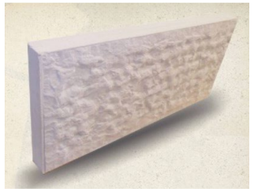

مفجر

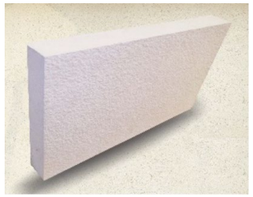

مطبة

مسمسم

دراسة وتحليل المفردات التشكيلية للمباني الحجرية

في هذا الجزء من البحث نتناول بعض الواجهات المعمارية للمباني السكنية متعددة الطوابق كأحد الأنماط المعمارية على أن تكون نماذج متباينة ومتفاوتة من ناحية التصميمات المعمارية والفترات الزمنية لبناءها بالوصف والتحليل القيم التشكيلية والتصميمية من خلال أستكشات من عمل الباحث، والتأكيد على هدف البحث في محاولة توضيح الدور المحوري الذي يلعبة الحجر كخامة طبيعية في التأثير على الهوية المعمارية للمدينة.

دراسة وتحليل المفردات التشكيلية للمباني الحجرية (النموذج الأول)

النموذج الأول:	مبنى سكني متعدد الطوابق
الموقع:	ينتشر في مناطق (جبل القلعة، جبل القصور، سفح النزهة، جبل التاج، وبعض مناطق جبل عمان) ، وجميعها تمثل منطقة وسط المدينة
نوع الانشاء :	أغلب هذه المباني تم بناؤها بنظام الحوائط الحاملة (ويطلق عليه محلياً مصطلح: دكة). وتمّ الدمج بين نظام الحوائط الحاملة والهيكلي في بعض منها.
عدد الأدوار :	أرضي وثلاثة أدوار متكررة
طراز الواجهة:	يتميز بالبساطة في تصميم الواجهات ولا ينتمي لطراز محدد، ويحمل سمات البناء في هذه الفترة الزمنية الذي يعتمد على واجهات مسطحة بها فتحات صغيرة.
الخامات المستخدمة في عملية إنهاء تصميم الواجهة:	البناء بالطوب أو الحجر كخامة متوفرة في هذه الفترة، وتكسية الواجهات الأمامية بأعمال البياض (القيصارة، وهي خلطة من الأسمنت والرمل) ويمكن الإبقاء على الاسمنت أو طلائها بعض قصارتها.
الألوان المستخدمة:	كانت دهانات البنايات بدون لون ووزعت أمانة عمان الدهانات المجانية للقيام بطلائها بلون موحد (الأصفر الفاتح) للمحافظة على الهوية البصرية لمشهد المدينة.

ملاحظات عامة :

تم بناء هذه المناطق في منتصف سبعينات القرن الماضي، يغلب عليها العشوائية ويرجع ذلك لعدم وجود تشريعات خاصة بالبناء في هذه الفترة، فلا توجد ارتدادات أو قوانين تشريعية حاكمة لأنماط البناء في هذه المنطقة

ويعتبر العامل الاجتماعي من أهم المؤثرات على عمارة هذه المنطقة، فمعظم ساكني المنطقة من الطبقة المتوسطة فيما دون من سكان مدينة عمان. وكل بيت مستقل تمتلكه إحدى العائلات وبأمكانهم استكمال طابق أعلى المسكن. في حالة زيادة العائلة أو زواج أحد أفرادها. وفي بداية الألفية الثالثة وزعت أمانة عمان الدهانات المجانية على أهالي المنطقة للقيام بطلائها بلون موحد (الأصفر الفاتح) للمحافظة على الهوية البصرية لمشهد المدينة.

التحليل التشكيلي للواجهة :

تتميز الواجهات المعمارية للمنطقة بالبساطة، فالواجهة ملساء غالباً، وبها ثلاث فتحات (شبابيك) صغيرة المساحة نسبياً إلى مسطح الواجهة. يعلو الشبابيك بروز لا يتجاوز 30 سم يطلق عليه "برطاشة" أو أيضاً "قمط الشباك"، وعلى الأرجح ليس لهذا البروز وظيفة سوى للتشكيل الجمالي.

من أجمل ما يميز هذه المنطقة (مشهد المدينة City scape) حيث تبدو ذات تكوين وتشكيل رائع لتراكيب الكتل المكعبة، وهو ما أكسبها تشكيلاً فنياً رائع التكوين، كما تتميز هذه المنطقة بخط السماء (Sky line) الذي أعطى المنطقة خصوصية مميزة وأكسبها هوية خاصة.

المنطقة ذات طبوغرافيا وتضاريس خاصة، وكانت للادراج (السلالم بين الادراج) ووسائل التواصل الرئيسي سمة خاصة تتميز بها هذه المنطقة، غير انها تفتقر للبنية التحتية. وتعمل أمانة عمان جاهدة لمحاولة حل المشكلات التي تواجه المنطقة، نظراً لبنائها قبل الالتزام بقوانين البناء والتشريعات المنظمة له.

مشهد المدينة للمنطقة City scape

الصورة الواقعية لمبنى

واجهة المبنى الرئيسية

التحليل التشكيلي للواجهة وخط السماء

دراسة وتحليل المفردات التشكيلية للمباني الحجرية (النموذج الثاني)

النموذج الثاني:	مبنى حديث في بداية الألفية الثالثة تاريخ انشائه ما بين عامي 1998 الى 2000
الموقع:	حي الرشيد – الجبيهة – شارع الأردن
نوع الانشاء :	مبنى هيكلي
عدد الأدوار :	أرضي وثلاثة أدوار متكررة
طراز الواجهة:	حديث (ليس للواجهة طابع محدد)
الخامات المستخدمة في عملية إنهاء تصميم الواجهه :	- حجر طبيعي الرويشد من الأحجار الأكثر شيوعاً لاعتدال سعره (خشن وأملس – مفجر ومسمسم)، - قرميد مثبت على هيكل خشبي، فتحات الشبابيك ألومنيوم وزجاج مركب عليه خافتات لضوء الشمس (أباجور – مصطلح محلي) ، - حديد المثبت على الشبابيك والبلكونات
الألوان المستخدمة :	لون الحجر الطبيعي الأبيض المائل إلى الإصفرار – اللون البني للقرميد – لون الخشب الطبيعي – اللون الأبيض لحديد الشبابيك والبلكونات .

ملاحظات عامة :

- النموذج لنوع من المباني السكنية متعددة الطوابق، الذي تمت الاشارة اليه في البحث بمسمى (إسكانات)، والذي كان نتاج العامل الاقتصادي وآليات السوق؛ نظراً لنشاط الاستثمار العقاري مع بداية الألفية الثالثة وما واكبه من ظهور هذه النوعية من المباني بشكل مضطرد.
- تعتبر هذه النماذج من البنايات السكنية انعكاس للعوامل السياسية والاقتصادية فهي نتاج الاستثمار العقاري لرؤس الاموال القادمة من الخارج من المهاجرين التي أتت من حرب الخليج وهجرة المواطنين من البلدان المجاورة وتعتمد على القروض البنكية لتمليك الوحدات السكنية ونجد العديد من البنات متشابهة تابعة لشركة محددة في المناطق الحديثة.

التحليل التشكيلي للواجهة :

- التصميم المعماري للواجهة بسيط نسبياً، يعتمد على التوازن المتماثل، فالمدخل في المنتصف يعلوه بيت الدرج بالواجهة الرئيسية، وعلى جانبي المدخل الشبابيك والبلكونات بشكل متماثل .
- يعتبر هذا النموذج متميز إلى حد ما، فهناك بنايات ملساء من ناحية الكتل في الواجهة، ولا يوجد بها بروز أو تفريغ كتلي للتصميم.
- اعتمد التصميم على الحجر الطبيعي (الأملس والخشن – المسمسم والمفجر) ولا توجد أي قيم لونية أخرى بالتصميم.
- غالبا الاضافات في الطابق الأرضي من استخدام القرميد المثبت على الهياكل الخشبية يضيفها ملاك الطابق.
- ويتضح التوازن من الخطوط الحمراء المعبرة على الاتجاة الافقي في التصميم والخطوط الزرقاء المعبرة على الاتجاة الرأسي في التصميم .

مشهد المدينة للمنطقة City scape

الصورة الواقعية لمبنى

واجهة المبنى الرئيسية

التحليل التشكيلي للواجهة

دراسة وتحليل المفردات التشكيلية للمباني الحجرية (النموذج الثالث)

النموذج الثالث:	مبنى حديث 2020
الموقع:	ضاحية الصديق – مرج الحمام – طريق المطار
نوع المبنى:	سكني متعدد الطوابق
نوع الانشاء :	مبنى هيكلي خرساني
عدد الأدوار :	أرضي وثلاثة أدوار متكررة
طراز الواجهة :	حديث Modern
الخامات المستخدمة في عملية إنهاء تصميم الواجهه :	– حجر خليلي نوعين (ناعم مصقول – خشن) – أعمال حديد على البلكونات وتجاليد مثبته على الواجهة بمقاسات متعددة ومختلفة – فتحات الشبابيك الومنيوم باللون البني مع الزجاج دبل جلاس
الألوان المستخدمة :	– الحجر الخليلي بلونه المميز (البيج الفاتح) – اللون البني لأعمال الحديد والألومنيوم والأبواب الخشبية .

مشهد المدينة للمنطقة City scape

الصورة الواقعية لمبنى

واجهة المبنى الرئيسية

ملاحظات عامة :

- توظيف الإضاءة لخلق أجواء رائعة ليلاً .
- توظيف النباتات لإضافة حالة لونية مميزة .
- تكرار التصميم في مناطق متعددة

التحليل التشكيلي للواجهة:

- اعتمد التصميم على مجموعة من القيم والمبادئ التصميمية، مثل: التوازن الحر والايقاع، والوحدة.
- تتميز الواجهة بالتماثل، فيظهر بيت الدرج في منتصف البناء ، وعلى الجانبين فتحات الشبابيك المنتظمة، وعلى الأطراف بلكونات بشكل منتظم.
- حاول المصمم تغيير هذا التماثل وعمل بؤرة بصرية في المربع الواضح أعلى اليسار والتي غيرت التماثل في التصميم.
- تميزت الواجهة بايقاعات الافقية والرأسية في الواجهة من خلال الاشغال المعدنية باللون البني الغامق مع خلفية لون الحجر الطبيعي
- حافظ المصمم على التأكيد على خط السماء غير المنتظم.
- استطاع المصمم إضافة حالات تصميمية متنوعة باستخدام الإضاءة والنباتات.

التحليل التشكيلي للواجهة

دراسة وتحليل المفردات التشكيلية للمباني الحجرية (النموذج الرابع)

النموذج الرابع :	مبنى حديث 2021
الموقع :	منطقة شفا بدران – شمال عمان .
نوع الانشاء :	مبنى هيكلي خرساني
عدد الأدوار :	سكني خاص طابقين
طراز الواجهة :	كلاسيكي
الخامات المستخدمة في عملية إنهاء تصميم الواجهه :	- الحجر الطبيعي (حجر معان) – الحجر الصناعي - حلايا من GRC متضمنة العديد من المفردات الكلاسيكية (الاعمدة الكورنثية – كرانيش – زخارف – برامق) - فتحات الشبابيك من الزجاج Double glass – الالومنيوم
الألوان المستخدمة :	اللون الأبيض

ملاحظات عامة:

- المنطقة حديثة البناء، ومخصصة للسكن الخاص (الفيلات) ومتعددة الانماط والاتجاهات التصميمية فهي تتنوع بين الكلاسيكي، والحديث، والهجين بين مفردات تصميمية متنوعة .
- بناء على تشريعات هذه النوعية من البنايات نجد الالتزام بالارتدادات، والخامات المستخدمة، وقوانين البناء المنظمة لهذه الفئة من البنايات مما أكسبت البيئة المبنية للمنطقة تميزاً خاصاً.

التحليل التشكيلي للواجهة:

- الالتزام بالقيم الكلاسيكية للتكوين في الواجهة المعمارية من خلال القيم الأساسية للطرز الكلاسيكية، مثل: الاتزان المتماثل، والايقاع، والتكرار.
- استخدام المفردات المعمارية والتشكيلية الكلاسيكية، مثل: الأقواس والأعمدة، والتكنات التي تعلوها والحلايا والكرانيش والزخارف، والبرامق، والبانوهات المغلقة بالزخارف.
- الاعتماد في التصميم على العلاقات بين الخطوط في التصميم ما بين الخطوط الرأسية في الاعمدة والفتحات، والخطوط الافقية في مداميك الحجر والكرانيش والحلايا.
- استخدام المفردات الزخرفية والمعمارية المتاحة في السوق المحلي، والتي قد لا تكون متناسبة مع بعضها البعض بسبب انتمائها لطرز مختلفة وبالتالي يتم تجميع مفردات متباينة في تصميمها.
- اعتمدت بعض التصميميات الكلاسيكية للواجهات السكنية الخاصة على المفردات والعناصر المعمارية فقط، فنجد هناك تكوينات معمارية Form ذات تصميميات حديثة من حيث التكوين مع الاحتفاظ بقيمة الاتزان المتماثل وتم دمج هذه التكوينات الحديثة بالمفردات الكلاسيكية ولذلك نجد واجهات معمارية حديثة ذات إيقاع متزن ذات تفاصيل معمارية كلاسيكية

مشهد المدينة للمنطقة City scape

الصورة الواقعية لمبنى

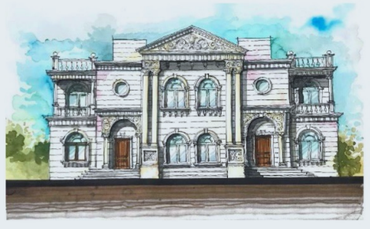

واجهة المبنى الرئيسية

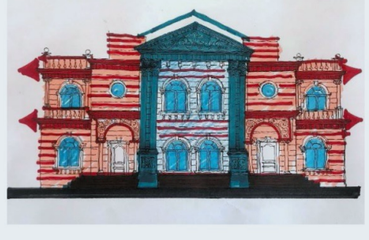

التحليل التشكيلي للواجهة

النتائج

توصل الباحث، من خلال هذا البحث، إلى مجموعة من النتائج في عدد من المحاور، وهي كالتالي :
محور الهوية المعمارية وأثرها على التراث المعماري للمدن، توصل الباحث إلى الآتي:

- أخذ مصطلح الهوية مؤخراً اهتماماً كبيراً في العديد من المجالات، وخاصة الهوية المعمارية للبيئة المبنية، باعتبارها حواراً مستمراً مع الثقافة والتراث والتاريخ، ولم تعد محصورة في كل ما هو أثري وتاريخي بل أصبحت تتأثر بعوامل متعددة، منها ما هو سياسي، ومنها ما هو اقتصادي، أو اجتماعي أو ثقافي.
- الحفاظ على الهوية المعمارية مهمة معقدة تتطلب الاهتمام بالموروث الثقافي، وإحياء الأماكن التراثية، ودعم الطابع والهوية المميزة للمنطقة، وتنمية وعي السكان بالقيم التاريخية للمكان، وزيادة الإمكانات الاقتصادية الداعمة للتراث من خلال تنظيم أحداث ثقافية في المحيط التاريخي، وجذب المؤسسات والسكان والسياح وإشراكهم في الحفاظ على التراث والذي يتوافق مع الرؤية الشاملة للتنمية المستدامة.
- هناك حاجة للتغيير والتحسين الشامل للتخطيط الحضري والتصميم المعماري لمدننا العربية، بما يخدم الجانب الجمالي، والتواصل مع الهوية المعمارية، مع مراعاة التقاليد الوطنية والعادات المحلية، فالمدينة الحديثة التي تحافظ على سمات هويتها الثقافية مع التطور التكنولوجي لديها فرصة أكبر لتصبح مكانًا جذابًا لحياة الإنسان. كما يجب أن يربط فن العمارة العربية الحديثة بين التراث والحياة العصرية، وهذا ما يؤدي إلى الحفاظ على الهوية المعمارية وشخصية المكان.
- اعتبار مسألة تشكيل هوية المتلقي قضية مركزية في تطور أي عمارة، فنحن بحاجة إلى مجتمع يعي قيمة التميز في العمارة، وإلى تصاميم معمارية تتفاعل مع واقعنا وحياتنا؛ لتكون لنا عمارتنا ومساكننا المميزة. وقد يكون الإسراف في الانفاق المالي سبباً في إقامة عمارة لا تتلاءم مع بيئتنا، وكذلك غياب الجدية عند الكثير من المعماريين، وعدم تفهمهم لدورهم كمعماريين في تكوين المدينة ومبانيها.

وفيما يتعلق بمحور الحجر الطبيعي كخامة لها أثر في تحقيق الهوية المعمارية، استخلص الباحث ما يلي:

- استخدم الحجر عبر التاريخ كمادة بناء في السلط، ودمشق، ونابلس، والذي انتقل بدوره الى مدينة عمان. ومع التطور المعماري أصبحت مدينة عمان مكسوة بالحجر، الذي صار من أهم مقومات هويتها المعمارية. ويجب علينا الاستمرار في استخدام الحجر الطبيعي الذي يتوفر في طبقات الصخور المختلفة المنتشرة في الأردن، فاستخدام الحجر بات سمة مميزة لمدينة عمان ولا ضير من استمرار استعماله، حتى وإن بدت تجارب في إدخال مواد بناء أخرى جديدة لإحداث تغيير أو تجديد على اللون في مجمل الصورة المعمارية العمانية، ولكن في النهاية يجب أن يكون الحجر هو الغالب باعتباره السمة المميزة للهوية المعمارية العمانية.
- يعتبر الحجر الطبيعي من أهم العوامل التي أدت الى الحفاظ على الهوية المعمارية لمدينة عمان، وأصبحت هذه الخامة الرابط بين التراث المعماري الذي استمد أصوله من الشخصية المعمارية للإقليم وبلاد الجوار، وبين العمارة المعاصرة وظهور اتجاهات الحداثة وما بعد الحداثة والعولمة في مجال التصميم المعماري. ويظل الحجر الطبيعي من أقوى الخيارات لمواد البناء الحديثة المستوردة وعلينا الاهتمام بالحجر الطبيعي والصناعي والتقنيات والآليات الحديثة في تكنولوجيا التصنيع.

وفيما يتعلق بمحور تطور العمارة والفكر المعماري الذي أثر على الهوية المعمارية، استنتج الباحث، ما يلي:

- مرت عمارة عمان بمراحل متعددة، لكل منها ايجابياتها وسلبياتها، أثرت بشكل مباشر على الهوية المعمارية، فالبدايات كانت مرحلة تلقائية واعتمدت على خبرة المحليين ودول الجوار في أساليب البناء، وظهر ذلك في وسط عمان من بنية مجزأة ومشتتة نتيجة لتأثير الظروف التاريخية والمناخية والاجتماعية والديموغرافية، وتطورت عمان بشكل عفوي وليس من خلال استراتيجية ممنهجة بحيث أصبحت جميع مكونات المدينة تلقائية وتعرضت البنية التحتية للعديد من المشكلات.
- وضع الرواد الأوائل من الممارسين لمهنة العمارة الأسس المعمارية لعمارة عمان تتناسب مع المجتمع المحلي الأردني ومواد البناء المتوفرة كالحجر الطبيعي وقاموا بتطوير واستحداث نمط معماري انشائي جديد خاص بالأردن يعتمد على بناء الحوائط الحاملة والحجر في الواجهات الخارجية، وقدموا مجموعة من التجديدات والمحاولات أثرت على مستقبل عمارة المدينة، منها تنوع استخدام الحجر في الواجهات بنقشات وتقنيات متنوعة.
- تطورت العمارة في عمان من خلال المهندسين المعماريين، ما بين التأثر باتجاه الحداثة العالمي، وتبني الفكر المعماري الغربي وقدموا محاولات تحاكي العمارة المحلية التقليدية واستخدام بعض المفردات التراثية واختلفت الآراء حول انتاجهم المعماري ولكنهم بمحاولاتهم اعطوا اهمية للتراث وابراز الهوية المحلية، مما ساعد الاجيال اللاحقة على تطوير هذا المفهوم بشكل اكثر نضوجاً، وهناك معماريين كان لهم دور كبير محلياً وعالمياً ووضع الأردن على خارطة الشخصية المعمارية المعبرة عن هوية ذاتية، واستطاعوا تطوير العمارة المحلية المعاصرة ودمجها بروح التراث أمثال: راسم بدران، وجعفر طوقان.
- مدينة عمان تتمتع بصفات جمالية وخصوصية بين المدن والعواصم العربية فطبيعتها الجبلية تعطيها بعدا وروحا وتميزا وكذلك بيئتها المبنية مؤخرا أصبحت أكثر نضجاً، فعمان مدينة لها طابع عمراني تكعيبي رائع التكوين في نسبة وأحجام المباني واختلاطها مع السنين، وتمتاز بالوحدة العمرانية المترابطة، ولكن يشوبها فقدان للروح أكثر من الهوية، وعلى الرغم من ذلك ظهور نمط معماري تجاري استهلاكي وإذا استمر هذا النمط على وتيرته فيتوقع أن تصبح مدينة بلا روح وبلا شخصية تفتقر إلى هوية خاصة بها.

وفيما يتعلق بالعوامل المؤثرة على الهوية المعمارية، فقد ثبت للباحث ما يلي:

- هناك عوامل متعددة أثرت على الهوية البصرية والمعمارية، منها: الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما أفرزت آليات السوق الجديدة أنماطاً فكرية متباينة من حيث جودتها من الناحية التصميمية، ولكن بفضل التشريعات ظلت الأماكن الحديثة بالمدينة محصورة بمناطق محددة وحافظت على الوحدة التصميمية وشخصية المدينة وهويتها.
- أثرت الرأسمالية العالمية في تشكيل الهوية المعمارية للمدينة، وأولت سلطة المدينة اهتمامًا لمصالح المطورين أكثر من اهتمام المواطنين في تشكيل مدينتهم، وعدم وجود رؤية واضحة لتطوير المدينة تتوافق مع سياقها التاريخي والحياة المعاصرة.
- في نهاية القرن الماضي ونتيجة للتأثر بالظروف السياسية والهجرات ونزوح بعض من دول الجوار وظهور رؤوس أموال من الخارج أدى الى ازدهار السوق العقاري وظهور نمط جديد من المباني السكنية متعددة الطوابق ما يسمى (الاسكانات كمصطلح محلي) بعيد كل البعد عن الهوية المعمارية للمجتمع الأردني.

١. أباظة ، حسين فؤاد ، ١٩٩٥ ، العمارة الحجرية في الأردن، الناشر حسين فؤاد أباظة ، عمان ، الأردن .
٢. أبو غنيمة، علي، ٢٠٠٣ ، (مدينة عمان – جيل الرواد في الهندسة المعمارية) بحث منشور في مجلة أبحاث اليرموك ، المجلد الحادي عشر ، العدد الأول (ب) ، جامعة اليرموك اربد .
٣. البهنسي، د/ عفيف، أكتوبر ١٩٩٨، ما بعد الحداثة والتراث في العمارة العربية الإسلامية، عالم الفكر، ج:٢٧ .
٤. الجادرجي، رفعت، أكتوبر ١٩٩٨، إشكالية العمارة والتنظيم البنيوي، مجلة عالم الفكر، المجلد السابع والعشرون، العدد ٢، الكويت .
٥. الجرجاني ، الشريف ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، التعريفات ، الطبعة الأولى ، دار عالم الكتب، بيروت.
٦. الرفاعي ، طالب ، ١٩٨٩ ، (بيوت عمان الاولى) ، الجامعة الاردنية – عمان .
٧. عابد ، عبد القادر ، ٢٠١٧ ، جيولوجيا الأردن و بيئته و مياهه ، دار وائل للطباعة والنشر، عمان ، الأردن .
٨. العابدي، وضاح، ١٩٩٨ ، العمارة العربية الإسلامية – إشكالية الهوية، المؤتمر المعماري الأول ، نقابة المهندسين ، العمارة العربية المعاصرة ، إشكالية الهوية ، المركز الثقافي الملكي ، عمان ، الأردن .
٩. عرفة ، انور ، ١٩٦٩ ، ترجمة (رحلات بوركهارت الجزء الثاني) ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام الاردنية ، عمان – الاردن .
١٠. د/ عمارة ، محمد ، فبراير ١٩٩٩ م ، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
١١. د/ متروك ، محمد – د/ أبو غنيمة ، ٢٠١٠ ، إشكالية التلوث العمراني وأثرها على الفكر المعماري في فترة ما بعد الطفرة العمرانية في الأردن، بحث منشور بمجلة جامعة البعث، سوريا.
١٢. د/ متروك، محمد، ٢٠٠٤ ، تفرد الفكر المعماري وتأثيره على التوجهات المعمارية المعاصرة- تجارب ورؤى معماريين أردنيين، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، "علوم وتصاميم البيئة"، المجلد ٢ ، السعودية .
١٣. المنير، محمود سمير، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ، العولمة وعالم بلا هوية، الطبعة الأولى، دار الكلمة للنشر والتوزيع، المنصورة، مصر.
١٤. الموسى، سليمان، ١٩٨٥، عمان عاصمة الاردن، منشورات امانة العاصمة، عمان – الاردن .
١٥. النجيدي وآخرون، البلغة ومستويات التعبير في العمارة، ٢٠٠١، مجلة جامعة العلوم، عمان، الأردن .
١٦. نظام الأبنية والتنظيم في مدينة عمان، لسنة ٢٠١١ ، نقابة المهندسين الاردنين .
١٧. النعيم، مشاري، نوفمبر ٢٠٠٥، إشكالية المتلقي وواقعية التصميم "قراءة نصوصية للمسكن، مجلة البناء، السنة الخامسة والعشرون، عدد: ١٨٢ ،السعودية.

18. Aboutorabi, M. 2018. Culture, Space, and Place: An inquiry into the Urban Landscape of Multicultural Cities, Journal of Engineering and Architecture, Vol. 6, No 2.
19. Prof. M. Aboutorabi1 & Dr. B. Zalloom, June 2019 , Transformation of Urban Identity: The Case of Amman since the Post-World War II, Journal of Engineering and Architecture, Vol. 7, No. 1.
20. Akroush M. 1994. Building Research Center, Royal Scientific Society, Building Natural Stone Specifications and Methods of Testing, Proc. of the Stone Scientific Day, Jordan Engineers Association, Amman, Jordan.
21. Al-Asad, M. 2005. Ever-growing Amman, in Jordan Times. 16 June 2005.
22. Al-Faouri, R. 2011.Assessment of the Economic Impact of ICT on: Real estate, Renting and Business Activities, The case of Jordan. Amman: Ministry of information and communications technology.
23. Dr. Jawdat Goussous1 , Dareen Qashmar2,2019 , The Dialectic Dimensions of Architectural Identity in Heritage Conservation, The Case of Amman city , International Conference on Advanced Research in Social Sciences , March 7-9 2019 , London United Kingdom.
24. Naghoj, Nart; Abdel Rahman, Nafi ; Maaitah; Omar 2010. Mechanicaal properties of natural building stone: Jordanian building Limestone an example, Jordan Journal of Earth and Environmental Sciences, Volume 3.
25. Pilder, A., 2011. Urbanization and identity: The building of Amman in the twentieth century. Unpublished master thesis, Oxford: Miami University.
26. Potter, R. et al., 2009. Ever-growing Amman, Jordan: Urban expansion, social polarisation and contemporary urban planning issues. Habitat International.
27. Raed Al-Share, Wasef Momani, Asem Obeidat, Nassar Mansour,2012 , Natural Stone in Jordan: Characteristics, Specifications and Importance in interior Architecture, American Journal of Scientific Research .
28. Sultan, Suhail (2007). The competitive Advantage of small and medium sized enterprises: The case of Jordan's natural Stone industry, Maastricht.
29. United Nation (UN), 2005. Urbanization and the changing character of the Arab city. New York: ESCWA.
30. Vlada Melnik , Ph.D., 2019 , Urban identity of Amman (A Dialogue between Tradition and Modernity), Journal of Engineering and Architecture June 2019, Vol. 7, No. 1.
31. Zalloom, B., 2015. The social sustainability of urban landscape: Case study of Amman City, unpublished PhD thesis. UK: Birmingham City University.

المواقع الالكترونية :

32. الهوية والطابع المعماري بين الشكل والمضمون. 2017 .[online]. Available at < www.bonah.org > [accessed on 12 November 2017
33. بيوت عمان القديمة , 2017 .[online]. Available at < http://ainnews.net > [accessed on 25 November 2017.
34. Beauregard, R., & Colomina, A., 2011. More than a master plan: Amman 2025. Cities. . Available at< www.ammancity100.jo/en/ > (accessed December 2018) .
35. GAM 2018. Amman story GAM 2018. Amman story, [online]. Available at < www.ammancity100.jo > [accessed December 2018 [.

مقومات البيئة المناخية في النسيج الحضري المستدام في المدينة العربية المعاصرة

أ.د.م. عوني كامل شعبان | كلية الهندسة - جامعة السلطان قابوس

مقدمة

تشكلت هوية المدينة عبر التاريخ استجابةً للعوامل البيئية والاقتصادية والاجتماعية. ويتناول هذا البحث البيئة المناخية كأحد أهم العوامل في تشكيل هوية المدن العربية ، والتي يقع معظمها في الحزام الصحراوي بين خطي عرض ١٨ إلى ٣٦ شمالاً. لقد كان العنصر المناخي عاملاً رئيسيًا في تشكيل صورة النسيج العمراني العماني التراثي. ففيه تتكتل المباني وبالحد الأدنى من التعرض السطحي للإشعاع الشمسي وقد تم خلق فضاءات حضرية صغيرة مظللة وباردة ، مما يسر الأنشطة الاجتماعية فيها. أما النسيج العمراني العماني المعاصر ، فيتكون من كتل بناء منفصلة متفرقة مع شوارع واسعة ونقص في المساحات الخضراء مما تسبب في تكوين الجزر الحرارية المعرضة للتأثيرات المناخية السلبية. كما ان الفضاءات الحضرية لم تعد تعتبر عاملاً أساسياً للتصميم المستجيب للمناخ وفقدت دورها الأصلي من المدن المصممة للناس إلى المدن المصممة للسيارات [1a].

افترض مخططو المدن في القرن العشرين أن المدن لا يمكن أن تكون مستدامة ، وتقوم باستيراد واستهلاك الموارد الطبيعية من البيئة الخارجية وتصدير النفايات والتلوث اليها. وقد أدى ذلك إلى استنفاد سريع للمياه والغذاء والمواد الخام واحتياطيات الطاقة وادى الى التلوث و انخفاض جودة الحياة. وقد أصبحت المشكلة أكثر تعقيدًا في المناطق الصحراوية بسبب المناخ الحار وصعوبة توفير بيئة خارجية مريحة للأنشطة الاجتماعية. وقد أضافت أزمة COVID-19 الأخيرة مزيدًا من التعقيدات بما في ذلك متطلبات تدابير التباعد الاجتماعي ، وتحول الأنشطة العامة من مجمعات التسوق الداخلية المكيفة إلى الأنشطة الاجتماعية الخارجية.

أنتج مخططو المدن في الدول الغربية ذات البيئة المناخية الباردة مدنا تناسب مع مناطقهم وتتسم بعمارة الهياكل الزجاجية والفضاءات الحضرية الواسعة للاستفادة من الإشعاع الشمسي. وقد دفعت اتجاهات العولمة العديد من مخططي المدن العربية إلى إعادة إنتاج نفس النماذج في البلدان وإنشاء مدن لا علاقة لها بالواقع المحلي. ومن خلال المسح ميداني للنسيج العمراني المعاصر في مسقط تبين ان الفضاءات الحضرية قد فقدت دورها الأصلي والحيوي وقد تضاءلت فيها أنشطة المشاة وهيمنت عليها حركة المرور[1a].

ولكن لابد من الإشارة الى العديد من الأمثلة ألمتميزة من المشاريع الحضرية المتميزة الريادية كمجمع العلوم والتكنولوجيا بوادي الخوض في مسقط[1b] حيث شوارع المشاة الظليلة ذات التفاعل الاجتماعي بين الباحثين والمطورين كما في الشكل ١أ. كما ان مدينة مصدر في أبو ظبي هي مثال آخر يعالج مفهوم تظليل الشارع من خلال التناسب المعماري الصحيح والواجهات المناسبة للشوارع[2] كما في الشكل ١ب.

ألشكل ١ أ مجمع العلوم والتكنولوجيا والتكنولوجيا

الشكل ١ب مدينة مصدر

تمت مراجعة مجموعة من البحوث حول تأثيرات التشكيلات الهندسية للفضاءات الحضرية على نوعية بيئتها المناخية. ويتركز احد البحوث على نموذج المشاة في الشوارع في غرداية بالجزائر أشار الى أن التوزيع المكاني لدرجة الحرارة المكافئة من الناحية الفسيولوجية (PET) يعتمد بشدة على نسبة العرض إلى الارتفاع واتجاه الشارع[3]. وتم تقييم مناخ الشارع في قسنطينة بالجزائر وخلص الباحثون إلى أنه في الشوارع المتجهة شمالًا - جنوبًا، يزداد تظليل الارضية مع زيادة نسبة ارتفاع / عرض الشارع[4]. وقد خلص شيشيجار إلى أن انخفاض نسبة H / W يؤدي إلى زيادة نفاذ الاشعة الشمسية في الشارع[5]. خلصت دراسة لنسبة العمق H / W البالغة ٠,٥ و ١ الى لاتجاهات الشوارع المتجهة شمال وجنوب اكثر كفاءة من الشوارع المتجهة الى شرق/ غرب[6]. وقد أجريت دراسة عن كفاءات التظليل لأفنية للدور السكنية في مناطق مختلفة من مدينة بغداد وخلصت الى استنباط ونماذج قياسية أولية استجابة لمتطلبات مناخ بغداد الحار والجاف[7]. وأجريت دراسة حول تأثير التوجيه على كفاءة تظليل شوارع المشاة بمنطقة مسقط واختتمت بصيغ أشكال واتجاهات أمثل للشوارع[8].

نستنتج مما ذكر اعلاه بأن معظم الأعمال البحثية المذكورة قد اجرت تقييمًا بيئيًا للأنسجة الحضرية التراثية والمعاصرة بشكل منفصل ولكن تجربة الماضي قد تعاملت مع عالم المشاة فقط ولا يمكن إعادة إنتاجها في الوقت الحاضر بينما اقتصرت التجربة الحديثة للمدن المعاصرة على عالم السيارات واهملت علم المشاة. وعليه فمن الضروري تطوير حلول بيئية قابلة للتطبيق للاحتياجات الحالية لكل من عالم المشاة وعالم السيارات. ويتركز هذا البحث على الفضاء الحضري باعتباره عنصرًا رئيسيًا في النسيج الحضري، ويقدم الوسائل الكفيلة بتنشيطه في مواجهة تحديات القيود البيئية المناخية. وستعتمد ثلاثة عوامل لتحقيق ذلك وهي: تظليل الفضاء، والحدائق، وتيارات الرياح. ويختتم البحث بإرشادات التصميم البيئي للمخططين الحضريين لتسهيل إنشاء فضاءات عمرانية مستدامة تمنح الهوية المحلية لمدينة مسقط. كما انه من الممكن استخدام هذه الإرشادات أيضًا كأطر عامة للبحث في مدن أخرى في مناطق الصحراء، نظرًا لأن لكل إقليم خصائصه المناخية المحلية.

منهجية البحث

البيئة المناخية الحارة القاحلة هي من أبرز العوامل في تشكيل هوية المدينة العربية , وعليه فيتركز هذا البحث على تأثيرات البيئة المناخية في تشكيل هوية النسيج الحضري في مدينة مسقط. وتنطلق منهجية البحث من دراسة وقياس متطلبات البيئة المناخية وتختتم بوضع إرشادات في التصميم البيئي لفضاءات حضرية مستدامة والتي سيكون لها دور فعال في تأكيد الهوية المحلية لمدينة مسقط.

- ابتدأ البحث بأجراء تحليلات تفصيلية لمناخ مسقط من أجل قياس تأثيره على أنشطة المشاة في الفضاء الخارجي، وبضوء ذلك تم النظر في متطلبات استعادة الراحة الحرارية فيه باستخدام الظل والحدائق ونسيم البحر.
- تمت دراسة تأثير البيئة المناخية على ثلاثة عناصر هي: الحواف، والمسارات، والعقد. وتم إجراء مقارنة بين تأثيراتها في النسيج الحضري التراثي والمعاصر للمدينة.
- فقد لوحظ بان مدينة مسقط معرفة بحافتين ثابتتين هما الشمالية والجنوبية، بينما امتد النمو غير المنضبط عبر الحافتين الشرقية والغربية.
- تم تقييم أحجام وأشكال الفضاءات الحضرية (المسارات والعقد) وفقًا لعاملين رئيسيين هما المهام الوظيفية في عملية ربط الشوارع، ثم مستوى ملاءمتها للأنشطة العامة في هذه الظروف البيئية. وقد تم إجراء التقييم وفقًا لثلاثة معايير: التظليل، والحدائق، والرياح.
- ولأغراض هذا البحث تم اعداد اشكال تجريدية للممرات والعقد بأشكال مربعات نظرية تتكون من أرضيات وجدران تمثل واجهات المباني المحيطة، وقد تم تصنيفها إلى اربعة نماذج: أربعة جدران، ثلاثة جدران، جداران اثنان، وجدار واحد.
- وقد احتسبت كفاءة تظليل الفضاء الحضري من خلال نسبة المساحة المظللة إلى المساحة الأرضية الكلية، واستخدمت النتائج لمقارنة المساحات الحضرية بأنماط مختلفة. وقد لوحظ تأثير زوايا سمت الشمس العالية في مسقط على التباين في كفاءات التظليل للجدران والمظلات الافقية.
- تم تقييم تأثير الحدائق في مواجهة التحدي المتمثل في ارتفاع درجة حرارة الهواء، والإشعاع الشمسي الشديد، وندرة المياه ،ثم تقييم قدرتها على توفير الظل، وجذب التيارات الهوائية الباردة، ومنع تلوث الهواء والغبار.
- تم تقييم دور الرياح البحرية الشمالية الشرقية وكيفية استخدامها للتبريد وتم استخلاص الدروس العبر من عمارة حي مطرح التراثي كمثال على الاستفادة الكاملة من الرياح السائدة.
- وقد انجز مسح ميداني لمجموعة من نماذج من الفضاءات الحضرية في مسقط لقياس مستوى استدامتها ومدى تحقق ظروف الراحة فيها من خلال العناصر التالية: التظليل، الحدائق، وتيارات الرياح.
- تمت مناقشة النتائج بضوء متطلبات الحواف والمسارات والعقد وبضوء ذلك تم تقديم التوصيات كمبادئ توجيهية للتصميم الحضري المتفاعل مع خصوصية البيئة المناخية كأحد أهم العوامل في تشكيل هوية مدينة مسقط.

عناصر تكوين هوية الفضاء الحضري في مسقط

يشير كيفن لينش الى خمسة عناصر أساسية يستخدمها المشاهد لتكوين الصور لذهنية للمدينة[٩]. وقد تم في هذا البحث اعتماد ثلاثة من هذه العناصر وهي الحواف والمسارات والعقد وذلك لتقييم تأثير البيئة المناخية على الهوية الحضرية لمدينة مسقط. وتتخذ مدينة مسقط اربعة حافات بصرية وإن اثنان منهما ثابتتان تتحددان نمو المدينة هما خليج عمان وجبال الحجر. يقع خليج عمان إلى الشمال ويرسل نسيم البحر المعتدل الحرارة ، وتقع جبال حجر الى الجنوب وتصد العواصف الصحراوية كما في الشكل ٢أ. وعلى مدى نصف القرن الماضي ، استمر التوسع غير المنضبط للنمو إلى الشرق والغرب مما أدى إلى مدينة بلا شكل وبلا حدود بصرية و تعاني من التلوث والاختناقات المرورية [1a] كما هو مبين في الشكل ٢ أ.

كانت مسارات المشاة (الشوارع) هي العناصر السائدة في هيكلية النسيج التراثي، حيث يتفاعل الناس وهم يتنقلون خلالها بصريا مع البيئة المحيطة. وقد تم تشخيص المسارات بشكل تفاعلي بالمباني المحيطة من حيث الحجم والشكل والملمس وضوء الشمس ونمط الظل كما في الشكل ٢ ب. وقد كانت العقد (الساحات) هي الأماكن المحورية في النسيج التراثي، وكانت أماكن التجمع للأنشطة الاجتماعية. وتتجمع المباني في نسيج حضري متماسك تخترقه فضاءات حضرية صغيرة ومظللة وتساعد في تفعيل الأنشطة الاجتماعية.

أما النسيج العمراني المعاصر فيتكون من مباني متناثرة وشوارع كبيرة وفضاءات حضرية واسعة ومحدودة الظلال وتحتوي على القليل من المساحات الخضراء مما يؤدي الى تكوين الجزر الحرارية. وقد فقدت الفضاءات الحضرية دورها الأصلي وتضاءلت أنشطة المشاة فيها وهيمنت عليها حركة المرور [1a]، فتغيرت المسارات من مجالات الأشخاص إلى مجالات السيارات . وقد تحول النموذج من المدن المصممة للناس إلى المدن المصممة للسيارات كما في الشكل ٢ج.

تشتمل الفضاءات الحضرية على المسارات والعقد ويتم تقييم حجمها وإمكانية قراءتها وفقًا لعاملين رئيسيين وهما دورها الوظيفي في ربط الشوارع ، ومستوى الصلة بالأنشطة العامة المتفاعلة مع البيئية. وقد تم استخدام ثلاثة معايير في التقييم وهي: التظليل ، والحدائق، وحركة الرياح.

وقد تم لأغراض هذا البحث اعداد صيغ تجريدية للمسارات والعقد الى مكعبات نظرية تتشكل من أرضيات وجدران تمثل واجهات المباني المحيطة. سيتم استخدام مصطلحات الجدران للإشارة إلى ارتفاعات المباني خلال هذه الورقة ، وقد تم تصنيف هذه الجدران حسب الأشكال الهندسية إلى المجموعات الاتية كما في الشكل ٣.

الشكل ٢أ

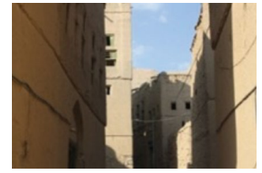

الشكل ٢ ب

الشكل ٢ ج

- العقد: وهي ساحات النشاطات الاجتماعية العامة وتحاط بأربعة جدران او من ثلاثة جدران .
- المسارات: وهي شوارع المرور والمشاة وتحاط بجدارين أو جدار واحد.

كما تم تصنيف العقد والمسارات أيضًا الى المجموعات التالية وفقًا لتفاعلها الوظيفي مع المباني المحيطة وقدرتها على تعديل المناخ المحلي الخارجي:

- المساحات الخارجية المغلقة بالكامل: أفنية أو ساحات
- المساحات الخارجية شبه المغلقة: شرفات عميقة تخترق محيط المبنى
- المساحات الخارجية الملحقة: أروقة ، شرفات خارجية

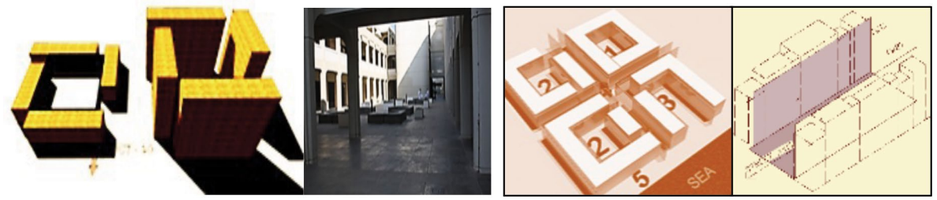

ألشكل ٣ الأنماط المجردة للفضاءات الحضرية في النسيج العمراني في مسقط

أنماط الظلال في الفضاء الحضري

تم اعداد التوصيف الهندسي للفضاء الحضري المجرد بنسب العرض / الطول / الارتفاع. وبعدها تم رسم أنماط التظليل وبعدها تم حساب كفاءة التظليل من خلال نسبة المساحة المظللة إلى إجمالي مساحة الأرضية. وتمت مقارنة كفاءة التظليل لأنواع متعددة من المباني المحيطة ومساحات الأرضيات. وخلصت المقارنات إلى أن فترتي الصباح الباكر وبعد الظهر سجلت أعلى مستويات كفاءة التظليل, بينما كانت كفاءات التظليل أدنى في ساعات الظهيرة. وتتسبب زيادة ارتفاع زاوية سمت الشمس في مسقط في انخفاض كفاءة تظليل الجدران و خاصة في أشهر الصيف عندما نكون في أمس الحاجة إليها. مما يتطلب تظليلًا تكميليًا بواسطة الأشجار والشرفات والخيام.

لم تستخدم الحدائق في النسيج العمراني التراثي في مسقط بسبب وندرة المياه وملوحتها العالية. أما في النسيج الحضري المعاصر فقد توفرت المياه بما في ذلك المياه المعالجة مما سمح بتواجد بقع محدودة من المساحات الخضراء والاشجار التي توفر الظل وتبريد التيارات الهوائية وتقليل تلوث الهواء كما هو موضح في الشكل٤. ولكن الحفاظ على الفضاءات الخضراء وصيانتها يعد تحديًا حقيقيًا في مسقط بسبب الكلفة الباهظة لتنقية المياه وظروف التربة الصعبة.

تأثيرات الرياح المحلية السائدة

يخضع تدفق الرياح في الفضاء الحضري لعاملين هما ضغط الرياح والضغط الحراري. ولذلك من الضروري إدخال فجوات بين المباني المحيطة بالفضاء الحضري لكي يتم خلق مزيج من الضغوط الإيجابية والسلبية من أجل تفعيل التيارات الهوائية كما في الشكل٥. تعتبر الواجهة البحرية الشمالية ميزة بارزة في تشكيل الطابع البصري لمدينة مسقط كما ان الرياح السائدة القادمة من البحر تعمل على تلطيف المناخ المحلي. وان حي مطرح القديم في مسقط المحاذي لحافة البحر يعتبر مثال جيد في تشكيل المباني وتنظيم الشوارع للاستفادة من نسيم البحر في التهوية كما في الشكل٥.

المسوحات الميدانية في مسقط

تم مسح عينات من الفضاءات الحضرية في مسقط لقياس مستوى استدامتها وتحقيق ظروف الراحة في الهواء الطلق من خلال عناصر التظليل والحدائق وتيارات الرياح. وفيما يأتي نتائج التقييم لاثنين من العينات:

ألنموذج١: سكن أعضاء هيئة التدريس بجامعة السلطان قابوس

- كفاءة تظليل شوارع المحاور الشمالية / الجنوبية أعلى من شوارع المحاور الشرقية / الغربية.
- الشوارع في المحاور الشمالية / الجنوبية يسرت تدفق تيارات الرياح ، عكس الشوارع على المحور الشرقي / الغربي.
- يمكن تحسين كفاءة التظليل على المحور الشرقي / الغربي بغرس الاشجار على جانبي الشارع.
- إن رصف الأشجار على الجانب الشمالي من الشارع يظلل أرضية الشارع ، بينما رصف الأشجار في الجانب الجنوبي يظلل البيوت المحاذية.

ألنموذج٢: فضاءات المجمع الأكاديمي بجامعة السلطان قابوس

- كفاءة التظليل منخفضة لأن الأرضية كبيرة ومحاطة بالجدران الواطئة.
- -توفر المباني الشرقية والغربية أعلى كفاءة تظليل للأرضيات، بينما تتسم المباني الجنوبية بكفاءة منخفضة.
- توجد مجموعة من الأشجار الكبيرة على الحافة الشمالية ولكنها لا توفر تظليلًا مناسبا كما أنها تعيق ولوج تيارات التبريد.
- على الرغم من أن الفضاء على شكل حرف U يواجه الشمال، إلا أنه لم يشجع تيارات الرياح لأنه لا يحتوي على فجوات مفتوحة في الكتل الجنوبية.
- جمع الأرضي مرصوفة بالبلاطات ومن الضروري اضافة مساحة خضراء صغيرة.

الشكل٤ تواجد بقع محدودة من المساحات الخضراء والأشجار

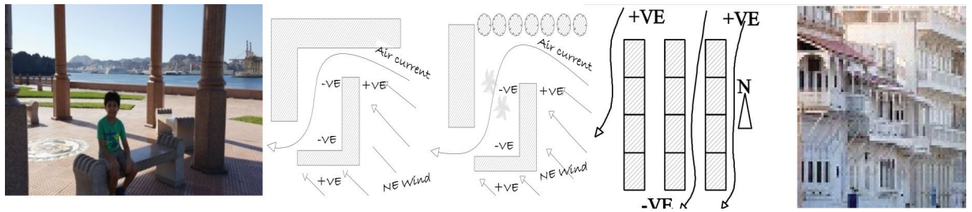

الشكل٥ تأثير الرياح المحلية السائدة على الشكل المعماري تخطيط الشوارع

مناقشة النتائج

تم الأخذ بعين الاعتبار ثلاثة عناصر في تحديد صورة مدينة مسقط وهي الحافات ، والمسارات ، والعقد وكيفية استجابتها للمحددات المناخية. وقد تمت مناقشة النتائج حول كيفية تشكيل هوية الفضاء الحضري وتحسين بيئته من خلال القوى البيئية المؤثرة وهي الظلال والحدائق والرياح.

١-التظليل

- تتدرج كفاءات التظليل للكتل الأساسية المحيطة بالفضاء الحضري بالترتيب التنازلي التالي: E&W وES&EW وS و NE & NW و N. كانت كفاءات التظليل أعلى للمساحات الحضرية الطويلة في المحور الشمالي / الجنوبي.
- كفاءة تظليل كتل البناء الشرقية / الغربية هي الحد الأقصى في الصباح وبعد الظهر والأدنى في ساعات الظهيرة. بينما توفر الكتل الجنوبية كفاءة تظليل مستمرة منخفضة طوال اليوم.
- تحققت كفاءة تظليل عالية عندما تكون الكتل المحيطة عالية نسبة إلى أرضية الفضاء.
- يتميز الشارع N/S بأعلى متوسط كفاءة تظليل، يليه الشوارع NE/SW و NW/SE ، بينما يحتوي الشارع الشرقي/ الغربي على أدنى مستوى.
- تتزامن كفاءات التظليل القصوى لشوارع N/S و NE/SW مع تأثير الرياح السائدة N/E في مسقط. وبالتالي الحصول على أقصى تأثير تبريد لتبريد الشارع من خلال الجمع بين التظليل وتيارات هواء التبريد.

٢- الحدائق والمسطحات الارضية

- احتوى عدد قليل جدًا من المساحات الحضرية على حدائق مستدامة صغيرة، واحتوى الاغلبية على حدائق كبيرة لايمكن استدامتها فتحولت الى مساحات مهملة وجزر حرارية
- عالجت عينات الفضاءات المستدامة مشاكل ندرة المياه باستخدام أسطح صلبة أكبر من المساحات الخضراء ، لكن الأسطح الصلبة كانت مظللة بمجموعات الأشجار لتقليل امتصاص الحرارة الشمسية.
- استخدمت النوافير الصغيرة في أماكن مظللة لإضفاء البرودة والهدوء.
- تم استخدام مياه الصرف الصحي المعالجة وتم التوفير باستخدام الري بالتنقيط.
- تمت زراعة النباتات المحلية والمستوردة المتأقلمة من أجل تحمل: الطقس الحار، والجفاف، والتربة الصلبة، وملوحة المياه.
- في بعض النماذج تم احياء مفهوم الواحات التقليدية حيث يدير الحي ظهره للبيئة الصحراوية وهو محاطة بأحزمة محيطية من صفوف كثيفة من الأشجار لتحميها من الرياح الجافة الترابية , وهي ذات البيئة المنطوية الى الداخل إلى مساحة وسطية تحتوي على مسطحات خضراء صغيرة.

٣-ألتهوية والتبريد بالرياح

- يؤثر تشكيل الكتل المحيطة بالفضاء الحضري كثيرا على حركة الرياح الى داخله
- فالفضاء الحضري المغلق بالكامل يعاني من ركود الهواء وفقدان تأثيرات التبريد ، بينما تسهل المساحات الحضرية شبه المغلقة تدفق تيارات هواء التبريد.
- تم استخدام تكوين وموقع الأشجار لإعادة توجيه التيارات الهوائية.
- تم تجميع الأحزمة الخضراء من أنواع الأشجار الأسطوانية في كتل كثيفة عند حدود بعض الأحياء لصد تيارات الهواء الصحراوية الساخنة والغبار.
- كانت الشوارع على طول المحاور N/S و NE/SW هي الأمثل للاستفادة من نسائم البحر الباردة السائدة.
- تم التخطيط لبعض المساحات الحضرية على شكل حرف U لمواجهة البحر للاستفادة من نسيم البحر ، كما تم وضع صفوف من الأشجار المظلية على شاطئ البحر لتجنب حجب منظر البحر والسماح بنسيم البحر.
- يمكن تعلم الدروس من حي مطرح القديم حيث تتفاعل الشوارع والمباني مع التغير في اتجاهات نسيم البحر في الليل والنهار .

الاستنتاجات والتوصيات

كان المناخ من العوامل الهامة في تشكيل هوية النسيج العمراني التراثي في مسقط. ولكن غالبية النسيج العمراني المعاصر لا يتفاعل مع متطلبات المناخ المحلي بل هو استنساخ عن المدن الغربية ذات البيئة المختلفة تماما . وان المدينة قد فقدت دورها الأصلي من المدينة المصممة للناس إلى المدينة المصممة للسيارات . وتركزت غالبية الأنماط السلوكية الاجتماعية على الأنشطة الداخلية في الأماكن العامة المغلقة كمجمعات التسوق المكيفة.

وقد تسببت جائحة (COVID١٩) بتغير كبير في الأنماط السلوكية بما في ذلك التحول من الأماكن العامة المغلقة المكيفة الى الفضاءات الخارجية المفتوحة وسيسود منطق المباعدة الاجتماعية في التجمعات العامة. وعليه فلابد من وضع معايير جديدة للفضاء الحضري المستقبلي بما يتناسب مع هذا التغيير، وان تكون في أولوياتها وضع السبل الكفيلة في مواجهة تحديات البيئية المناخية الصحراوية.

وبضوء ذلك فقد تم تصنيف الفضاءات الحضرية الراهنة في مسقط إلى فئتين هما فضاءات الحضرية غير المستدامة وأخرى المستدامة.

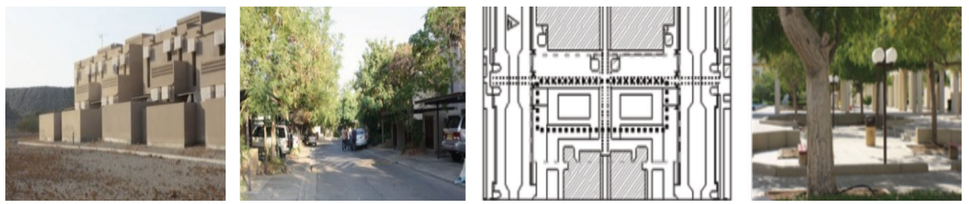

الشكل ٦ نماذج من الفضاءات للمجمع السكني والمباني الأكاديمية

أ- الفضاءات الحضرية غير المستدامة :

وهي استنساخ عن المدن الغربية ذات البيئة المختلفة تماما. فهي لا تتفاعل مع متطلبات المناخ المحلي ولا تساهم في تكوين الهوية المحلية المستدامة للنسيج الحضري وتتصف بما يلي:

- تختلط حركة السيارات مع حركة السابلة وتهيمن عليها حركة السيارات
- البيئة المناخية الحارة تحول دون النشاطات الاجتماعية في شوارع السابلة والساحات العامة
- كفاءة التظليل فيها واطئة من جراء كتل البناء الواطئة المحيطة بمساحات حضرية واسعة.
- تحتوي على مساحات خضراء كبيرة يصعب صيانتها فتحولت الى أراضي جرداء قاحلة.
- مغلقة ومحاطة بكتل المباني من جميع الجهات مما لا يسمح بنفاذ نسائم البحر.

ب- الفضاءات الحضرية المستدامة والتي تتميز بما يلي:

- يتم الفصل بين شوارع السيارات وشوارع السابلة
- تتوفر البيئة المناخية الملائمة لتفعيل النشاطات الاجتماعية في شوارع السابلة والساحات العامة
- تتميز بالكفاءة عالية في التظليل من جراء كتل البناء العالية المحيطة بمساحات حضرية صغيرة.
- تحتوي على مساحات خضراء صغيرة تسهل صيانته واستدامتها.
- فضاءات نصف مغلقة مما يسمح بنفاذ نسائم البحر.
- تساهم في تكوين الهوية المحلية المستدامة للنسيج الحضري.

وانه من اجل تحقيق شروط الاستدامة المذكورة في أعلاه فمن الضروري تفعيل ثلاثة عناصر وهي التظليل ، والحدائق ، والرياح وذلك لتوفير البيئة المناخية المناسبة في فضاءات حضرية مستدامة تلبي متطلبات لتفعيل النشاطات الاجتماعية ، وتساهم في خلق هوية محلية لمدينة مسقط وكما يأتي:.

- تعظيم كفاءة التظليل بان تأخذ المساحة الحضرية شكلاً ممدودًا في المحور شرق/ غرب.
- زيادة نسب الجدران إلى مساحة الأرضية ، وان أن يكون الجدار الجنوبي أعلى من الجدران الشرقية والغربية.
- تنخفض كفاءة التظليل في الساحات الحضرية الواسعة المحاطة بمبان منخفضة كما يتطلب اضافة تظليل تكميلي من خلال الأشجار.
- أن تكون المسطحات الخضراء بمساحات صغيرة تسهل صيانتها وتتحمل ندرة المياه والتربة الصعبة.
- تكون المساحات المرصوفة أكبر من المساحات الخضراء، ولكن يجب أن تكون الارض المرصوفة مظللة بالأشجار.
- وتقتصر الزراعة على النباتات المحلية المتأقلمة مع الظروف المناخية المحلية.
- توفير حدائق صغيرة في الأحياء السكنية بما يشبه الواحات التراثية ذات البيئة المنطوية الى الداخل.
- إيجاد فجوات بين كتل البناء المحيطة بالمساحات الحضرية وذلك لتحفيز تدفق التيارات نسيم البحر البارد اليها.
- أن يكون محاور الشوارع في اتجاهات شمال/ جنوب وكذلك شمال شرق/ جنوب غرب من أجل الاستفادة من نسائم البحر.
- أن تواجه الفضاءات الحضرية المحاذية للبحر بأشكال حرف (U) مع رصف أشجار من أنواع المظلات في الجانب المفتوح وذلك لتجنب حجب منظر البحر ولنفاذ نسيم البحر من خلالها.

شكر وتقدير

يعرب المؤلف عن امتنانه للدعم الذي قدمته كلية الهندسة ، جامعة السلطان قابوس في توفير مرافق المختبر والحاسوب لتنفيذ هذا العمل. ان جميع الرسومات والصور هي ملك للمؤلف.

- [1a]-Nebel S., and Von Richthofen A. (Eds), Towards Sustainable Urbanization Patterns, Urban Oman-Trends and Perspectives of Urbanization in Muscat Capital Area , Habitat International, April 2016.
- [1b] Shaaban A.K., Mandour M.A., Garba S. (2009) , Technical Report / Stage-II for the Design of Master Plan of the Al-Khodh Valley Science and Technology Park. The Research Council.
- [2] Ouroussoff N. (2010), In Arabian Desert, a Sustainable City Rises, Art and design, September 25.
- [3] Toudert A. , Mayer H. (2006), Numerical study on the effects of aspect ratio and orientation of an urban street canyon on outdoor thermal comfort in hot and dry climate. Building and Environment, p94.
- [4] Bourbia F., Boucheriba F., Impact of street design on urban microclimate for semi-arid climate (Constantine), Renewable Energy 35 (2010) P.343–347
- [5] Shishegar (2013), Street Design and Urban Microclimate: Analysing the Effects of Street Geometry and Orientation on Airflow and Solar Access in Urban Canyons, Journal of Clean Energy Technologies, Vol. 1, No. 1, ,P52,56.
- [6] Swaid H., Bar-El M., Hoffman M. E. (1993), A bioclimatic design methodology for urban outdoor spaces. Theory of Applied Climatology 48: 49-61.
- [7]Shaaban A.K.,Auda R.M. , Efficiency of Shading and Sun Exposure of Court-yards in Housing in Baghdad, The Journal of Engineering and Technology , The University of Technology, Iraq, 1992.
- [8] K.Shaaban A.K., Khudhayer W.A., and Kammerer K., Effect of Orientation on Optimization of Urban Pedestrian Street Shading Efficiency in Muscat Region, International Conference on Architecture, Structure and Civil Engineering (ICASCE'15), 7-8 September 2015.
- [9] Lynch K., The Image of the City, Massachusetts Institute of Technology 1960, p46-50

التّصميم المدنيّ في العالم العربيّ محاور، تحوّلات وتحدّيات

د. روبير صليبا | الجامعة الأميركيّة في بيروت

غالبا ما يُنظر إلى العالم العربيّ كمنطقة تسود فيها الهويّات القومية المتعددة والمتضاربة، والتفاوتات الطبقيه الواسعة والصراعات الطائفيه، خصوصا بعد البروز القوي لحركات شعبيه مناهضة للأنظمه السائدة، شكّلت ثورة من أسفل إلى أعلى، وهزت أسس التسلسل الهرمي القائم منذ عقود. وقد رافقت هذه التغيرات الاجتماعيه والسياسيه تحولات عمرانيه سريعه وشامله فرضتها حركات إعاده الإعمار بعد الحروب، والتدهور البيئي، بالإضافه إلى التّنافس بين المدن على استقطاب الاستثمارات والسّياحة في ظلّ العولمة. وعليه، أصبح العالم العربيّ مسرح اختباري لتطبيق ومسائلة مفاهيم التّنظيم المدني المستوردة، وإخضاع النماذج العالمية للواقعين الإقليمي والمحلّي.

تقدّم هذه المداخله نظرة عامّة ونقديّة عن تطوّر التّصميم المدني المعاصر في العالم العربيّ للاحاطة بخصوصيته وذلك من خلال مناقشة الاطار الجغرافي اولا، والايدولوجي ثانياً نسبةً للتقاليد الفكرية وتطورها من الحقبة الاستشراقية حتى الآن.

بيروت

الإطار الجغرافي للتصميم المدني في العالم العربي

على مدى العقدين الماضيين ، تراوحت صورة المدينة الشرق أوسطية في المخيلة العامة والمهنية بين نموذجين نقيضين: المدينه المحورية العالمية المتمثلة في دبي ومدينة ما بعد الحرب المتمثلة في بيروت. بين الاثنين، تتواجد مجموعة واسعة من المشاهد المدينية التي تتراوح من الامتددات العشوائية في الضواحي والى المدن التخصصية الجديدة في الصحراء. يظهر هذا التنوع في المشهدية المدينية مدى تطور ممارسات التصميم المدني وتعددها الملحوظ وذلك بسبب تسارع وتيرة الدمار واعادة الاعمار بعد الحرب، والتدهور البيئي، والنمو السريع للعشوائيات، وتنافس المدن على الحضور العالمي.

كيف يمكن وضع مثل هذا التطور والتنوع في اطار الاتجاهات العالمية المعاصرة؟

ما الذي يشكل خصوصية تجربة العالم العربي في التصميم المدني نسبة لأوضاعها السياسية والثقافية؟

يحاول الكتاب الذي يحمل عنوان "التصميم الحضري في العالم العربي" (fig..٤) الصادر عام ٢٠١٥ عن دار النشر اشجيت Ashgate بإنجلترا، الإجابة على هذه الأسئلة من خلال المداخلات المختلفة في المؤتمرالذي يحمل نفس العنوان ، والذي عُقد في الجامعة الأمريكية في بيروت عام ٢٠١٢.

دبي

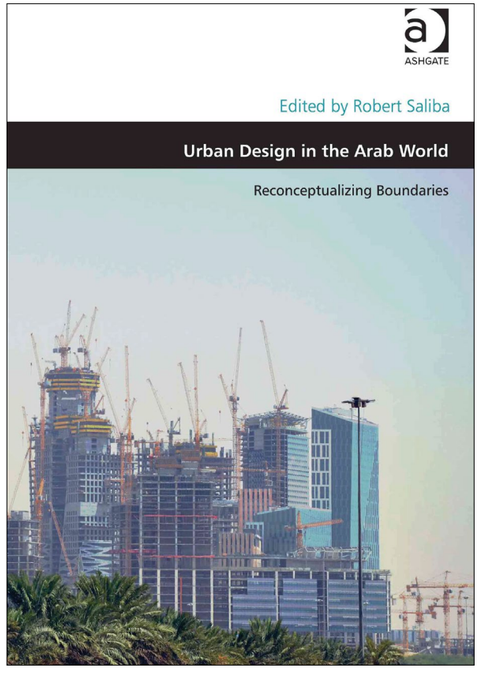

يتضمن عنوان هذا الكتاب مفهومين إشكاليين : "التصميم المدني" Urban Design، وهو "تخصصاً لم يستطع حتى الآن على تطوير نظرية متكاملة"(Cuthbert ٢٠٠٣: viii) ، و"العالم العربي"وهو مصطلحًا يفتقر الى الوضوح جغرافيًا وسياسيًا وعرقيًا في ظل تضارب القوميات والمشحنات الطائفية والصراعات الطبقية وتعددية مواقع العولمة، والعبادة، والنزاع، والمواجهة يتناول هذا الكتاب أيضًا المصممين المدنيين من على الهامش: كيف يصفون مدنهم، كيف يتعاملون مع تخصصهم، وكيف يتفاعلون مع بُعدهم الثقافي والجغرافي عن الاتجاهات العالمية.

وهنا يشير مصطلح الهوامش إلى ثلاث دلالات تكميلية:

> **على المستوى العالمي**، فإنه يدعو إلى التساؤل عن كيفية تأثر التصميم الحضري بالمفاهيم الجديدة للمركز والأطراف الناشئة عن خطاب "ما بعد الاستعمار" post-colonial discourse.

> **على المستوى الإقليمي**، فإنه يتطرق الى تخصيص التفكير وممارسة التصميم الحضري ضمن سياق جغرافي وثقافي معين (هنا ، العالم العربي).

> **على المستوى المحلي** فهو يشير الى انتقال اهتمام التصميم الحضري من مراكز المدن إلى هوامشها مع نمو الضواحي العشوائية وتآكل المساحات الزراعية المتبقية حول المدن.

الإطار الإيديولوجي

يعتبر نزار الصياد ان 'المدينة الإسلامية'، و'المدينة العربية'، و'مدينة الشرق الأوسط' هي مصطلحات ديناميكية مركبة تتبع ثلاث تقاليد فكرية في العصر العشرين:

> **التقليد الاستشراقي** Orientalist tradition العائد لما قبل الستينيات، وهو يتعلق بدراسة الشرق من قبل الباحثين الغربيين مع التركيز على دور الإسلام في تكوين النسيج المديني، وذلك من خلال إستخدام المنهج المورفولوجي والاجتماعي للترويج لنموذج مدينة إسلامية غير متطورة في المكان والزمان.

> **التقليد التنقيحي** Revisionist Tradition في الستينيات والسبعينيات، وهو يتعلق بإعادة تصور المدينة الإسلامية كوحدة سياسية حضرية تتشكل نتيجة التفاعلات بين النخبة العسكرية والقيادات الدينية والأعيان المحليين والتجار (Lapidus ، ١٩٦٧)

> **التقليد القومي** Nationalist Tradition في الثمانينيات؛ وهو يتعلق بدراسة الباحثين العرب لتاريخ مُدنهم لاستنباط مبادئ توجيهية عملية للتصميم والتخطيط من خلال منظور محلي.

في التسعينيات حدث تحول جذري في الفكر النقدي آدي الى مسائلة النظريات الاستشراقية والتحريفية والقومية تحت تأثير اتجاهات فلسفية معاصرة متأثرة ب postmodernism, post-structuralism and post-colonialism ولقد أدى ذلك الى إعادة قراءة الشكل المديني والانتقال من التفسير الديني (المعتمد على الإسلام) الى التأثير الجغرافي المرتكز على تنوع التقاليد الاجتماعية والمعمارية المحلية.

في هذا السياق ينتقد ياسر الشستاوي النظرة الاستشراقية بانها تقليد تجاوزه الزمن و'غير منتج' يؤدي الى خطاب ينعي خسارة القيم التقليدية، المعمارية narrative of loss.

كما ان شيرين حماده تعتبر ان النظرة الاستشراقية هي 'تجميد صورة المجتمع في الزمان والمكان وبالتالي الحفاظ على التمايز بين المستعمِر والمستعمَر' (Hamadeh ١٩٩٢).

من خلال هذا الخطاب ما بعد الاستعماري ، تظهر بشكل بارز نظرة أكثر ديناميكية للحداثة والقومية ، مع تحول في الموقف تجاه معنى "الأصالة" و "الهوية". لقد بدأنا في تقبل هويتنا على أنها مركبة من العالمية والمحلية. بالتالي:

> اصبح الإرث العمراني الاستعماري جزءا لا يتجزأ من الهوية الوطنية ، وبات يُنظر إلى المدينة الإقليمية على أنها قادرة على تحديث نفسها والاستجابة الى المؤثرات العالمية مع الحفاظ على هويتها المحليه.

> تحول مفهوم الحفاظ على التراث من النظرة المتحفية إلى التركيز على التراث الحي. كما برز توجه نحو "صناعة التراث للاستهلاك السياحي."(Alsayyad ٢٠١٥)

> وضع الجهات المحلية كمشاركة في عملية التحديث المبكر بدلاً من كونهم متلقين سلبيين. يعتبر Nasr and Volait أن 'التراث الاستعماري هو نتيجة التعاون والدمج بين الطموحات المحلية والمخططات الخارجية' التي تؤثر بشكل متبادل على بعضها البعض (Nasr and Volait ٢٠٠٣).

الاتجاهات المستقبلية للتصميم العمران في الوطن العربي

في سياق الاتجاهات العالمية والتداعيات الاقليمية لقد نتج خلال العقدين الماضيين اربعة توجهات فكرية تطبع خطابات وممارسة التصميم الحضري في العالم العربي:

التوجهه الاول هو **الخطاب الثقافي** المتمثل بجائزة الآغاخان السنوية وهي تتمحور حول الممارسات المحلية وخصوصيتها الثقافية، الاجتماعية، والاقتصادية بعيداً عن الايديولوجيات التصميمية الدينية. فالهدف هو تعزيز الاستقلالية والاكتفاء الذاتي للجماعات المحلية (Hallaj ٢٠١٥).

التوجهه الثاني هو **الخطاب التشاركي** لتعزيز الحوار بين الاختصاصيين والجمعات المحلية نفسها وذلك لتحفيز اتخاذ القرارات من الاسفل الى الاعلى بدلاً من سيطرة المصممين المدنيين بالمشاركة مع الهيئات الحكومية على تنفيذ المخططات التوجيهية الشاملة (Al-Harithy ٢٠١٥).

اما التوجهه الثالث فهو **خطاب الشركات العقارية** نسبة الى سيطرة القطاع الخاص على اعادة الاعمار بعد الحروب المتمثل بشركة سوليدر Solidere اللبنانية. وذلك في ايطار العولمة والمنافسة بين المدن على استقطاب الاستثمار وتصنيع التراث للاستهلاك السياحي (Gavin ,٢٠١٥ ٤.Ch).

اما التوجهه الرابع فهو **الخطاب البيئي** في وجه التحديات التي تواجه المنطقة من خلال اختفاء المساحات الخضراء نتيجة تمددات العمرانية العشوائية وضرورة تعميم المفهوم البيئي من الحدائق العامة الى تخطيط الامتدادات العمرانية المحيطة بالمدن على المقياس المناطقي (Makhzoumi ٢٠١٥).

1. Al-Harithy, H. 2015. "The Participative Discourse: Community Activism in Post-War Reconstruction," in R. Saliba (ed.), Urban Design in the Arab World: Re-Conceptualizing Boundaries, London: Routledge, pp. 39-50.
2. AlSayyad, N. 2015. "Medina; the "Islamic," "Arab," "Middle Eastern" City: Reflections on an Urban Concept," in R. Saliba (ed.), Urban Design in the Arab World: Re-Conceptualizing Boundaries, London: Routledge, pp. 17-25.
3. Elsheshtawy, Y. 2008. The Evolving Arab City: Tradition, Modernity and Urban Development. London: Routledge.
4. Gavin, A. 2015. "The Corporate Discourse: Learning from Beirut's Central Area Renewal," in R. Saliba (ed.), Urban Design in the Arab World: Re-Conceptualizing Boundaries, London: Routledge, pp. 51-64.
5. Hallaj, O. A. 2015. "The Cultural Discourse: On Regionalism in Urban Design and the Role of the Aga Khan Award for Architecture," in R. Saliba (ed.), Urban Design in the Arab World: Re-Conceptualizing Boundaries, London: Routledge, pp. 29-37.
6. Hamadeh, S. 1992. Creating the Traditional City: A French Project, in Forms of Dominance: On the Architecture and Urbanism of the Colonial Enterprise, edited by N. AlSayyad. Aldershot: Avebury, 241–59.
7. Makhzoumi, J. 2015. "The Greening Discourse: Ecological Landscape Design and City Regions in the Mashreq," in R. Saliba (ed.), Urban Design in the Arab World: Re-Conceptualizing Boundaries, London: Routledge, pp. 65-82.
8. Nasr, J. and Volait, M. 2003. Urbanism Imported or Exported? Native Aspirations and Foreign Plans. Chichester: John Wiley & Sons Ltd.
9. Saliba, R. 2015. "Framing Urban Design on the Margins: Global Paradigms and Regional Implications," in R. Saliba (ed.), Urban Design in the Arab World: Re-Conceptualizing Boundaries, London: Routledge, pp. 1-16.

المدن العربية وتحديات عصر ما بعد العولمة

المعمار جاد تابت

رئيس اتحاد المهندسين اللبنانيين

يشهد عصرنا أوسع حركة هجرة عرفها التاريخ. وإذ تتركز حركة السكان بشكل أساسي من بلدان الجنوب نحو بلدان الشمال المتطورة، إلا أن كافة مناطق العالم تشهد ازدياداً للهجرة من المناطق الريفية نحو المدن، وبشكل خاص نحو المدن الكبرى. ويعيش اليوم ما يزيد عن نصف سكان العالم في مناطق حضرية، وتتزايد قوة استقطاب هذه المناطق بحثاً عن فرص للعمل وشروط اقتصادية ومعيشية أفضل وأملاً بالحصول على الخدمات الأساسية التي تؤمنها المدن من سكن وتعليم وطبابة.

ويشهد العالم العربي توجهاً مماثلاً إذ سيزيد عدد السكان في مدنه من ٥٠ مليون نسمة سنة ١٩٧٠ ليبلغ حوالي ٤٥٠ مليون نسمة سنة ٢٠٥٠ حسب تقديرات الأمم المتحدة. ومن المتوقع أن تصل نسبة التمدن في العالم العربي الى ٦٠٪ سنة ٢٠٣٠.

ويتركز هذا الازدياد السكاني بشكل أساسي في المدن الكبرى التي يزيد عدد سكانها عن ٧٥٠,٠٠٠ نسمة، فتحوّلت مدينة القاهرة مثلاً الى تجمع حضري ضخم Megapolis يعيش فيه ما يزيد عن ١٦ مليون نسمة ويحتل المرتبة الثانية في أفريقيا والمرتبة الخامسة عالمياً من حيث عدد السكان.

وشهدت المدن العربية خلال العقود الأخيرة تحوّلات أساسية بدّلت في تركيب المجال والزمان الذي تنتظم على أساسه الحياة الاجتماعية فيها، فاختلّت التوازنات التقليدية بين المدينة والريف كما برزت أشكال هندسية ونماذج أبنية جديدة غيرّت في المشهد المديني وأدت أحياناً الى طمس هويتها التاريخية وطابعها العمراني.

فالمدن العربية اليوم تحتوي على مشاهد مدينية مختلفة تعكس مراحل التطور التي مرّت بها.

إنها المدينة الأولى، مدينة الهوية والتراث التي نَحِّن إليها والتي تبقى صورها تستحدث الحنين لزمن البدايات والأصالة المفقودة.

هذه المدينة نُسمّيها المدينة العربية "التقليدية" أو المدينة الإسلامية "التقليدية". لكن مثل هذا التعريف يمكن أن يؤدي الى قراءة لا تاريخية تُحوّل الهوية الى إطار جامد وتتجاهل تفاعل المدينة مع خاصيات المكان وتأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية والمناخية على تطوّر الأشكال الحضرية والتبدّلات التي شهدتها هذه الأشكال عبر العصور. كما تتجاهل تفاعل هذه التشكيلات مع التحوّلات التي أوجدتها الحداثة والنماذج العمرانية التي أنتجتها هذه التحوّلات والتي أصبحت تشكل اليوم إن شئنا أو أبينا السمة الأساسية لمدننا العربية المعاصرة.

لقد قلبت الحداثة عالمنا رأساً على عقب وبدّلت في ملامح مدننا وأريافنا. وفي مواجهة التحديات التي طرحتها التحولات الاقتصادية والتكنولوجية التي أتتنا من الغرب وتأثير هذه التحولات على أنماط الحياة وطرق العيش، تبنّت النُخب التي استلمت زمام الأمور في بلادنا بعد الاستقلال معظم المفاهيم التي أدخلتها الحداثة الغربية، فأضحى الخطاب الحداثي هو الخطاب المسيطر: خطاب يُعبّر عن بروز وانتشار قيم ثقافية جديدة، اختلطت فيه شعارات التطوّر الاقتصادي والتقدّم الاجتماعي مع الإيمان المطلق بالقدرة السحرية للتخطيط في حل مشاكل الفقر والتخلف.

وتبنّى المهندسون العرب بحماس شديد مبادئ التنظيم الحضري الحداثي فنبذوا التشكيلات الحضرية التاريخية واستبدلوها بأشكال جديدة مبنيّة على نظام عقلاني يرتكز على تصنيف شبكات النقل والتقسيم الوظائفي للحَيز المديني حسب تصنيفات "ميثاق آثينا" (السكن، العمل، التنقل وتطوير الجسد والعقل).

فبرز نموذج **المدينة الثانية**، المدينة الوظائفية الذي انتشر في كافة أنحاء العالم العربي ونُظمت على أساسه الأحياء التي بُنيت حول النوى المدينية القديمة كما المدن الجديدة التي تم إنشاؤها لاستيعاب السكان الوافدين من الأرياف.

كيف يمكن أن نفهم هذا الانتشار السريع لنموذج التنظيم المُدني الحَداثي الذي بدّل وجه مدننا بشكل جذري؟ بالنسبة للكثيرين، كان هذا النموذج يُمثّل وعداً بحياة أفضل وإمكانية الانتقال من العيش في الأكواخ الى التمتّع بالرفاهية التي تؤمنها الحداثة والاستفادة من الشمس والنور والطبيعة بعيداً عن اكتظاظ الشوارع الضيقة والحارات العفنة.

لكن هذا الحلم لم يدم طويلاً وسرعان ما تبين عجز هذه التشكيلات عن إنتاج بيئة حضرية دامجة، إذ أن التقسيم الوظائفي أدىّ الى الحد من الطاقة التكاملية للمجتمعات وأنتج حيزاً يتجاهل الخصوصيات المكانية، يترافق فيه تدمير التراث الحضري والمعماري للنوى القديمة مع انتشار التشكيلات العشوائية في ضواحي المدن.

هكذا، برز ابتداءً سبعينات القرن الماضي خطابٌ يدعو الى تخطي الحداثة والبحث عن نماذج مدينية جديدة.

فاستُبدل الإيمان بقدرة التخطيط بإيمان آخر قائم على قدرة يد السوق السحرية على إنتاج حيّز حضري يتميز بالحيوية، حيزّ متحرر من كافة القيود التي كان يفرضها النظام السابق أمام حرية التبادل ويفتح المجال أمام حرية رأس المال في رسم ملامح المدينة الجديدة.

إنها **المدينة الثالثة**، مدينة عصر النيوليبرالية، عصر الحيّز المُعَوْلَم (Globalized Space) واللّانظامي (Deregulated Space)، الحيّز المُخصّص (Privatized Space) وحيّز الوكالات (Franchised Space).

يُشير مصطلح المدينة المُعولمة أو المدينة الكونية الى نمو شبكة من المدن تزايدت من خلالها أرباح الشركات المتعدّدة الجنسيات التي تعتبر الحيز المديني كمجرد سلعة تنظيمية (Organizational Commodity)).

فمنذ أن أصدرت عالمة الاجتماع الهولندية ساكسيا ساسن سنة ١٩٩١ كتابها الشهير المدينة المُعولمة (the global city)، بدأت تُصنَّف المدن الكبرى في العالم وفق جداول تبدأ بمرتبة "Alpha-plus-plus" وتنتهي ب " Gamma-minus-minus" وبدأ السباق بين المدن للحصول على أعلى مرتبة في لائحة العولمة كأنما المدن ليست سوى سلع مُعدّة للتعليب. ففي آخر تصنيف صدر سنة ٢٠٢٠، حصلت مدينتان عربيتان (دبي والرياض) على درجة Alpha بينما حصلت أربع مدن أخرى على درجة Beta (القاهرة وأبو ظبي والكويت والدار البيضاء).

أما الحيز اللّانظامي فهو حيز المدينة في عصر انتصار نموذج الاقتصاد النيوليبرالي الذي يرى في المنافسة السمة الأساسية التي تحدد العلاقة بين البشر ويدعو الى التخلي عن التخطيط وتقليص القطاع العام والتركيز على خصخصة الخدمات العامة ورفض كافة الأنظمة التي تضع قيوداً أمام انتقال رأس المال المُعوْلم.

وإذ تميزت العقود الأربع الأخيرة بانتقال الثروات في يد أقلية تسيطر على رأس المال هذا، ترافق ذلك مع ازدياد التمايز الاجتماعي وتفاقم الفروقات الاجتماعية إن على الصعيد العالمي أو داخل كل بلد على حدة. وبالتزامن مع تراجع تخطيط الحيّز الحضري ازدادت أشكال العزلة الاجتماعية واستُبدل التقسيم الوظائفي الذي كان ينتجه التنظيم المُدني الحداثي بتقسيم اجتماعي يحّول المدن الى مجموعة من المحاجر المغلقة تنتفي فيها أماكن الالتقاء والتبادل.

أنه الحيّز المُخصَّص، حيث تنتشر نماذج المجموعات المغلقة (Gated Communities) التي تنعزل عن محيطها وتتقلّص فيها احتمالات التبادل والاختلاط.

وحيّز المدينة الثالثة هو ايضاً حيّز الوكالات، حيث يؤدي توسع النشاطات التجارية للشركات المتعددة الجنسيات الى تقويض الحيزّ العام، فتتركّز أماكن اللقاء شبه الوحيدة في مراكز تجارية ضخمة مخصصة للاستهلاك والبيع. وقد انتشر هذا النموذج في كافة أنحاء العالم العربي خلال العقود الماضية فبدأ يُنافس الأسواق التقليدية وكاد يصبح الشكل المُسيطر للعلاقات الاجتماعية بين الشباب.

لكن، مع تلاحق الأزمات التي عصفت بالاقتصاد العالمي خلال العقود الماضية، يبدو نموذج المدينة الثالثة وكأنه بدأ يفقد قدرته على استيعاب التناقضات التي ولدّها والتي أدخلت العالم في حالة من عدم الاستقرار الدائم. وكان لهذه الأزمات المتتالية تأثيراً ملحوظاً على المدن العربية وتحديداً على مدن الخليج الأكثر انخراطا في نظام العولمة.

وفيما جاءت جائحة الكورونا لتُبرهن أن العولمة قد حوّلت فعلاً كوكبنا الى قرية صغيرة تنتقل فيها الجراثيم كما الرساميل والخدمات والسلع دون أية قيود، إلا أن هذه الجائحة شكّلت في الوقت نفسه تحدياً حقيقياً لنظام العولمة إذ فرضت محاربة الوباء على كافة دول العالم اتخاذ تدابير حازمة تقضي بفرض قيود على حركات التنّقل وإغلاق الحدود وإقفال المطارات والموانئ وعزل المناطق عن بعضها البعض. ويشهد العالم اليوم حالة من الاختلال السياسي والاقتصادي والفكري مع تفّشي الاتجاهات العنصرية المتطرفة وازدياد ظواهر الانغلاق والتشّتت والعنف والتمايز الاجتماعي.

فهل تُشير هذه الأزمات الى أن نموذج المدينة الثالثة قد فقد قدرته على التجدّد وأننا على أبواب عصرٍ جديد؟

فالحركات الاجتماعية التي برزت في عواصم العالم وبالتحديد في المدن العربية خلال السنوات الماضية تُشير بالفعل الى طموح قويّ لدى الشباب نحو نموذج حضري آخر، بعد أن فقد نموذج المدينة الثالثة قدرته على تجسيد أحلامهم.

فبما يُمكن أن يتّصِف مثل هذا النموذج الحضري الجديد، نموذج المدينة الرابعة؟

بادئ ذي بدء لا بدّ من التأكيد على ظاهرتين أساسيتين: ظاهرة التمّدن وظاهرة العولمة. فهاتان الظاهرتان أضحتا بمثابة مُعطى أساسي لا يُمكن الرجوع عنه.

فالاتجاه نحو الازدياد المستمر لعدد السكان في المدن يُشكل عملية تاريخية متواصلة، كما أن نتائج العولمة قد تعمّمت الى درجة أنها أصبحت تفرض نفسها على أي تصّور مستقبليّ. والعصر الجديد الذي بدأنا نستشفّ بعض ملامحه عبر تمخُّضات العقدين الماضيين يمكن أن نصفه بعصر ما بعد العولمة بمعنى أن عليه الانطلاق من نتائج العولمة كي يتمكّن من تخطيّها.

ويبدو أن مصير مدينة العصر الجدد هذا سيتمحور حول أربعة تحديّات رئيسية: التحديّ البيئي، وتحديّ الحيّز المتعدد الأبعاد، وتحديّ الحيّز العام وأخيراً تحديّ التراث الحضري.

<u>والتحديّ الأول يتمثّل بالتحديّ البيئي.</u>

فالتحولات المناخية وتبدُّل مصادر الطاقة، وتلوُّث الهواء والمياه والتربة وتآكل الأراضي الزراعية والتقلّبات السكنية المُرتقبة بسبب التصحُّر وارتفاع مستوى مياه البحر، كل ذلك يُنذر بأننا دخلنا في عصر سيشهد تغيّرات أساسية في البيئة الحضرية قد تكون بأهمية التحّولات التي أحدثتها الثورة الصناعية في اوروبا القرن التاسع عشر قبل أن تنتشر في كافة أنحاء العالم.

ويفرض التحديّ البيئي هذا إعادة النظر بكافة الأُطر التي تتحكم بالأنظمة الحضرية من أجل التوجّه نحو مدنٍ أكثر استدامة، مدنٍ جامعة، ذكية، دامجة وخضراء.

<u>أمَّا التحديّ الثاني فهو تحديّ الحيّز المتعدّد الأفق.</u>

هذا التحدي يُعبّر عن ضرورة إيجاد السبل التي تسمح بتخطيّ نموذجيّ المدينة الوظائفية التي قسَّمت المجال الحضري الى مناطق تنظيمية أحادية الجانب والمدينة النيوليبرالية ذات الحيّز المُخصّص من اجل الانتقال نحو نموذج جديد يتميّز بالتعدّد الاجتماعي والتعدّد الوظائفي والتعدّد الثقافي.

<u>ويرتبط هذا التحوّل بالتحديّ الثالث أي تحديّ الحيّز العام.</u>

فالحيّز العام هو حيّز التلاقي والتبادل حيث تتشابك الممارسات الاجتماعية المتعددة وتتفاعل على مختلف مستويات الحياة الاجتماعية. والحفاظ على المساحات العامة والعمل على تطويرها وحمايتها من محاولات تقليصها وخصخصتها والحفاظ على حرية الانتقال إليها والاستمتاع بها لجميع السكّان، هو شرطٌ أساسيّ لإقامة المدينة المستدامة.

<u>أمَّا التحديّ الرابع والأخير فهو تحديّ التراث الحضري.</u>

فالمفهوم التقليدي للتراث الذي يُرَكِز على حماية المباني التاريخية والمجمعات المبنيّة دون الاهتمام بعلاقة التراث بالحياة المعاصرة لم يعد يسمح بالمُحافظة على الذاكرة الحيّة للمجتمعات بل إنه يُحوّل التراث الى جسم ميت ويحنّطه فيُخرجه من التاريخ. فالتراث الحضري لا يُمكن اختصاره بالمباني المُنفردة ولا حتى بالأحياء التاريخية بل هو مفهوم مركّب تتشابك فيه عدّة مستويات: جغرافية وبيئية واقتصادية واجتماعية وثقافية. وهو تراثٌ حيّ يَشمل عناصر ماديّة وأخرى غير ماديّة Tangible and Intangible ينبغي المحافظة عليها عبر ربطها بالحياة المعاصرة.

إن مثل هذا التوجّه يسمح بتفادي تحنيط التراث الحضري وتحويل مدننا التاريخية الى محاجر سياحية لا حياة فيها. فهذه المدن ليست تُحف تُحفظ في المتاحف بل هي أولاً وقبل كل شيء أنسجة حيّة ترتبط ببيئتها وتتخذ قيمتها الفعلية بارتباطها بالشبكات الأساسية التي تؤمن الحفاظ على حيويتها الاقتصادية وعلى الطابع الاجتماعي لسكانها.

فبدلاً من التركيز على تحويل مدننا التاريخية الى أرث يوضع خارج الحياة مما يجعله موضع خرافة لا عقلانية، يُصبح بالإمكان إيجاد دور جديد لها ينطلق من الإقرار بقيمتها الفريدة كمركز للذاكرة الحية ويهدف الى توثيق ارتباطها بعالم اليوم.

هكذا، يُمكن أن تتحدّد علاقة المدينة الرابعة بالتاريخ. بعيداً عن الحنين المرضي للمدينة الأولى وبعيداً عن التدمير المتعمد للتراث الذي مارسته المدينة الثانية، وبعيداً عن تحويل الأحياء التاريخية الى مجرّد أماكن مخصصة للاستهلاك كما تفعله المدينة الثالثة، تتحوّل مدننا التاريخية الى مرتكز نبني عليه ذاكرتنا للمستقبل. انه تحديّ العصر الجديد، وهذا التحدي يتخذ أهمية كبرى في مدننا العربية اليوم.

المدينة الأولى، مدينة التراث والهوية المفقودة

المدينة الثانية، انتشار نماذج المدينة الوظائفية في كافة أنحاء العالم العربي

المدينة الثالثة، مدينة الحيّز المُعَوْلم و الحيّز اللّانظامي الحيّز المُخصّص وحيّز الوكالات

إتحاد المهندسين العرب
Federation of Arab Engineers
هيئة المعماريين العرب
Association of Arab Architects